دراسات في نهج البلاغة

محمد مهدي شمس الدين

---

[١]

دراسات في نهج البلاغة

---

[٢]

الطبعة الاولى: طبعت في النجف - العراق ١٣٧٦ هـ - ١٩٥٦ م
الطبعة الثانية: طبعت في بيروت - لبنان ١٣٩٢ هـ - ١٩٧٢ م

---

[٣]

محمد مهدي شمس الدين دراسات في نهج البلاغة دار الزهراء (ع) للطباعة والنشر والتوزيع بيروت - لبنان

---

[٥]

مقدمة الطبعة الثانية بسم الله الرحمن الرحيم والحمد لله رب العالمين. والصلاة والسلام على خير خلقه محمد وآله الطاهرين. ذكرت في مقدمة الطبعة الاولى لهذا الكتاب (دراسات في نهج البلاغة) أنه أثر إنساني خالد لا يحده مكان، ولا تنتهي الحاجة إليه في زمان، لانه من الاثار الانسانية التي (لم توضع لفريق دون فريق، ولم يراع فيها شعب دون شعب، وانما خوطب بها الانسان أني وجد وكان. ولانها تلامس كل قلب، وتضمد كل جرح، وتكفكف كل دمعة، كانت ملكا أجمعين، وكانت خالدة عند الناس أجمعين). وأمل أن يلبي الكتاب حاجة يحس بها كثير من المثقفين الذين يحملون في قلوبهم هموم الحاضر في العالمين العربي والاسلامي. فعلى صعيد الشخصية نواجه غزوا فكريا وحضاريا يهدف إلى تهديم شخصيتنا، وذلك بتدمير مقوماتها من العقيدة، والحضارة والتاريخ. وعلى صعيد المجتمع نعاني من تمزقات وصراعات تستنزف قوى الامة، وتجعلها عاجزة عن التصدي لعدوها الصهيوني، والهجوم عليه بغير الكلمات والشعارات

---

[٦]

والشكاوى إلى مجلس الامن وما إليه من منظمات الاقوياء التي تخدم مصالحهم والتي تضفي صفة الشرعية على الظلم الذي ليس له مثيل في التاريخ. وهو الظلم الذي حل بالعرب والمسلمين في فلسطين بطرد شعبها وتوطين الصهاينة فيها. وعلى صعيد المفاهيم الاسلامية يعاني المسلم المتعلم وغير المتعلم، المثقف، وغير المثقف، من الالتباس وسوء الفهم، بحيث أن (الزهد) و (القناعة) و (التوكل) و (القضاء والقدر) وغيرها غدت تعني في ذهن كثير من

المسلمين معاني السلبية أمام تحديات الحياة وحركة التاريخ، والاستسلام للآخرين ولما يريده الآخرون. وماذا بعد ؟ ثمة غير هذا كثير مما نعاني منه على كل صعيد. وفي نهج البلاغة الذي يمثل الاسلام في صفاته ونقائه كما فهمه الامام علي عليه السلام، وعاشه، وطبقه - في نهج البلاغة أجوبة مبدئية على كل هذه الامور التي نعاني منها وغيرها. ولذا فإني آمل - كما قلت انفا - أن يلبي هذا الكتاب حاجة يحس بها الكثيرون منا. وقد دفع بي هذا الامل إلى الاستجابة للطلبات الكثيرة التي تلح منذ سنين على أن يعاد طبع الكتاب بعد أن نفد تماما، فاستجبت إلى ذلك راجيا من تعالى شأنه أن يجعله نافعا للناس وأن ينفعني به يوم ألقاه سبحانه وتعالى. وتمتاز هذه الطبعة عن سابقتها باضافة بعض ما خطر في البال من الافكار أثناء المراجعة السريعة له تمهيدا لطبعه. كما تمتاز بالتنظيم والترتيب، وطريقة يسهل على الباحث أن يرجع إلى نصوص من نهج البلاغة بسرعة، لاني اعتمدت - فيما اثبته من النصوص، وما لم أثبته -

---

[٧]

على ذكر أرقام النصوص، كما وردت في طبعات نهج البلاغة وأكثر الطبعات الحديثة لنهج البلاغة تحمل أرقاما متسلسلة لنصوص الامام علي عليه السلام. سواء في ذلك الخطب، أو الكتب، أو الكلمات القصار. أسأل الله تعالى أن يعلمنا ما نجهل من الحق، وأن يوفقنا للعمل بما نعلم من الحق، وأن يتقبل هذا العمل بأحسن قبوله، ويجعله خالصا لوجهه الكريم والحمد لله رب العالمين. محمد مهدي شمس الدين بيروت: الخميس ١٣ شعبان ١٣٩٢ هـ الموافق: ٢١ أيلول ١٩٧٢ م

---

[٩]

مقدمة الطبعة الاولى الارث الثقافي، وليس الحضارة المادية، هو أثمن ما خلفه الانسان للانسان. فبالثقافة يستكمل الانسان وجوده الحق، لانها تمده بالمعنى الذي لا يكون لولاه سوى وجود تافه في ميزان القيم والاقدار. وليست الحضارة المادية، مهما عظمت سوى حسنة صغيرة من حسنات الثقافة الانسانية إذا قيست بالآثار المعنوية لهذه الثقافة. ولا تفوتنا ملاحظة أن أغلب الآثار الثقافية وقتية وليست خالدة، وتخص بعض الشعوب دون أن تكون للانسانية كلها، وذلك لانها تصدر بتأثير عوامل اجتماعية معينة فتلبي حاجات عقلية واجتماعية معينة، ثم تفقد قيمتها عندما ينتفي العامل الذي أثارها، ولا يكون لها من الاصالة والعمق والعمومية ما يهئ لها أن تتعدى محيطها الخاص إلى محيط أوسع. وإلى جانب هذا الارث الثقافي الموضعي الوقتي تختص كل امة من الامم بآثار قليلة تعتبرها خالدة عندها، لا ينال من جدتها الزمان مهما طال، لان البحث فيها يتصل بما يدخل في الكيان الصميمي لتلك الامة، فهي لذلك تعتبر عند هذه الامة خالدة مادام لها كيان. وأقل منها تلك الآثار التي تعتبر ملكا للانسانية كلها في كل زمان. فلئن كان القسم الاعظم من الثقافة الانسانية محدودا بحدود الزمان والمكان.

---

[١٠]

ولئن كان القسم القليل منها محدودا بالمكان وحده. فإن القسم الاقل، والاعظم قيمة، من الثقافة الانسانية لا يحده زمان ولا مكان.

هذه الآثار خالدة عند الناس كلهم لانها لم توضع لفريق دون فريق، ولم يراع فيها شعب دون شعب، وانما خوطب بها الانسان أنى وجد وكان. ولانها تلامس كل قلب، وتضمد كل جرح، وتكفكف كل دمعة، كانت ملكا للناس أجمعين، وكانت خالدة عند الناس أجمعين. وهي قليلة، ولكنها لا تزال، على قلتها، تثير في الناس الدوافع الطيبة النبيلة، وتسمو بهم إلى أعلى، إلى ملاعب النور، كلما شدتهم عوامل الشر إلى التراب. * * * ونهج البلاغة من هذه الآثار. وسواء أنظرت إليه من ناحية الشكل أو من ناحية المضمون وجدته من الآثار التي تقل نظائرها في التراث الانساني على ضخامة هذا التراث. فقد قيل في بيان صاحبه انه دون كلام الخالق وفوق كلام المخلوق. بيان معجز البلاغة، تتحول الافكار فيه إلى أنغام، وتتحول الانغام فيه إلى أفكار، ويلتقي عليه العقل والقلب، والعاطفة والفكرة، فإذا أنت من الفكرة أمام كائن حي، متحرك، ينبض بالحياة، ويمور بالحركة. وتلك هي آية الاعجاز في كل بيان. ولم يكرس هذا البيان المعجز لمديح سلطان، أو لاستجلاب نفع، أو للتعبير

---

[١١]

عن عاطفة تافهة مما اعتاد التافهون من الناس أن يكرسوا له البيان.. أن البيان في نهج البلاغة قد كرس لخدمة الانسان. فلم يمجد الامام الاعظم في نهج البلاغة قوة الاقوياء، وانما مجد نضال الضعفاء، ولم يمجد غنى الاغنياء، وانما أعلن حقوق الفقراء، ولم يمجد الظالمين العتاة، وانما مجد الاتقياء والصلحاء. إن الحرية والعبودية، والغنى والفقر، والعدل والظلم، والجهل والعلم، والحرب والسلم، والنضال الازلي في سبيل عالم أفضل لانسان أفضل، هو مدار الحديث في نهج البلاغة. فنهج البلاغة كتاب انساني بكل ما لهذه الكلمة من مدلول: إنساني باحترامه للانسان وللحياة الانسانية، وانساني بما فيه من الاعتراف للانسان بحقوقه في عصر كان الفرد الانساني فيه عند الحاكمين هباءة حقيرة لا قيمة لها ولا قدر، إنساني بما يثيره في الانسان من حب الحياة والعمل لها في حدود تضمن لها سموها ونقاءها. لهذا ولغيره كان نهج البلاغة، وسيبقى على الدهر أثرا من جملة ما يحويه التراث الانساني من الآثار القليلة التي تعشو إليها البصائر حين تكتنفها الظلمات. وحق له أن يكون كذلك وهو عطاء انسان كان كونا من البطولات، ودنيا من الفضائل، ومثلا أعلى في كل ما يشرف الانسان. * * * وهذه دراسات في نهج البلاغة قصدت من وضعها إلى ان أكشف عن ناحية ما فطن لها من كتبوا عن الامام علي عليه السلام، وهي آراؤه في الاجتماع والاقتصاد والسياسة. فإن آراء الامام الاجتماعية والاقتصادية والسياسية لم تلاق من الكتاب العناية التي تستحقها، وكأن البحث في نشاطه السياسي قد

---

[١٢]

صرفهم عن البحث في نشاطه العلمي، مع ان نشاطه السياسي لا يمكن أن يفهم حق الفهم إلا إذا درس على ضوء آرائه الاجتماعية والسياسية والاقتصادية. وشئ آخر حفزني إلى وضع هذه الدراسات، وهو ان قسما كبيرا من الوعاظ يقدمون نهج البلاغة إلى الجماهير على انه كتاب وعظي يشل في الانسان إرادة الحياة، على ما هو المعروف من أساليب كثير من وعاظ هذه الايام، فأردت أن اكشف في هذه الدراسات عن أن نهج البلاغة ليس كتابا وعظيا بقدر ما هو كتاب يعني بمشاكل الانسان الروحية والاجتماعية والاقتصادية ويضع لها الحلول، وحتى القسم الوعظي منه ينكشف، إذا رد إلى أصوله الاجتماعية، عن مفاهيم لاتمت إلى ما يقوله هؤلاء

الوعاظ بصلة، ولا تلتقي معه على صعيد (١). محمد مهدي شمس الدين النجف الاشرف في شعبان ١٣٧٥ هـ المصادف آذار ١٩٥٦ م

---

١ - في هذا الكتاب فصل بعنوان (الوعظ) درسنا فيه القسم الوعظي من نهج البلاغة على أساس اجتماعي.

---

[١٣]

المجتمع والطبقات الاجتماعية

---

[١٥]

لعل فكرة المجتمع من اقدم الفكر التي اهتدى إليها الانسان - الفكر التي لعبت دورا خطيرا في تطوير الحياة الانسانية، ودفعت بالانسان إلى القيام بتجارب كثيرة كانت، على ما فيها من أخطاء وحماقات، تربة خصبة لتجارب أعظم اصالة، وأشد إحكاما، وأقرب إلى شريعة الصواب من سابقتها. وكانت أيضا حافزا إلى القيام بمحاولات جديدة تهدف إلى تطوير الحياة الاجتماعية وارسائها على ركائز تضمن لها استقرارها ونموها. ودخلت هذه الفكرة دورها الذهبي - ولا تزال فيه حتى اليوم - يوم جعلها العقل العلمي ميدانا لبحثه، فخرجت، بهذا، عن أن تكون ميدانا لتجارب عشواء، أو ميدانا لتطبيقات السياسيين الضيقي الافق، الناظرين إلى قريب، المبتغين النفع العاجل من جل ما يصنعون - خرجت عن أن تكون ميدانا لمثل هذه التجارب الفجة لتصير ميدانا للنظر العلمي المتزن الرصين. وصار من هم الفيلسوف - وهو رجل المعرفة الاول الذي عرفته البشرية بعد النبي - ان يتعرف على آليات الحياة الاجتماعية وقوانينها، ويدرس اتجاهاتها، ويصنف هذه القوانين والاتجاهات. خصها بمزيد من العناية سقراط وأرسطو وافلاطون، هذه القمم الشامخة في الفكر الفلسفي، وتعاقب بعدهم فلاسفة كثيرون لم يغفلوا هذه الفكرة ولم

---

[١٦]

يبخسوها حقها من البحث والتفكير.. حتى جاء ابن خلدون فسجل في (مقدمته) حدثا علميا عظيما بالنسبة إلى هذه الفكرة حين خطا الخطوة الاخيرة، فجعل منها علما قائما بنفسه يفترق عن الفلسفة في مادته وهي الحياة الاجتماعية، ويفترق عنها في منهجه وهو الملاحظة، ويفترق عنها في غايته وهي التعرف على أحسن الوسائل لتنمية الحياة الاجتماعية. وجاء العصر الحديث، عصر الجماهير، فزادت أهمية هذه الفكرة، وحصلت على هبتها العظمى من أوغست كنت في الفلسفة الوضعية، وأصبح لها دوائر معارف خاصة هي دوائر المعارف الاجتماعية، وأصبح لها معاهد علمية خاصة لا تخلو منها جامعة تشرف عليها هيئات علمية تخصصت في هذا العلم: علم الاجتماع. هذا عرض خاطف، وأرجو ألا يكون مقتضبا جدا، لمراحل تكون فكرة المجتمع وتبلورها. وهنا تجئ لحظه التساؤل عن صلة نهج البلاغة بهذا كله ؟ والجواب عن ذلك اننا أردنا ان نكشف عن ان نهج البلاغة لم يحظ بالالتفات الجدير به من هذه الناحية (١). وسنرى بعد أن نعرف ما لفكرة المجتمع في نهج البلاغة من مكان مرموق بين ما اشتمل عليه من بحوث. وبعد أن نعرف ان الامام قد

تمرس بهذه الفكرة وعاناها كما لم يتمرس بها ولم يعانها حاكم في زمانه على الاطلاق.

---

١ - اللهم إلا ما كان مؤخرا من المحاولة الموفقة التي قام بها الاستاذ الكبير جورج جرداق في كتابه القيم (الامام علي: صوت العدالة الانسانية) ففي هذا الكتاب الذي يعتبر فتحا جديدا في عالم التأليف يبرهن الاستاذ جرداق عن وعي صحيح لآراء الامام في الاجتماع الانساني وسياسة الجماعات. والكتاب، بعد، نصر لحرية الفكر، وللبحث النزيه، وبرهان حي على ان المؤلف إنسان واع لهمته (؟) كأديب قائد.

وبعد أن نعرف أن معاناته لها قد انتهت به إلى نتائج باهرة - بعد أن نعرف هذا كله يتبين لنا أن نهج البلاغة كان يجب ان ينال حظا من الالتفات إليه من الاجتماعيين، لانه يسجل حدثا مهما في فكرة المجتمع. لا نريد أن نقول إن الامام قد اخترع علم الاجتماع لنرتفع بنسب هذا العلم من ابن خلدون إلى علي بن أبي طالب عليه السلام، بعد أن تبين للدوائر الاجتماعية ان الاب الشرعي لهذا العلم ليس أو غست كنت. لا نريد أن نقول هذا، فلم يكرس الامام نفسه لاختراع العلوم، وان كان قد شارك في هذا المجال الابداعي فاخترع وحده العلم الذي حفظ للعربية أصولها وضمن لها الخلود ذلك علم النحو. لقد كانت محاولة تطبيق الصيغة الاسلامية الصحيحة للحياة الانسانية على المجتمع في سبيل بناء الانسان المتكامل - كانت هذه المحاولة هي همه الكبير كقائد رسالي بعد رسول الله صلى الله عليه وآله. ولقد كانت مشاكل السياسة والادارة والحرب هي شاغله الاول وهي ميدانه الاصيل كحاكم. إن الذي نريد أن نقوله هو انه - كحاكم عادل - قد فكر في المجتمعات التي حكمها. وفكر في أفضل الطرق والوسائل التي تنمي حياتها الاجتماعية وترتفع بها إلى الذروة من الرفاهية والقوة والامن، مع ملاحظة انها تدين بالاسلام وان شؤون اقتصادها، وحربها، وسلمها، وعلائقها الاجتماعية، تخضع لقوانين الاسلام، وانها يجب ان تأخذ سبيلها إلى النمو في اطار إسلامي بحت. وقد هداه تفكيره إلى نتائج باهرة في التنظيم الاجتماعي: فالحكم دراسات في نهج البلاغة (٢)

وضرورته، والنزعة القبلية وعقابيلها، وشغب الغوغاء ونتائجه، ودعامات المجتمع ومقوماته، والطبقات الاجتماعية وآليتها - كل ذلك خصه الامام بمزيد من البحث والتفكير، وطبق النتائج التي اهتدى إليها على المجتمعات الاسلامية، ولولا ان اعداءه الاشرار شغلوه عن أن يفرغ لمهام العمل السلمي لبادهنا من أعماله شئ عظيم. وإن ما بين أيدينا من كلامه عليه السلام في المجتمع ليدل دلالة واضحة على انه راصد اجتماعي من الطراز الاول، وإن تقسيمة للطبقات الاجتماعية وتعريفه بآلياتها ليدخل في باب الحدس العبقري والالهام. ويقينا لو ان الشريف الرضي رحمه الله حفظ لنا كل ما وقع إليه من كلام أمير المؤمنين، ولم يؤثر الفصحيح الباذخ وحده لانتهى الينا من ذلك شئ عظيم. ولو ضم ما ضاع من كلامه إلى ما حفظ إلى زمان الشريف لانتهى الينا من ذلك شئ أجل وأعظم خطرا وقدرا (١). وسيكون مركز البحث في حديثنا هذا هو الطبقات الاجتماعية في نهج البلاغة. وقبل أن نأخذ سبيلنا إليه يحسن بنا أن ندخل في حسابنا أمرا بالغ الاهمية بالنسبة إلى بحثنا هذا، فلقد قلنا آنفا إن الامام لم يقصد إلى وضع أصول علم جديد، وانما فكر - كحاكم عادل - في شؤون المجتمع وخرج من تفكيره

١ - صرح الشريف الرضي رحمه الله في مقدمة (نهج البلاغة) بأنه استجاب لرغبة الاصدقاء والاخوان في تأليف (كتاب يحتوي على مختار كلام مولانا امير المؤمنين عليه السلام.. فاجبتهم إلى ذلك.. فاجمعت بتوفيق الله تعالى على الابتداء باختيار محاسن الخطب، ثم محاسن الكتب، ثم محاسن الحكم والادب).

---

[١٩]

بنتائج طبقها أو أراد تطبيقها على المجتمع، فلذلك لم يفرغ آراءه الاجتماعية كلها في قالب علمي مجرد، وانما قدم بعضها مفرغا في التجربة العملية، ولا يسلبها قيمتها كحقيقة موضوعية أنها مفرغة في قالب تجريبي اجتماعي يسبغ عليها، بدل جمود الحقيقة العلمية المجردة، حيوية وحركية تنشأن من حيوية الجماعات وحركيتها.

---

[٢١]

(١) لا نعرف متى دخلت فكرة الطبقة، كوحدة اجتماعية كبيرة وذات مدى رحب، في تركيب المجتمع الانساني. ففي تاريخ الانسان المكتوب لا نجد حضارة تألقت ثم انطفأت إلا وكانت تعرف فكرة الطبقات، وكان لهذه الفكرة واقع عياني يضرب بجذوره عميقا في تنظيماتها الاجتماعية. كل المجتمعات التي وجدت وبادت والتي لا تزال مستمرة الوجود تقوم على النظام الطبقي. وهذا يعني، في ظاهر الحال، أنه لم يمر على البشرية وقت طويل لم تعرف فيه فكرة الطبقات. وربما كان هذا حقا بالنظر إلى ما نرجحه في تعليل نشوء المجتمع الانساني. فالمجتمع الانساني، فيما نرجح، يخضع في نشوءه لعاملين: عامل الغريزة (بمعناها الواسع الذى يشمل عاطفة الابوة والد وافع النفسية إلى تكوين العائلة) وعامل الثقافة بمعناها الواسع أيضا. وهذا يعني ان المجتمع الانساني وجد منذ اللحظة التي تعدد فيها أفراد النوع، فلم يمر على الانسان أمد طويل كان فيه حيوانا غير اجتماعي. ومنذ أخذ المجتمع الانساني في الاتساع وجدت فكرة الطبقة سبيلها إلى العقل. فالافراد يختلفون في مقدار ما يأتونه من أعمال البر والخير، ويختلفون في المواهب وفي القدرة البدنية، ويختلفون تبعا لهذا في القدرة على الصيد

---

[٢٢]

وحيازته.. هذه الامتيازات وأخرى غيرها وجدت سبيلها إلى الوعي الانساني في تصورات طبقية استتبعت فكرة الطبقات. هذا، ولكننا حين نريد أن نتناول الطبقات بالبحث لا يمكن أن نتناولها على هذا المستوى الساذج البسيط، فقد اصبحت الطبقة مؤسسة اجتماعية ضخمة تمدها بالغذاء تقاليد عريقة، وتقوم على جذور موغلة في أعماق الماضي. * * * ما المبدأ الذي يقوم عليه الانقسام الطبقي ؟ لقد اختلفت آراء الاجتماعيين في هذا المبدأ، فبعضهم يرى أنه المهنه، وثان يرى انه الدخل أو الثروة، وثالث يرى انه الدخل والمهنة معا. ولاجل الحصول على جواب صحيح لهذا السؤال نلاحظ ان هذا المبدأ يختلف باختلاف النظر إلى الطبقة كمؤسسة اجتماعية. فتارة ينظر إلى الطبقة باعتبارها تقوم بدور معين في العمليات الاجتماعية، وتقدم خدمات معينة إلى المجتمع. وأخرى ينظر إليها باعتبارها كتلة بشرية ذات مستوى (مادي) اقتصادي واحد وذات مزاج نفسي وعقلي خاص يوحد بين مفاهيم أفرادها في الاسرة وغيرها من

المؤسسات الاجتماعية، ومختلف الاذواق والطباع والعادات. لابد من اعتبار المهنة وحدها مبدأ للانقسام الطبقي إذا نظرنا إلى الطبقة من زاوية الدور الذي تقوم به في العمليات الاجتماعية، وذلك لان هذا الدور يشتق من المهنة التي تمارسها الطبقة. أما حين ننظر إلى الطبقة من زاوية مستوى الحياة المادي والمعنوي الذي تتمتع به فلا بد من اعتبار مبدأ الانقسام الطبقي المهنة والدخل معا، فالمهنة بما تخلفه في صاحبها من آثار نفسية معينة، والدخل

بما يتيحه لصاحبه من مستوى معيشي معين يشتركان في صياغة الحياة المادية والنفسية للانسان. ويختلف مبدأ الانقسام الطبقي عن هذا وذاك حين ننظر إلى الطبقة الاجتماعية من زاوية المركز الاقتصادي الذي تتمتع به في المجتمع حسب نظام الانتاج والتوزيع، ففي هذا الحال لابد من جعل مبدأ الانقسام الطبقي الدخل وحده، لان مجموع دخل الطبقة يعبر عن المركز الاقتصادي الذي تحتله بين الطبقات الاخرى. والدخل ينظر إليه هنا باعتباره ثروة متكدسة قارة ذات امكانات اقتصادية، لا باعتباره وسيلة إلى بلوغ مستوى معيشي معين (١). هذه مبادئ مختلفة للانقسام الطبقي، وهي تختلف باختلاف زاوية النظر إلى الطبقة كما رأينا. ولكننا نلاحظ ان هذه المبادئ كلها انما تعتبر مبادئ انقسام طبقي فقط، ولا تستتبع حكما تقويميا للطبقات. فمبادئ المهنة أو الدخل أو الدخل والمهنة معا تشير إلى سبب الانقسام وحده أما أن هذه الطبقة ذات قدر معين تحتله في سلم القيم والاقدار فذلك شئ لا يتضمنه مبدأ من هذه المبادئ على الاطلاق. وهنا نتسأل: ما هو المبدأ الذي يستتبع الحكم التقويمي للطبقات ؟ وبعبارة اخرى: نحن لا نتمثل المجتمع في أذهاننا سطحا مستويا تتساوى فيه الرؤوس، وانما نتمثله هرمي الشكل، فبينما توجد طائفة من الناس تحتل قمة الهرم توجد طائفة أخرى تحتل قاعدته: وتوجد بينهما طوائف تختلف

---

١ - دكتور محمد ثابت الفندي: الطبقات الاجتماعية: ص ٦٤ - ٨٠ وثمة خلاف في وجهة النظر إلى مبادئ الانقسام الطبقي فقد ذكرنا هنا أنها لا تستتبع أحكاما تقويمية ولا تسلسلا طبقيا بخلاف ما ذهب إليه أصحابها.

بالرفعة والانحطاط على حسب قربها أو بعدها عن القمة والحضيض. واذن، فإذا كان لكل طبقة من الناس قيمة معينة في التصنيف الهرمي الاجتماعي، فمن أين جاء هذا التصنيف الذي يستتبع احكاما تقويمية لمختلف الطبقات ؟ اننا، فيما أحسب، لا نستطيع أن نضع أيدينا على ضابط حقيقي لهذا التصنيف الاجتماعي إلا إذا درسناه من زاوية القيمة العليا للحياة. وذلك لان أي حكم تقويمي إنما حدث بسبب هذه القيمة العليا، فترى انه كلما قرب المرء من هذه القيمة وشارك فيها وزاد في تأكيدها واكتسب خصائصها، ارتفعت قيمته وعلت منزلته، وبالعكس نراه كلما بعد عنها ولم يساهم إلا بقسط ضئيل فيها أو لم يساهم فيها على الاطلاق هبط في المنزلة الاجتماعية. والقيمة العليا للحياة قد تكون المال والثروة، أو الفضيلة، أو السياسة، أو الحرب. وقد تكون هذه القيمة العليا عبارة عن المبدأ الذي استدعى التشعب الطبقي، وذلك كما في المجتمعات التي يكون الاقتصاد هو القيمة العليا فيها، فقد رأينا ان الاقتصاد وحده أو منضما إلى المهنة يكون مبدأ للانقسام الطبقي فإذا ما كان بالاضافة

إلى هذا قيمة عليا أيضا استتبع حينئذ أحكاما تقويمية تتفاوت بتفاوت القدرة الاقتصادية التي تملكها كل طبقة من الطبقات. وقد تكون القيمة العليا شيئا آخر غير المبدأ الذي سبب الانقسام الطبقي وحينئذ تحدث هذه القيمة انقساما في داخل كل طبقة من الطبقات، وذلك كما لو كانت القيمة العليا للحياة عبارة عن الفضيلة، فإن هذه القيمة تستتبع أحكاما تقويمية تحدث انقساما في داخل الطبقات نفسها، فقد يكون الفرد منتسبا من حيث المهنة أو المهنة والدخل أو القوة الاقتصادية إلى طبقة ضعيفة ومنحطة

المستوى المعيشي ولكنه يكون بسبب قربه من القيمة العليا التي هي الفضيلة في ذروة الهرم الاجتماعي (١). ومهما يكن من أمر فإن هذه القيم التي ذكرنا تستتبع أحكاما تقويمية تختلف باختلافها، ويتشكل وضع المجتمع صحة وفسادا بسبب ما تخلفه فيه هذه القيم من آثار، وهذا ما نلمسه حين ندرس الطبقات على أساس ان المثل الاعلى للحياة هو الفضيلة أو الاقتصاد. فتارة تكون القيمة العليا للحياة هي الفضيلة.. هي ان يكون الانسان فاضلا رحيما بالضعفاء، باذلا لهم المعونة دون أمل في تلقي الجزاء، ساعيا في خدمة النوع مؤثرا لذلك على مصالحة الخاصة وأطماعه، مستعدا للتعاون مع الغير في سبيل المنفعة العامة، منافحا عن الحق أيا كان موطنه ومستقره، محاربا الباطل في جميع أشكاله وألوانه، شاعرا بمسؤوليته كانسان، عاملا على ضوء هذه المسؤولية بحرارة وإيمان. تارة تكون القيمة العليا للحياة عبارة عن هذا، وحينئذ تتحدد المراتب الاجتماعية على أساس هذه المفاهيم، فيرقى إلى القمة كل من استطاع ان يجعل من نفسه مثلا أعلى للفضيلة، ويحتل المرتبة السفلى من المجتمع اولئك الذين لا فضيلة لهم أو الذين يستمسكون بالفضيلة استمساكا واهيا، وما بينهما تتفاوت المراتب الاجتماعية على أساس الحصيلة الاخلاقية التي يحويها الانسان ويعمل عليها. في مجتمع كهذا توجد طبقات، وقد رأيت الاساس الذي أدى إلى انقسامها، ولكن هذا التفاوت الطبقي الناشئ عن تفاوت المستوى الاقتصادي والمعيشي عند هذه الطبقات من الناس لا يأخذ صفة الصراع المتمثل في استغلال الطبقات العليا للسفلى ومحاولة هذه الاخيرة التفلت من أسر هذا الاستغلال بالثورة أو

---

١ - المصدر السابق: ص ٣٦ - ٤٤.

بغيرها من أساليب الصراع، وانما تنظر الطبقات السفلى إلى العليا نظر حب ورحمة واكبار، لانها لا ترى في الطبقات العليا مستغلين يريدون امتصاص دمائها وجهدها، وانما ترى فيهم رسل إصلاح ضحوا بمصالحهم في سبيل مصالح الجميع، وتنكروا لانفسهم وشهواتهم في سبيل الآخرين، فهم ليسوا مستغلين لان أكفهم لم تتعود غير العطاء. وفي مجتمع كهذا تنظر الطبقات العليا إلى السفلى نظرة رحمة وإشفاق وتحاول جهدها أن تنشلها من الوهدة التي قبعت فيها إلى الافق العالي حيث يقبل جبينها نور الشمس. لاصراع ولا تناحر لان الطبقات هنا لم تنحط عن القمة لانها منعت من الصعود. لاصراع ولا تناحر لان الاجنحة التي يحلق بها الانسان هنا ليست شئ خارجا عن النفس يملكه فريق ولا يجده الآخرون، وانما هي شئ ينبع من النفس.. هي أنت بما أودع الله فيك من إمكانات

الصعود، ولم تبق حيث أنت لانك لا تملك هذه الامكانات، وانما لانك فضلت واقعك اللاذ على الافق العالي حيث الثمن هو التضحية وانكار الذات. في مجتمع كهذا يحتل الاقتصاد مرتبة ثانوية من حيث التقويم، فإذا اتخذه الانسان وسيلة لنشر الفضيلة كان مزية يحمد عليها، وإلا كان رذيلة لا تهبه قيمة ولا تسبغ عليه قدرا. واخرى تكون القيمة العليا للحياة هي الاقتصاد.. النجاح المادي الخارق القائم على تكديس الاموال وتراكم العقارات، حينئذ تتحدد المراتب الاجتماعية على هذا الاساس، فيرتفع إلى القمة أولئك الاغنياء الكبار ملوك المال والاعمال، ويقبع في الحضيض أولئك الذين لا يملكون شيئا أو يملكون شيئا قليلا، وتتفاوت مراتب الناس بين هاتين الطبقتين على مقدار ما يملكون. في مجتمع كهذا توجد طبقات كما رأيت، ولكن التفاوت الطبقي يأخذ صفة الصراع، لان ما سبب الانقسام الطبقي هو مصدر القيمة في المجتمع، ولان

القيمة العليا هنا شئ خارج عن النفس فلا يكون للطبقات السفلى حينئذ أمل بالارتفاع. ومن هنا ينشأ عند الطبقات السفلى شعور بالاستغلال، ويواكب هذا الشعور شعور آخر، فالطبقات العليا عند هؤلاء تعني - بالنسبة إليهم - المزاحم على متع الحياة والسعادة والقوة، ويولد هذا الشعور في أنفسهم مشاعر الحقد والبغضاء، ويدفع بهم إلى الخيانة والاجرام. وهذا التخطيط الذي ذكرناه يصح بالنسبة إلى كل المجتمعات التي تجعل الاقتصاد مثلا أعلى لها، سواء منها ما يرفع إلى القمة الرأسماليين، أو ما يرفع إليها العمال والفلاحين، لان الصراع في هذه الاخيرة هو الصراع في المجتمعات الرأسمالية ومنابعه هنا هي منابعه هناك، فالاحقاد، والمطامع، والنيات السيئة، والمكر الخبيث هي المد النفسي الذي يطغى على الكتلة الاجتماعية في هذه الحالة وينسج مصيرها. غاية ما في الباب ان قمة الهرم الاجتماعي وقاعدته متعاكستان فنينما يحتل الرأسماليون القمة في المجتمعات الرأسمالية يحتلها - نظريا - العمال في المجتمعات الشيوعية القائمة اليوم. على أننا لا نستطيع أن نعقل ما يقال من أن الطبقة العاملة في المجتمعات الشيوعية هي التي تحتل قمة الهرم الاجتماعي. ان العلماء والاطباء والمهندسين والكتاب والممثلين ورؤساء المصانع ورؤساء الهيئات العمالية والمزارع التعاونية يتمتعون بميزات اجتماعية واقتصادية لاتتاح لسائر العمال. وإذن لا فرق بين المجتمعات الرأسمالية والشيوعية في العقابيل التي تنشأ من جعل الاقتصاد قيمة عليا، ولئن كان ثمة فرق فإنما هو في السطح والشكل، أما الاعماق. وأما ينابيع الصراع فهي واحدة في كل هذه المجتمعات. وهكذا ترى كيف أن جعل الاقتصاد قيمة عليا للحياة يسوق إلى التفسخ

الاجتماعي. ولا أتصور جريمة أكبر من جريمة الماديين الذين ينادون بان الاقتصاد هو القيمة العليا في الحياة، إنهم بخرافتهم هذه يجرون المجتمع إلى شر عظيم، ويشوهون المثل الانسانية العليا. * * * من هذين المثلين تعرف أن الطبقات الاجتماعية لا يمكن أن تدرس دراسة موضوعية صحيحة تؤدي إلى فهمها حقا، وإلى وعي مستلزماتها القريبة والبعيدة إلا إذا تناولها الباحث على صعيد المثل الاعلى في الحياة للمجتمع الذي يدرس الطبقات فيه. ولابد لنا، إذا رمنا وعيا حقيقيا لرأي الامام في هذه المسألة، أن نتناول مسألة الطبقات الاجتماعية على هذا الصعيد

[٢٩]

(٢) إن الفقر الذي هو عجز إنسان أو جماعة من الناس في المجتمع عن وجدان ما يوفر مستوى الكفاية في العيش - ان الفقر بهذا المعنى ظاهرة حاربها الاسلام في تشريعه ووصاياه كما سنرى ذلك فيما يأتي من ابحاث - واعتبرها شرا إنسانيا باعتباره يسبب حرمان الانسان من أحد حقوقه الذي هو الكفاية في العيش، وشرا اجتماعيا باعتباره يعوق المجتمع عن التقدم المادي والمعنوي، واعتبر الاسلام ان المجتمع الامثل الذي يسعى إلى تكوينه هو المجتمع الذي لا فقر فيه ولا فقراء. ومن هنا فاننا حين نستعمل كلمة (طبقات) في سياق الحديث عن الاسلام فإنما نقصد بذلك الفئات الاجتماعية، وليس الطبقات بالمعنى الذي شاع استعماله في الادب السياسي في العصر الحاضر، وإنما حرصنا على استعمال كلمة طبقات لانها وردت في كلام الامام علي بمعنى فئات اجتماعية، ولم تكن في ذلك الحين قد تضمنت معناها الذي تعنيه الآن. * * * لقد اعترف الاسلام كما اعترف الامام بالطبقات الاجتماعية (الفئات) القائمة على أساس اقتصادي أو مهني أو عليهما معا، وذلك لان وجود هذه الطبقات (الفئات) ضرورة لا غنى عنها ولا مفر منها في المجتمع، فلا بد أن يوجد تصنيف مهني يقوم بسد حاجات المجتمع المتجددة، ولابد أن يوجد اناس

[٣٠]

لديهم مال كثير وآخرون لا يملكون من المال إلا قليلا لان التحكم التام في توزيع الثروات على نحو متساو أمر مستحيل إطلاقا. وإذا اختلفت المهن وتفاوتت الثروات فلابد أن يختلف مستوى المعيشة ويتفاوت طراز الحياة المادي والنفسي وحينئذ توجد الطبقات. وقد رأينا أن التفاوت الطبقي يصير منبعا للصراع الطبقي إذا جعل الاقتصاد مثلا أعلى للحياة. وإذن، فالتفاوت الطبقي الناشئ عن التفاوت الاقتصادي خطر بقدر ما هو ضروري، وإذا لم يوضع للمجتمع نظام يذهب بالخطر من هذا التفاوت ويستبقي جانب الخير فيه فانه خليق بأن يسبب للمجتمع بلبلة تقوده إلى الدمار. وهنا تتجلى عبقرية الاسلام وعبقرية الامام. فقد تدارك الاسلام هذه الثغرة فسدها بنظام من القوانين عظيم، وجاء الامام فوضع قيودا اخرى تحول بين التفاوت في مستوى الدخل وبين ان يحلف في المجتمع عقابيله الضارة، وآثاره الوبيلة. وعند الحديث عن التدابير الحكيمة التي وضعها الاسلام لوقاية المجتمع من شرور التفاوت في المستوى الاقتصادي يجئ الحديث عن المثل الاعلى للحياة في الاسلام قبل كل حديث. وحديثنا عن المثل الاعلى للحياة في الاسلام يسوقنا إلى الحديث عن المثل الاعلى للحياة عند الامام. وما نهج البلاغة إلا انعكاس الاسلام في نفس الامام. ومن هنا كان الحديث عن أحدهما يلزمه الحديث عن الآخر كما تستهدى العين بخيوط الشعاع على مركز الاشراق. * * *

[٣١]

إن المثل الاعلى للحياة في الاسلام وعند الامام هو التقوى. فقل أن ترد سورة في القرآن لم يرد فيها الامر بالتقوى، تقوى الله. وقل أن ترد خطبة أو كلام في نهج البلاغة لم يرد فيه الامر بالتقوى، تقوى الله. فالقرآن أمر بالتقوى، وفصلها، ومدح المتقين، والامام أمر بالتقوى، ووصفها، ومدح المتقين. قال عليه السلام: (أوصيكم عباد

الله بتقوى الله، فإنها حق الله عليكم، والموجبة على الله حقكم، وأن تستعينوا عليها بالله، وتستعينوا بها على الله، فإن التقوى في اليوم الحرز والجنة (١) وفي غد الطريق إلى الجنة. مسلكها واضح، وسالكها رابح، ومستودعها حافظ، لم تبرح عارضة نفسها على الامم الماضين والغابرين، لحاجتهم إليها غدا.. فاهطعوا باسماعكم إليها، وكظوا بجدكم عليها، واعتاضوها من كل سلف خلفا) (٢). وقال عليه السلام: (أما بعد فاني أوصيكم بتقوى الله. فان تقوى الله دواء داء قلوبكم، وبصر عمى أفئدتكم، وشفاء مرض أجسادكم، وصلاح فساد صدوركم، وطهور دنس أنفسكم، وجلاء عشا أبصاركم، وأمن فزع جأشكم، وضياء سواء ظلمتكم. فمن أخذ بالتقوى عزبت عنه الشدائد بعدد، نوها، واحلولت له الامور بعد مرارتها، وانفرجت عنه الامواج بعد تراكمها،

---

١ - الجنة الدرع الواقية. ٢ - نهج البلاغة - رقم الخطبة: ١٨٦.

وسهلت له الصعاب بعد إنصابها، وهطلت عليه الكرامة بعد قحوطها، وتحدبت عليه الرحمة بعد نفورها، وتفجرت عليه النعم بعد نضوبها، ووبلت عليه الكرامة بعد إرذاذها) (١). وقال عليه السلام: (. فإن تقوى الله مفتاح سداد، وذخيرة معاد، وعتق من كل ملكة، ونجاة من كل هلكة، بها ينجح الطالب، وينجو الهارب، وتنال الرغائب (٢). ولكن ما هي التقوى ؟ إن الامام عليه السلام لم يتعرض لوصف التقوى من داخل إذا صح التعبير. انه اكتفى - على كثرة ما قاله فيها - بوصفها من خارج: ميزاتها، وفضلها، وثمرتها، وأصحابها، أما هي بذاتها: مقوماتها، طبيعتها، فأمر لم يتعرض له له الامام عليه السلام وانما تعرض له القرآن. ولعل الامام ترك الكلام في هذه الجهة اعتمادا على ما جاء في القرآن، واعتمادا على ان المسلمين إذ ذاك كانوا ولا شك يعون ما هي التقوى، فاكتفى بتشويقهم إلى الاخذ بها والاعتصام بحبلها. أو ان الامام قد تكلم في هذا الموضوع وأعطاه حقه من البيان ولكن الشريف رحمه الله لم يقع على شئ منه، أو وقع عليه ولم يكن بين ما اختاره. وعلى أي حال ففيما قدمه لنا القرآن غنى وكفاية. * (هامش) ١ - المصدر السابق - رقم الخطبة: ١٩٣. ٢ - ((- ((: ٢٢٥.

قال الله تعالى: (. ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين * الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون * والذين يؤمنون بما أنزل اليك وما أنزل من قبلك وبالآخرة هم يوقنون * أولئك على هدى من ربهم وأولئك هم المفلحون) (١). وقال تعالى: (ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب، ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيين، وآتى المال على حبه ذوي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل والسائلين وفي الرقاب، وأقام الصلاة، وآتى الزكاة، والموفون بعهدهم إذا عاهدوا، والصابرين في البأساء والضراء وحين البأس، أولئك الذين صدقوا وأولئك هم المتقون) (٢). وقال تعالى: (وسارعوا إلى مغفرة من ربكم وجنة عرضها السماوات

---

١ - سورة البقرة: ٢ - ٥. ٢ - سورة البقرة: ١٧٧. دراسات في نهج البلاغة (٣)

---

[٣٤]

والارض أعدت للمتقين * الذين ينفقون في السراء والضراء، والكاظمين الغيظ، والعافين عن الناس والله يحب المحسنين) (١). وقال الله تعالى: (ولا يجرمنكم شنآن قوم على ألا تعدلوا اعدلوا هو أقرب للتقوى) (١). وروي عن النبي صلى الله عليه وآله انه قال: جماع التقوى في قوله تعالى: (إن الله يأمر بالعدل والاحسان، وإيتاء ذي القربى، وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغي، يعظكم لعلكم تذكرون) (٣). من هذه النصوص الالهية، وغيرها أكثر منها، نعرف طبيعة التقوى: إنها الفضيلة في أرفع معانيها وأجل صورها. إنها الايمان بالله في أطهر حالاته وأسمى معانيه. وبذل المال لمن أعوزه المال... ولكن كيف.. ؟ إنها بذل المال على حبه.

---

١ - آل عمران: ١٣٣ - ١٣٤. ٢ - المائدة: ٨. ٣ - مجمع البيان في تفسير القرآن ١ - ٣٧، والآية في سورة النحل: ٩٠.

---

[٣٥]

حب الله تعالى، فلا امتنان على المعطى ولا إفضال، ومتى ؟ إنها بذله في السراء والضراء. وهي الصبر في جميع المواطن وجميع الاحوال. وهي كظم الغيظ، وهي العفو عن الناس، وهي العدل فيهم والاحسان إليهم إلى غير ذلك من حميد الاخلاق وجميل الخصال. هذه هي التقوى. فإذا حققت التقوى في نفسك: وعيت وجود الله وأمره ونهيه في كل ما تلم به من فعل أو قول، وتحريت الفضيلة أنى كانت فأخذت بها وأخضعت نفسك لها، وجعلت من نفسك وجميع إمكاناتك خلية إنسانية حية، تعمل بحرارة وإخلاص على رفع مستوى الكيان الاجتماعي الذي تضطرب فيه، وصدرت في ذلك كله عن إرادة الله المتجليه فيما شرع من أحكام، تكون قد حققت في نفسك المثل الاعلى الذي نصبه الاسلام. فالمال لا يكسب قيمة إلا إذا بذل حيث أجاز الله أن يبذل، وإلا إذا اتخذ وسيلة إلى رضوان الله. أما أولئك الذين لا يبذلون أموالهم فلا جدوى منهم للجماعة، ولذلك فلا مزية لهم على غيرهم من الناس الذين لا مال لهم. والسلالة لا قيمة لها حين لا يكون صاحبها متقيا لله. والقوة لا قيمة لها حين لا يستخدمها صاحبها في مرضاة الله. والسلطان ؟ انه لا يكسب صاحبة قيمة إلا إذا كان ذا تقوى. هناك أغنياء وفقراء، وحاكمون ومحكومون، وأقوياء وضعفاء، وأناس تحدروا من سلالات لها ماض عريق وآخرون ليس لهم ماض مذكور، ولكن كل هذا لا يرفع من صاحبه ولا يضع الا إذا اقترن بالتقوى أو عري عنها. وتعاليم الاسلام صريحة في ذلك لا لبس فيها ولا غموض، فهي تنص على أن القطب الذي يدور عليه التفاضل ليس شيئا غير التقوى.

---

[٣٦]

قال الله تعالى: (يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم) (١). وقال النبي ص: (لا فضل لعربي على عجمي إلا بالتقوى). وقال الامام ع: (لا تضعوا من رفعته التقوى، ولا ترفعوا من رفعته الدنيا) (٢). وإذن،

فالقيم الاجتماعية تتفرع عن هذا الاصل، وتنبثق من هذا الينبوع. وهكذا تكون الرغبة في الخير، ورضوان الله، ومساعدة الضعفاء، وتكريس المواهب في سبيل الجماعة تقربا إلى الله، هي رائد كل إنسان وعى مبادئ الاسلام. وهكذا يكون المجتمع متحابا متراحما متآزرا متعاونا على البر والتقوى، بدل أن يكون في صراع يؤدي به إلى التفسخ والانحلال. هذا هو المثل الاعلى للحياة في الاسلام وعند الامام. * * * ولكن الاسلام حين جعل الفضيلة مصدر القيمة الاجتماعية، وأراد أتباعه أن يحملوا أنفسهم على هذا المركب، صونا للمجتمع من أخطار التفاوت الطبقي لم يغفل أمر الواقع النفسي والشعوري للانسان. فإن القوي الغني يتغنى بالفضيلة في كل آن، ولكنه عندما تستيقظ فيه نوازع العدوان يمضي في سبيل الشر دون أن يصغي إلى نداء فضيلة أو تقريع

---

١ - سورة الحجرات: الآية، ١٣. ٢ - نهج البلاغة - رقم الخطبة: ١٨٩.

ضمير. وعندئذ تغدو الفضيلة ضلا لا أثر له في صيانة المجتمع من أخطار التفاوت الطبقي. لذلك لم يكل أمر تحقيق القيمة العليا إلى الانسان وحده، وإنما جعل لها سندا من القانون، ليكون لها من القوة ما يحمل الاغنياء الاقوياء، وغير الاغنياء على التمسك بها. وكان من ذلك أن ساوى بين جميع الطبقات في الحقوق والواجبات، فالجميع سواء أمام الله، والجميع سواء أمام القانون، وجريمة الغني هي جريمة الفقير، وجريمة الرفيع هي جريمة الصعلوك، لا يمتهن هؤلاء لضعفهم ولا يحابى أولئك لشرفهم. وبهذا حال بين الطبقات العليا وبين أن تطعى وتعتز، لانه أثبت لها أن الغنى والسلالة والماضي العريق لن تجدي شيئا أمام القانون. وحال بين الطبقات السفلى وبين أن تشعر بالحيف والضعة والاستغلال، لانه أثبت لها أن عدم الغنى وأن ضعة النسب لا تجعل من القانون لها عدوا، وإنما هي أدعى لان تجعله أرفق بها، وأحنى عليها، وأرعى لشؤونها في السراء والضراء. * * * وحين تحتد الفروق الاقتصادية، فتتسع وتعمق، تغيض منابع الفضيلة من المجتمع وتسوده نوازع الحيوان. فأنت لا تستطيع أن تطلب من جائع لا يجد القوت أن يصير فاضلا، لان الحرمان لا يدفع إلى الفضيلة وإنما يخلق تصورات الحرمان التي تدفع إلى التمرد والاجرام حين لا يجد المحروم اليد البارة الوصول. إن الجائع الذي لا يجد ما يسد جوعته وإن خشن وهان، والعاري الذي يجد للريح مثل لسع السياط، وللشمس مثل مس الحميم، والمريض الذي لا يجد ثمن الدواء ولا الخلاص من اللاواء - هؤلاء لا يستطيعون أن يتغنوا بالفضيلة حين يرون الغني الكاسي الصحيح الذي لايعرف معنى للجوع، فالفضيلة ليست

طعاما ولا كساء ولا دواء، إن هؤلاء ينقلبون إلى قتلة ومجرمين ولصوص حين لا يجدون ما يسدون به حاجاتهم الاولية من طريق مشروع. وهكذا يظهر إلى العيان الصراع الطبقي بالرغم من أن المثل الاعلى هو الفضيلة ومكارم الاخلاق. وعى الاسلام هذا الواقع فلم يكل أمر صيانة المجتمع من أخطار التفاوت الطبقي إلى المثل الاعلى وحده، وانما أولى الاقتصاد ماله من الاهمية في أمر الصيانة والعلاج. فشرع الله تعالى أحكاما تحول دون تكون الثروات بطريق غير عادل وغير مشروع - وتحول بين أصحاب الثروات بعد أن تتكون لديهم

الثروة بطريق مشروع وبين أن يستخدموها في استغلال الآخرين. وشرع نظاما للضرائب (الزكاة، الخمس) والمواريث يفتت هذه الثروات تدريجيا، ويحول بينها وبين التراكم والتعاظم، وأعطى للحاكم حق وضع اليد على ما تقضي به المصلحة العامة من أموال الاغنياء إذا قضت بذلك حاجة طارئة تعجز عن الوفاء بها المصادر التقليدية لتمويل النفقات العامة. وشرع نظاما للاموال العامة يغذي من الضرائب ومصادر الثروة العامة، يضمن مستوى الكفاية في العيش لجميع الناس. وبذلك يحول بين المجتمع الاسلامي وبين أن توجد فيه ظاهرة الفقر بالمعنى الاقتصادي الاجتماعي المعروف، وإن كان هذا لا يعني أن يتساوى الناس في دخلهم وفيما يملكون، لان هذا أمر مستحيل في أي مجتمع يتخيله الانسان على الاطلاق. ويدخل في باب الاحلام والتصورات الطوباوية التي تاباها واقعية الاسلام. وبذلك يشعر الفقراء أنهم ليسوا مهملين: لاعين ترعاهم، ولا يد تأسو جراحهم، وتقيلهم عثرات الزمان.. بل يشعرون أنهم ملء سمع المجتمع وبصره، فتختفي دوافع الاجرام من أنفسهم، وحينذاك يقول لهم الاسلام: إن المثل الاعلى هو الفضيلة، ويطلب إليهم أن

يكونوا فضلاء.. وأن يجعلوا الارض اختا للسماء. * * * فقد وعى الامام ان الانسان الجائع، المستغل، المحروم، المصفد بالاغلال لا يستطيع أن يكون فاضلا، وأن من اللغو أن يوعظ بالوعد والوعيد، والترغيب والترهيب، وإن إنسانا كهذا ينقلب كافرا: كافرا بالقيم، والفضائل والانسان. إن معدته الخاوية، وجسده المعذب، ومجتمه الكافر بانسانيته، المتنكر له، وشعوره بالاستغلال، وميسم الضعة الذي يلاحقه أنى كان - هذه كلها تجعله لصا، وسفاحا، وعدوا اللانسانية التي لم تعترف له بحقه في الحياة الكريمة. ووعى ان المجتمع القائم على سيادة فريق وعبودية فريق، وعلى استغلال الاسياد للعبيد، والاحرار للمصفدين بالاغلال، مجتمع لا يمكن أن توجد فيه فضيلة ولا يمكن أن يوجد فيه فضلاء. إنه ليس إلا مجتمع لصوص ومجرمين وعبيد، تسير أفراده الاحقاد والمكر والاستغلال، وما كانت اللصوصية والعبودية وما إليها يوما فضائل تشرف الانسان. على أساس من هذا الوعي جعل الامام الاصلاح الاقتصادي أساسا للاصلاح الاجتماعي. ولقد كان من الطبيعي جدا - حتى عند المفكرين والمصلحين - في عصر الامام وقبله أن يوجد أناس جائعون فقراء، وان يوجد أغنياء يحارون كيف ينفقون أموالهم، فلم يكن الفقر بذاته والغنى بذاته مشكلة اجتماعية تطلب حلا، لانها في نظرهم أمر طبيعي لا محيد عنه. إنما المشكلة هي: كيف السبيل إلى اسكات الفقراء وحماية الاغنياء ؟ فكان الامام - بعد النبي الاعظم صلى الله عليه وآله وسلم هو أول من كشف أن الفقر والغنى مشكلة اجتماعية خطيرة، ونظر إليها على أساس أفاعيلها الاجتماعية.

إن فلسفة الفقر عنده تجتمع في هاتين الكلمتين: (إن الله سبحانه فرض في أموال الاغنياء أقوات الفقراء فما جاع فقير إلا بما متع به غني) (١). و (ما رأيت نعمة موفورة إلا وإلى جانبها حق مضيع). ومن هنا أصبح من أبرز المشاكل التي حفل بها منهجه الاصلاحي يوم ولي الحكم، مشكلة الفقر والغنى. ولقد كان مجتمعه إذ ذاك يعاني جراحا عميقة بسبب هذه المشكلة، فقد ولي الامام الحكم والتفاوت الطبقي في المجتمع الاسلامي على أشد ما يكون عمقا واتساعا. ففي العهد السابق على ولاية الامام عليه السلام للحكم كانت

الطريقة المنبعة في التقدير وإظهار الكرامة هي التفضيل في العطاء. وقد اتبعت هذه الطريقة في بعض الحالات بصورة خارجة عن حدود المعقول والمقبول، ففضل من لا سابقة له في الدين ولا قدم له في الاسلام على ذوي السوابق والاقدار. وقد أوجد هذا اللون من السياسة المالية طبقة من الاشراف لا تستمد قيمتها من المثل الاعلى للاسلام، وإنما تستمدها من السلالة والغنى والامتيازات التي ولا ماض عريق، وكان من عقابيل ذلك أن أحس الفقراء الضعفاء بالدونية واستشعر الاشراف الاستعلاء، وحرم الفقراء المال الذي تدفق إلى جيوب الاغنياء. فلما ولى الامام الحكم الفى بين يديه هذا الارث المخيف الذي يهدد باستئصال ما غرسه النبي في نفوس المسلمين.

---

١ - نهج البلاغة - باب المختار من حكم أمير المؤمنين - رقم: ٣٢٨.

---

[٤١]

وقد عالج هذا الواقع الذي سيق (؟) إليه بالتسوية بين الناس في العطاء، فالشريف والوضيع، والكبير والصغير، والعربي والعجمي، كلهم في العطاء سواء. فلم يجعل العطاء مظهرا للتفاضل بين الافراد والافراد والطبقات والطبقات. وبهذا أظهر للناس أن القيمة ليست بالمال، وحال بين الفقراء والضعفاء وبين الشعور بالدونية، وبين الاشراف والاقوياء وبين أن يشعروا بالاستعلاء. وأهاب بالناس أن يثوبوا إلى الله فيجعلوا التقوى مناط التفاضل ومقياس التقويم. وقد ثارت الطبقة الارستقراطية لسياسة المساواة المالية التي قام بها الامام فأشاروا عليه أن يصطنع الرجال بالاموال، فقال: (أتأمروونني أن أطلب النصر بالجور فيمن وليت عليه ؟ والله ما أطور به ما سمر سمير، وما أم نجم في السماء نجما، لو كان المال لي لسويت بينهم، فكيف وإنما المال مال الله. ألا وأن اعطاء المال في غير حقه تبذير وإسراف..) (١) ولم يكن هذا كل ما ينتظر الطبقة الارستقراطية على يديه يوم أمسك بالزمام، لقد كانت أموال الامة تتدفق - تحت عينيه - قبل أن يتولى الحكم إلى جيوب فريق من الناس، فأخذ على نفسه عهدا بمصادرتها، بردها إلى أهلها، وكان أن أعلن للناس يوم ولي الحكم مبدأ من جملة المبادئ التي أعدها لمحاربة الفقر الكافر في مجتمعه الموشك على الانهيار، فقال: (ألا إن كل قطيعة أقطعها عثمان، وكل مال أعطاه من مال الله، فهو مردود في بيت المال. فإن الحق لا يبطله شئ. ولو وجدته قد تزوج به النساء،

---

١ - نهج البلاغة - رقم النص: ١٢٤.

---

[٤٢]

وفرق في البلدان لرددته، فإن في العدل سعة، ومن ضاق عليه الحق فالجور عليه أضيق) (١). وكم كان يقض مضجعه عدم التوازن في توزيع الثروات في زمانه عليه السلام، فتراه يصرخ أكثر من مرة، من على منبر الكوفة، بمثل هذا القول: (.. وقد أصبحتم في زمن لا يزداد الخير فيه إلا إدبارا، والشر فيه إلا إقبالا، والشيطان في هلاك الناس إلا طمعا.. إضرب بطرفك حيث شئت من الناس: هل تبصر إلا فقيرا يكابد فقرا ؟ أو غنيا بدل نعمة الله كفرا ؟ أو بخيلا اتخذ البخل بحق الله وفرا ؟ أو متمردا كأن بأذنه عن سمع المواعظ وقرا، أين

خياركم وصلحاؤكم، وأحراركم وسمحاؤكم ؟ وأين المتورعون في مكاسبهم، والمتنزهون في مذاهبهم ؟) (٢). ولا يعالج الفقر عند الامام بالمواعظ والخطب، وإنما يعالج بحماية مال الامة من اللصوص والمستغلين، ثم بصرفه في موارده. وبهذا عالجه الامام، فكان عينا لا تنام عن مراقبة ولاته على الامصار: وعن التعرف على أموال الامة وطرق جبايتها وتوزيعها. وكم من وال عزل وحوسب حسابا عسيرا لانه خان أو ظلم أو استغل. وكم من كتاب كتبه عليه السلام إلى ولاته يأمرهم أن يلزموا جادة العدل فيمن ولوا عليهم من الناس (٢).

---

١ - نهج البلاغة - رقم الخطبة: ١٥، وهذا الكلام جزء من خطبة خطبها في اليوم الثاني من بيعة للناس له بالخلافة، ولم يذكر الرضي رحمه الله النص بكامله. ٢ - نهج البلاغة - رقم الخطبة: ١٢٧. ٣ - نهج البلاغة - راجع مثلا كتابه إلى الاشعث بن قيس عامل اذربيجان، رقم النص: -

---

وبينما هو يأمرهم بهذا يضع عليهم العيون والرقباء ليرى مدى طاعتهم وتنفيذهم لاوامره. لقد كان عليه السلام، بهذا، أول من اخترع نظام التفتيش. ولقد كان يكتب إلى ولاته: (إن أعظم الخيانة خيانة الامة (١)) وليس الولاة أعضاء في شركة مساهمة هدفها أن تستغل الامة وإنما هم كما كان يكتب إليهم (خزان الرعية، ووكلاء الامة، وسفراء الائمة) (٢). وكون الاموال العامة هي أموال الامة مفهوم لم يأخذ صيغته الحقة إلا على لسان الامام عليه السلام وفي أعماله. لقد جاءه أخوه عقيل يطلب زيادة عن حقه فرده محتجا بأن المال ليس له وإنما هو مال الامة (٣)، وجاءه ثان يطلب إليه أن يعطيه مالا، مدلا بما بينهما من رابطة الحب فرده قائلا: (إن هذا المال ليس لي ولا لك وإنما هو فئ للمسلمين) (٤). * * * بهذا كله لم يكل الاسلام ولا الامام أمر إلتزام الفضيلة في السلوك إلى الضمير وحده وإنما جعلا لها سندا من القانون يكفل لها أن تصير واقعا اجتماعيا تنبني عليه العلاقات الاجتماعية والسلوك الانساني. ولكنهما لم يجعلا القانون كل شئ في حياة الانسان لئلا يكون آلة مسيرة لا تملك اختيار ما تريد، وإنما أناطا جانبا من سلوكه بملزمات الضمير بعد أن أيقضا هذا الضمير. ولم يكلا أمر

٥، وكتابه إلى زياد بن سمية وهو متول على البصرة، رقم النص: ٢٠ - ٢١، وكتابه إلى بعض عماله، رقم النص: ٤٦، وغير ذلك كثير نجده في باب المختار من كتب أمير المؤمنين في القسم الاخير من نهج البلاغة. ١ - نهج البلاغة - من عهد له إلى بعض عماله على الخراج، رقم النص: ٢٦. ٢ - نهج البلاغة - من كتاب له إلى عماله على الخراج: ٥١. ٣ - نهج البلاغة - رقم النص. ٢٢٢. ٤ - نهج البلاغة - من كلام له مع عبد الله بن زمعه، رقم النص: ٢٣٠.

صيانة المجتمع من أخطار التفاوت الطبقي إلى الفضيلة وحدها، لانها لا تسد حاجات الانسان التي لا يقوى بدونها على التزام الفضيلة ومكارم الاخلاق، وإنما أناطا جانبا من مهمة الصيانة بالاقتصاد لانه هو الذي يسد حاجات الانسان. وهكذا، بين الضمير اليقظ والقانون الواعي لحاجات الفرد والمجتمع ينمو الانسان المسلم، ويأخذ سبيله إلى الكمال النسبي الذي يتاح للانسان. * * * وحيث قد تبين لنا موقف الاسلام وموقف الامام من الطبقات الاجتماعية والتفاوت الطبقي، فلنسلك سبيلنا إلى دراسة الطبقات الاجتماعية في نهج

البلاغة. * * * راجع الاوامر بالتقوى، ووصفها، ووصف المتقين في نهج البلاغة في النصوص التالية: رقم - ١٥، و ٦٢ و ٨١ و ٨٢ و ١١٢ و ١٣٠ و ١٥٥ و ١٥٩ و ١٦٥ و ١٧١ و ١٨٠ و ١٨١ و ١٨٦ و و ١٨٩ و ١٩٠ (القاصعة) و ١٩١ و ١٩٢ و ١٩٣ و ١٩٤ و ١٩٦ و ٢٢٨، وفي باب الكتب رقم ١٢ و ٢٥ و ٢٦ و ٢٧ و ٣٠ و ٣١، (وصية لابنه الامام الحسن) و ٤٥ و ٤٧ و ٥٣ (عهد الاشتر) و ٤٦ وفي المختار من حكمه وكلماته القصار - رقم ٩٥ و ٢٠٣ و ٢١٠ و ٢٤٢ و ٣٤٤ و ٣٨٨ و ٤١٠.

---

(٣) مصدرنا الكبير والاساس من نهج البلاغة، في دراسة الطبقات الاجتماعية عند الامام هو كتابه إلى مالك بن الحارث الاشتر النخعي حين ولاه مصر وعزل به محمد بن أبي بكر عنها يوم شغب الحزب الاموي على هذا الاخير، وضعف أمره. ولكن لم يطبق في مصر شئ من هذا القانون الذي كتبه الامام. فقد دس معاوية من قضى على الاشتر وهو في أعتاب مصر (القلزم - منطقة السويس حاليا) بسم دس في كأس من عسل، وذلك في سنة ٣٨ هجرية، وبعد ذلك قتل محمد بن أبي بكر، وتمت لمعاوية الغلبة على مصر فنزل عنها لعمرو بن العاص وفاء بالعهد الذي بينهما (١).

---

١ - لم يوافق عمرو بن العاص على الاشتراك مع معاوية في العمل السياسي والعسكري ضد أمير المؤمنين علي عليه السلام إلا بعد أن تعهد معاوية بأن يولي عمرو ابن العاص على مصر ولاية مطلقة. وقد جاء في صك الولاية المذكورة (.. ان معاوية أعطى عمروا ابن العاص مصر وأهلها هبة يتصرف كيف يشاء). وقد وردت بعض الاشارات في نهج البلاغة إلى هذه الاتفاقية بين معاوية وعمرو بن العاص منها قوله: (.. ولم يبايع حتى شرط أن يؤتيه على البيعة ثمنا فلا ظفرت يد البائع، وخزيت أمانة المتباع..) رقم النص: ٢٦. ومنها (.. إنه لم يبايع معاوية حتى شرط ان يؤتيه أتية، ويرضخ له على ترك الدين رضيخة) رقم النص: ٨٢.

وما بين أيدينا من هذا العهد ليس تمامه. لا، إنما قطع منه اختارها الشريف الرضي رحمه الله. وليته أثبته كله، إذن لزدنا بصرا بآراء الامام في هذا الموضوع، ولكن ماذا نصنع والشريف لم يختر إلا البليغ من كلامه عليه السلام. ويحسن بنا أن ننوه، ونحن على أعتاب البحث عن الطبقات الاجتماعية في نهج البلاغة، بان التقسيم الطبقي الذي ذكره الامام يقوم بالدرجة الاولى على الوظيفة الاجتماعية التي تؤديها كل طبقة، وهناك تقسيم آخر يتم في داخل الطبقات هو التقسيم على أساس المثل الاعلى، والتقسيم الاول لا يستتبع حكما تقويميا على الشخص المنتسب إلى طبقة ما يجعله في القمة أو ينحدر به إلى الحضيض. ان التقسيم الذي يستتبع الحكم التقويمي، أعني الذي يحدد قيمة الشخص، إنما هو التقسيم الثاني، فالانسان الذي يستغل إمكاناته في سبيل خير المجتمع هو في القمة أما الانسان الذي يتخذ هذه الامكانات سبيلا إلى العيث والافساد وإضرار المجتمع فذلك شخص يحتل مركزه في الطبقات السفلى. وإذن فترتيب الطبقات في التقسيم لا يعني ترتيبها في القيمة، فيكون الجنود هم الطبقة العليا ويكون المعدمون هم الطبقة السفلى، وتكون قيمة ما بينهما على هذا الترتيب قربا من الجنود وبعدا عنهم. لا، فقد عرفت ان الامام لم يراع قيمة كل طبقة حين قدمها واخرها، وإنما راعى الخدمات الاجتماعية التي تقوم بها، أما القيمة فلا تقاس إلا بالتقوى. ونقدم بين يدي بحثنا هذا ملاحظة لها

خطرها، وهى: ان هناك طبقات (فئات) افترض الامام وجودها وتحدث عنها كأهل الخراج، والتجار والصناع، والمعدمين، وهناك طبقات لم يفترض وجودها، وإنما تكلم رأسا في كيفية إنشائها وتكوينها، فإلام تشير هذه الملاحظة ؟ ان ما تشير إليه هذه الملاحظة، فيما أرى، أمر طريف جدا ومعجب حقا،

---

[٤٧]

فالطبقات التي تكلم الامام في كيفية إنشائها وتكوينها هي: طبقات (فئات) العسكريين، والوزراء، والولاة، والقضاة. وهذه الهيئات هي التي تشرف على تنظيم المجتمع وسير الحياة الاجتماعية والاقتصادية والسياسية والدفاعية، وبها يتعلق مصير المجتمع النير أو الوبيل، وقد كانت هذه الاجهزة قبل عهد الامام فاسدة ومتهرئة فاراد الامام أن ينشئها من جديد. ومن هذه الملاحظة نستكشف مدى عظمة الامام في المسائل الاجتماعية. فالمجتمع، خيره وشره، نحن نصنعه بأيدينا، وليس ضربة لازمة لنا أن نعيش في مجتمع متذائب متداع لا يوفر لافراده فرصا حسنة، وانما بامكاننا أن نعيش في مجتمع حسن التنظيم يجد فيه كل فرد من الافراد المجال الرحب لتحقيق مطامحه التي يريد، ولا يتم ذلك إلا إذا أصلحنا الاجهزة التي تدير آلة الحكم أو بدلناها بأخرى أجدى منها. بهذه العقلية العظيمة الواعية نظر الامام عليه السلام إلى المجتمع الاسلامي في أيامه، وبهذه العقلية العظيمة الواعية وضع له هذا النهج وسن له هذا القانون، ولكن مجتمع مصر لم يسعد بتطبيق هذا النظام. * * * قسم الامام الرعية إلى طبقات (فئات) سبع. ١ - الجنود ٢ - كتاب العامة والخاصة، وهم بمنزلة الهيئة الوزارية ومساعديها. ٣ - القضاة ٤ - الولاة ٥ - الزراع ٦ - التجار ٧ - الطبقة السفلى.

---

[٤٨]

ولكنه في مورد ثان جعل القضاة والولاه والكتاب طبقة واحدة، وان كان فيما بعد قد جري في الكلام عن الطبقات على تقسيمه الاول. ومع أنه يمكن إدراج الكتاب والولاة في طبقة واحدة باعتبارهم إداريين من حيث الوظيفة، وباعتبار ان (نوع الحياة) الذي يحيونه واحد أيضا، فان مستوى الدخل والانفاق والتصورات الاجتماعية عندهم واحدة أو متقاربة تقاربا شديدا - أقول مع أنه يمكن إدراج هاتين الطائفتين في طبقة واحدة جعلهما الامام طبقتين متمايزتين. وأحسب أن الذي دفعه إلى ذلك رغبته الاكيدة في التنصيص التام على كيفية تأليف كل جهاز من أجهزة الحكم في الدولة لئلا يقع اللبس والابهام من اشتراك طائفتين مختلفتي مجال النشاط في حديث واحد. ونحن، محافظة منا على إبراز جميع خصائص العهد، سنجري في كلامنا عن الطبقات حسب تقسيمه عليه السلام وإن لم تكن ثم ضرورة، بلحاظ الطبقات ذاتها، تدعو إلى اتباع هذا النهج. * * * وبعد أن قسم الامام الطبقات على النحو الذي رأيت، تقدم بملاحظة ذات مغزى، وهي أن كل واحدة من هذه الطبقات، عدا الطبقة التي لا تستطيع عملا، ضرورية للمجتمع، والعمل الذي تقوم به ضروري الوجود، وكما انه يعتمد في وجوده على جهود الآخرين كذلك جهود الآخرين لم تكن لتوجد لولاه. ولذلك قال عليه السلام. (الرعية طبقات لا يصلح بعضها إلا ببعض ولا غنى لبعضها عن بعض.) لولا الجنود لانعدم الامن، وحينئذ تنعدم التجارة ويختل نظام الزراعة، وإذا اختل هذان انهار الكيان الاجتماعي. ولولا التجارة والزراعة لما وجدت الضرائب التي تمد الجنود بالمال والسلاح.

ولولا التجارة لحدثت أزمات إجتماعية تنشأ من تكدس الانتاج في غير مكان الحاجة إليه، وعدم وجوده في مكان الحاجة إليه. والعمال (الولاة) والكتاب يشرفون على تنظيم هذا النشاط ولولاهم لتسيب واتجه اتجاهات غير صالحة. ولولا القضاة للجأ الناس إلى تسوية مشاكلهم بالعنف، وذلك يؤدي إلى بلبلة الاجتماع. وإذن، فالنشاطات الاجتماعية متشابكة ومتداخلة، وليس فيها لاحد على أحد فضل، فكل واحد من الناس يؤدي عملا يأخذ في مقابله من المجتمع أعمالا كثيرة، ولو كف المجتمع عن تقديم المعونة له لما أمكنه أن يقوم بشي. قال عليه السلام: (.. فالجنود باذن الله حصون الرعية، وزين الولاة، وعز الدين، وسبل الامن، وليست تقوم الرعية إلا بهم. (ثم لا قوام للجنود إلا بما يخرج الله لهم من الخراج الذي يقوون به على جهاد عدوهم، ويعتمدون عليه فيما يصلحهم ويكون من وراء حاجتهم. (ثم لا قوام لهذين الصنفين إلا بالصنف الثالث من القضاة والعمال والكتاب لما يحكمون من المعاقد ويجمعون من المنافع، ويؤتمنون عليه من خواص الامور وعوامها. (ولا قوام لهم جميعا إلا بالتجار وذوي الصناعات فيما يجتمعون عليه من مرافقهم، ويقيمونه من أسواقهم، ويكفونهم من الترفق بأيديهم مالا يبلغه رفق غيرهم) عهد الاشتر. (٤)

وحيث كان النشاط الاجتماعي متشابكا على هذا النحو، متداخلا على هذه الشاكلة، فيجب أن تشق له القنوات التي يجري فيها على نحو لا يختل ولا يتدافع، ولا يطغى لون منه على لون، وأمر هذا موكول إلى الحاكم. قال عليه السلام: (وفي الله لكل سعة، ولكل على الوالي بقدر ما يصلحه، وليس يخرج الوالي من حقيقة ما ألزمه الله من ذلك إلا بالاهتمام والاستعانة بالله وتوطين نفسه على لزوم الحق والصبر عليه فيما خف عليه أو ثقل) عهد الاشتر

---

(٤) العسكريون العسكريون خطر وضرورة في آن. هم خطر لان الطبقة التي ينتمون إليها هي أقوى طبقات الامة كلها، فالجيش طوع أمرهم، والسلاح تحت أيديهم، ولا قوة تمنعهم من الثورة إذا ما أرادوا، ولا حاجز يحول بينهم وبين ظلم الرعية إذا تمكن ذلك من أنفسهم، ووجد هوى في صدورهم. والوجدان الذي ينتظم أفراد هذه الطبقة يقتضيهم ذلك وينزع بهم نحوه، فإن التصورات التي يتكون منها هذا الوجدان هي تصورات القوة والغلبة والفتك، وما يتبع هذه من تصورات الخيلاء والاستعلاء. وطبيعة عملهم العسكري تقتضيهم أن يواجهوا مشاكلهم من طريق العنف والقسر وتحملهم على أن يحلوها من هذا الطريق. وطبيعة عملهم أيضا تجعلهم ينظرون إلى المجموعات الانسانية (كوحدات عددية) تقوم بعمل معين لا أكثر ولا أقل وذلك لانهم لا ينظرون من الجندي الذي يدين لهم بالطاعة إلى أكثر من أنه آلة تجيد استعمال السلاح، أما ما وراء ذلك من صفات نفسية وسمات ذاتية فلا ينظرون إلى شئ منها، لان هذه كلها تنطمس في التجمع البشري الضخم المسمى بالجيش، ولانها لا تغني كثيرا في أداء المهمة المطلوبة من الجندي. وإذا كانوا ينظرون إلى الجماعة الانسانية على هذا النحو فلا يؤمنون من

---

[٥٢]

الانحراف عن جادة الصواب في معاملتهم مع الناس، لان الصفات النفسية هي التي يجب أن تلحظ في هذه المعاملة، وهم يغفلونها لان طبيعة عملهم تقتضي ذلك كما رأيت. هذا الوجدان الطبقي (وهو ضروري إذ لولاه لما كانوا عسكريين) خطر إذا احتد، وعبر عن نفسه في غير أوانه وجرى في غير أقنيته الحقيقية. هذا هو وجه الخطر فيهم. وهم ضرورة لان وجودهم يحفظ الامن ويصون الدولة، ويردع السفيه ويضرب على يد المعتدي. وحيث كانوا ضرورة فلا بد من وجودهم، وحيث كانوا خطرا فلا بد من تفاديه. واذ قد لزم هذا وذاك فقد شرع الامام عليه السلام للحاكم نظاما يستهدي به في تأليف هذه الطبقة من جديد، وشريعة يجري عليها في انتخاب من يريد ضمه إليها من رعيته، وسنة يأخذ بها في معاملتها. وقصد من ذلك كله إلى أن يؤمن من هذه الطبقة جانب الضرورة، وينأى بها عن أن تكون مصدر خطر وإرهاب. * * * الشخصية العسكرية ضرورة لازمة للقائد العسكري لزوم الهواء لكل كائن حي. وهذه الشخصية عبارة عن طائفة من الصفات تلتقي في القائد فتكون له شخصيته. فيجب أن يكون القائد العسكري متصفا بصفة النفوذ والهيبة التي تجعله نافذ الامر، وذلك لان الصفة الاولى المطلوبة من الجندي هي الطاعة وبدونها لا يمكن أن ينجح جيش على الاطلاق، وما لم يكن للقائد العسكري صفة

---

[٥٣]

النفوذ والهيبة بعدت الطاعة عن منال يديه، وحينئذ لا ينجح في عمله العسكري. ويجب أن يكون واجدا لصفة الخبرة بمن يعمل تحت يديه من مرؤوسيه، عارفا بامكاناتهم وكفاءاتهم، ليضع كلا منهم في موضعه اللائق به، لان خطأ بسيطا في تعيين قائد ربما أدى إلى كارثة قومية. ويجب أن يكون واجدا للثقافة العسكرية: عارفا باساليب قيادة الجيش وحركاته، والاستراتيجية العسكرية. ولما كان القائد هو المثل الاعلى للجندي وجب أن يكون هذا القائد مثلا يحتذي لجنوده في الصبر على المكاره، والتفاني في القيام بالواجب، وهما من ألزم الصفات العسكرية في الجنود والقادة على السواء. ولا توجد هذه الصفات في عامة الناس، وهي ليست صفات تنحدر بالوراثة من جيل إلى جيل، بل لابد فيها من التربية المنهجية الواعية. ولم تكن في زمن الامام عليه السلام مدارس وكليات عسكرية تقدم مثل هؤلاء القادة في كل وقت. هذه الملاحظات دفعت بالامام إلى تعيين العناصر التي يؤخذ منها هؤلاء. هذه العناصر هي البيوتات الشريفة ذات الاحساب والتقاليد المتوارثة، فقد كانت هذه البيوتات تأخذ أبناءها بتربية قاسية واعية توفر لهؤلاء الابناء الثقافة العسكرية، وهي من أهم ما كان يأخذ به العرب ويعنون باتقانه، وتغرس في أنفسهم الشعور بالمسؤولية والتحمل والصبر على المكاره. وقد كانت هذه البيوتات تحتل في نفوس أبناء الشعب، وهم الذين يؤخذ منهم عامة الجند، مركزا ساميا حصلت عليه بسبب الخدمات التي تقدمها هذه البيوت للامة في الحرب والسلم على السواء، وهذا يوفر للقائد صفة الهيبة، ويضمن له نفوذ الامر وحصول الطاعة.

---

[٥٤]

قال عليه السلام: (ثم ألصق بذوي المروءات والاحساب، وأهل البيوتات الصالحة والسوابق الحسنة، ثم أهل النجدة والشجاعة، والسخاء والسماحة، فإنهم جماع من الكرم، وشعب من العرف). عهد الاشتر * * * ولكن هؤلاء القادة يستمدون من وسطهم العائلي

تصورات القوة والاستعلاء لمكان ما لهم من مركز مرموق في المجتمع، ويستمدون من وظيفتهم الجديدة ما يعزز هذه التصورات ويمدها بالحرارة والفعالية، وينزع بها إلى التحقيق نظرا إلى ما توفر لهم من الهيمنة على الجيوش والسلاح، ويستمدون من ثقافتهم ما يزين لهم الفعل ويبرر لهم العمل - هذه الينابيع الثلاثة للوجدان الطبقي عند العسكريين تعمل دائما على إثارة هذا الوجدان وبعثه. وهنا يظهر وجه الخطر فيهم، وقد وضع الامام العلاج الواقي من هذا الخطر. فإلى جانب الصفات السابقة يجب أن تتوفر في القائد صفات أخرى. منها الثقافة الدينية، وهذه الثقافة لا يكفي فيها أن تكون (علما) بالواجبات الدينية فقط وإنما يجب أن تكون (وعيا) لهذه الواجبات بحيث تكون في جهاز القائد النفسي قوة دافعة تحمله على أن يسير على هديها في حياته العملية، ولا تبلغ هذه الثقافة هذا المدى في تأثيرها إلا إذا استحالت في القائد إلى (طاقة شعورية) محركة. ومنها أن يكون أمينا لا تمتد يده إلى ما ليس له، حليما لا يحمله الغضب على فعل ما لا تحمد عقباه، واسع الصدر يجد العذر موقعا في نفسه، رحيما بالضعيف لا يتخذه موضعا لاظهار مدى سلطته.. وهكذا، فإلى جانب الثقافة الدينية التي يجب أن تبلغ من نفس القائد مرتبة الطاقة الشعورية يجب

---

[٥٥]

أن يكون على مستوى أخلاقي عال يصده عن الافساد، ويمسكه على الجادة، ويأخذ بعنقه إلى الهدى. قال عليه السلام: (.. فول من جنودك أنصحهم في نفسك لله ولرسوله ولامامك، وأنقاهم جيبا، وأفضلهم حلما، ممن يبطئ عند الغضب، ويستريح إلى العذر ويرأف بالضعفاء، وينبو على الاقوياء، وممن لا يثيره العنف ولا يقعد به الضعف). عهد الاشتر * * * وبعد أن نهج الامام القواعد التي يجب أن تتبع في اختيار أفراد هذه الطبقة أخذ في بيان الاسلوب الذي يجب أن تعامل به. يرى الامام أنه لا يجوز للحاكم أن يعتمد على التربية وحدها، وعلى الخلق الشخصي وحده فيما يرجع إلى ضمان اخلاص هذه الطبقة. فهو بقدر ما يحرص على أن يكون القادة العسكريون ذوي تربية عالية وخلق متين يحرص كذلك على توفير ما يتوقون إليه من الناحيتين: المادية والمعنوية. فهولاء القادة يتوقون إلى أن يروا أعمالهم التي يقومون بها تلاقي التقدير الذي تستحقه عند الحاكم، ويتوقون إلى أن يروا أن عين من فوقهم ترعاهم وتتعاهد أعمالهم وتوفيها ما تستحق من جزاء. وهؤلاء القادة، كغيرهم من الناس، خاضعون للضرورات الاقتصادية، وربما كانت حاجتهم إلى المال أكثر من حاجة غيرهم إليه، وإذ كانوا كذلك فلا بد للحاكم من مراعاة حالتهم الاقتصادية. ولايجوز له أن يعتمد على الخلق والتربية في ضمان اخلاصهم وتمسكهم

---

[٥٦]

بمثلهم العليا، فإن الحاجة تدفع إلى الاجرام أو الانحراف. ولا بد له من تتبع مآثرهم والاشادة بها، ومدحهم، والثناء عليهم بما أبلوا من بلاء حسن، وأتوا من فعل عظيم. فأما حين تغفل عنهم عينه: فلا يتفقد أحوالهم، ولا يوليهم منه جانب اللين والرأفة - حين يجدون هذا منه يشعرون بأن أعمالهم لا تجد ثوابها وان جهدهم يذهب أدراج الرياح، ويعظم في أعينهم الصغير ويصغر العظيم، وتنعدم ثقتهم بالحاكم، ويذهب وده من قلوبهم، فلا يمحضونه النصح، ولا يخدمونه بصدق، لانهم لا يجدون في أنفسهم ما يدفعهم إلى خدمته وهو متخاذل عنهم مقصر معهم، ويدفعهم هذا الموقف النفسي إلى استثقال دولته، واستطالة مدته، والتبرم بحكمه، فماذا يمنعهم،

وهذا موقفهم منه، عن أن ينتقضوا عليه ويكيدوا له ويواجهوه بما لو أحسن السياسة لاتقاه. قال عليه السلام: (ثم تفقد من أمورهم ما يتفقد الوالدان من ولدهما، ولا يتفاقمن في نفسك شئ قويتهم به. ولا تحقرن لطفا تعاهدتهم به، وإن قل، فإنه داعية لهم إلى بذل النصيحة لك وحسن الظن بك. (ولا تدع تفقد لطيف أمورهم اتكالا على جسيمها فإن لليسير من لطفك موضعا ينتفعون به، وللجسيم موقعا لا يستغنون عنه.. فان عطفك عليهم يعطف قلوبهم عليك. (وان أفضل قرة عين الولاة استقامة العدل في البلاد، وظهور مودة الرعية، وانه لا تظهر مودتهم إلا بسلامة صدورهم، ولا تصح نصيحتهم إلا

---

[٥٧]

بحيطتهم على ولاة الامور وقلة استثقال دولهم، وترك استبطاء انقطاع مدتهم، فأفسح لهم في آمالهم، وواصل في حسن الثناء عليهم، وتعديد ما أبلى ذوو البلاء منهم، فإن كثرة الذكر لحسن أفعالهم تهز الشجاع وتحرض الناكل إن شاء الله). عهد الاشتر وتأمل الفقرة الاخيرة: (. فإن كثرة الذكر لحسن أفعالهم تهز الشجاع وتحرض الناكل..) فإنها تتضمن مغزى عميقا، فبدلا من أن يوجه اللوم إلى الناكل لنكولة مما قد يولد في قلبه الضغن والنية السيئة - بدلا من هذا يبعث إلى العمل عن طريق المنافسة، فحين يسمع الثناء على ذوي البلاء الحسن من أقرانه، وحين يرى أن العمل يجد صدى مستحبا عند الرئيس يعبر عنه بالتقدير، يندفع إلى العمل بباعث نفسي فيجد فيه متعة ولذة يدفعانه إلى اتقانه، بدل أن يزاوله مكرها، لو دفع إليه عن طريق اللوم فلا يجد فيه لذة، ولا يشعر نحوه بأي سرور نفسي يدفعه إلى التجويد والاتقان. وعلى الحاكم أن يكون يقظا في تتبع أفعالهم، فينسب الفعل إلى صاحبه، ولا يتجاوز به إلى غيره، ولا يقصر في جزائه، فإن غفلته عنهم تشعرهم بأن أعمالهم لا تجد ثوابها الحق، ولا تلقى التقدير الذي تستحق. قال عليه السلام: (ثم أعرف لكل أمرئ منهم ما أبلى، ولا تضيفن بلاء امرئ إلى غيره، ولا تقصر به دون غاية بلائه). عهد الاشتر والمقياس في الجزاء والثواب وحسن الاحدوثة نفس العمل، لا السلالة ولا الغنى ولا أي شئ آخر.

---

[٥٨]

قال عليه السلام: (ولا يدعونك شرف امرى إلى أن تعظم من بلائه ما كان صغيرا ولا ضعة امرئ إلى أن تستصغر من بلائه ما كان عظيما) عهد الاشتر * * * والمشاركة الوجدانية من الامور التي يجب توفرها بين القائد وجنوده. فحينما تتوفر المشاركة الوجدانية بين القائد وجنوده، ويشعرون بأنهم ليسوا تحت سلطان جبار يسومهم العذاب، ويتخذهم سبلا إلى إظهار سلطانه، ووسائل لخدمة مآربه، وإنما هم تحت رعاية أب بار يعمل لخيرهم، ويسعى لاسعادهم، ويحدب عليهم، ويرأف بهم، ويوجههم نحو ما فيهم صلاحهم.. حينما يستقر في أعماقهم هذا الشعور يعملون بإخلاص وإتقان وحرارة وإيمان، ويقبلون على عملهم بشوق رغبة منهم في إبهاج قائدهم وإشاعة الزهو (؟) والفرح في قلبه، فإن القائد بجنوده، وكلما كان عملهم رائعا ومتقنا دل ذلك على حسن توجيهه وواسع خبرته وعظيم معرفته. وليس بخاف ما يعود به هذا على الدولة من القوة والتماسك. وكما أن المحبة والعطف والخلق الحسن شروط لازمة في حصول هذا الشعور عند الجنود فإن تأمين الناحية الاقتصادية شرط لازم أيضا. فلا يسع جنديا أن يخلص لعمله وهو يسمع، بقلبه، صراخ زوجته وأطفاله من الجوع أو العري أو المرض،

لذلك أرشد الامام الحاكم إلى أن طبقة العسكريين يجب أن تتألف ممن يولون كلا الناحيتين: الاقتصادية والمعنوية عظيم اهتمامهم، وان خير قواده خيرهم لجنوده، وأحد بهم عليهم، وأرفقهم بهم، وأرعاهم لشؤونهم في السراء والضراء، فإن هذا هو السبيل الوحيد إلى توليد هذه المشاركة الوجدانية التي تعود على الدولة بأجل الفوائد وأعظم الخيرات.

---

[٥٩]

قال عليه السلام: (وليكن آثر رؤوس جندك عندك من واساهم في معونته، وأفضل عليهم من جدته بما يسعهم ويسع من وراءهم من خلوف أهليهم حتى يكون همهم هما واحدا في جهاد العدو). عهد الاشتر ولاجل التوسع في معرفة موقفه من الجيش وقادته راجع قسما من كتاب له إلى أمرائه على الجيش - رقم النص: ٥٠. ووصيته لشريح بن هانئ عندما وجهه على مقدمته إلى الشام - رقم النص: ٥٦. وكتابه إلى العمال الذين يطأ الجيش عملهم - رقم النص: ٦٠. وفقرات من كتابه إلى أمراء الاجناد لما استخلف - رقم النص: ٧٩ هذه النصوص في (باب المختار من كتب مولانا أمير المؤمنين).

---

[٦٠]

(٥) القضاة السلطة القضائية من أعظم سلطات الدولة، بها يفرق بين الحق والباطل، وبها ينتصف للمظلوم من الظالم. وحين تجنح الظروف بهذه السلطة إلى الاسفاف فإنها لا تنزل إلى الحضيض وحدها وإنما تجر معها المجتمع كله أو بعضه. حين تسف تصير في عون الظالم وتعضد المجرم، وحيث أنها تنطق باسم العدالة فإنها تسكت كل فم، وتطفئ جذوة الحياة في كل انسان يتصدى لها. وماذا يحدث حينئذ ؟. يحدث أن يستشري الفساد، ويعظم الجور، وتعم الفتنة، ويكون المظلوم في الخيار بين أن يرفع أمره إلى هذه السلطة فيسلب حقه باسم العدل بعد أن سلبته إياه القوة، وبين أن يسكت حتى تحين الفرصة فيستعيد حقه عن طريق العنف، وفي بعض هذا شر عظيم. وإن الامام عليه السلام ليقدر هذه السلطة حق قدرها، فيختم وصاياه إلى عامله فيما يتعلق بها بقوله: (.. فانظر في ذلك نظرا بليغا، فان هذا الدين قد

---

[٦١]

كان أسيرا في أيدي الاشرار، يعمل فيه بالهوى، وتطلب به الدنيا). عهد الاشتر وهذا ما لم نشاهده منه في غير هذه الطبقة من الطبقات التي يتألف منها جهاز الحكم، مما يدل على انه كان يعي كيف ان القضاء حين يصير إلى غير أهله ينقلب إلى اداة للظلم: ظلم الضعفاء، ويصير مؤسسة ترعى مصالح الاقوياء فحسب. وقد تحدث كثيرا عن هؤلاء الذين يتسنمون مناصب القضاء وليسوا لها بأهل، فيتحولون بهذا المنصب إلى أداة للشر والافساد. قال عليه السلام: (. وآخر قد تسمى عالما وليس به، فاقتبس جهائل من جهال، وأضاليل من ضلال، ونصب للناس شركا من حبائل غرور وقول زور، قد حمل الكتاب على آرائه، وعطف الحق على أهوائه، يؤمن من العظائم ويهون كبير الجرائم، يقول: أقف عند الشبهات وفيها وقع. ويقول: وأعتزل البدع وبينها اضطجع، فالصورة صورة انسان، والقلب قلب حيوان) (١). وقال عليه السلام: (. ورجل قمش جهلا، موضع

في جهال الامة، عاد في أغباش الفتنة، عم بما في عقد الهدنة، قد سماه أشباه الناس عالما وليس به، فاستكثر من جمع ما قل منه خير مما كثر، حتى إذا ارتوى من ماء آجن، واكتنز من غير طائل، جلس بين الناس قاضيا ضامنا تخليص

---

(١) نهج البلاغة - رقم الخطبة: ٨٥

---

[٦٢]

ما التبس على غيره، فان نزلت به احدى المبهمات هيأ حشوا رثا من رأيه ثم قطع به، فهو من لبس الشبهات في مثل نسج العنكبوت، لا يدري أصاب أم أخطأ ؟ فإن أصاب خاف ان يكون قد أخطأ، وان أخطأ رجا ان يكون قد أصاب، جاهل خباط جهالات، عاش ركاب عشوات، لم يعض على العلم بضرس قاطع.) (١). ولا جل تفادي هذا المصير السئ لسلطة القضاء، وضع عليه السلام نظاما يجب أن يتبع في تأليف هذه الفئة، يضمن أن تكون على مستوى عال من الكفاءة للمهمات المناطة بها. * * * تؤتى السلطة القضائية من ناحيتين. الاولى: ناحية القاضي نفسه فإذا كان غير كفء لمنصبه أسف بهذا المنصب، ولم يؤد حقه المفروض. الثانية: ناحية المنصب نفسه، فما لم يكن القاضي مستقلا في حكمه لا يخضع لتأثير هذا وإرادة ذلك، لم تكن هناك سلطة قضائية بالمعنى الصحيح، وانما تكون السلطة القضائية حينئذ أداة لا لباس رأي فلان ثوب الحق وإسباغ مسحة الباطل على دعوى فلان. ولا تؤتى السلطة القضائية من غير هاتين الناحيتين. وقد رسم الامام في عهده إلى الاشتر ثلاثة أمور ينبغي أن تتبع في انتقاء أفراد هذه الطبقة ومعاملتهم، واتباع هذه الامور يكفل لهم أن يمارسوا مهمتهم بحرية، وأن يؤدوا هذه المهمة باخلاص.

---

(١) نهج البلاغة - رقم النص ١٧

---

[٦٣]

هل يكفي في صلاحية الرحل للقضاء أن يكون على معرفة بمواد القانون الذي يقضي به دون اعتبار لتوفر ميزات أخرى فيه ؟ إن الجواب السديد على هذا السؤال هو النفي، فلا يكفي في القاضي ان يكون على علم بمواد القانون فحسب، لانه إذا لم تتوفر فيه غير هذه الصفة يكون عالما بالقانون، ولا يصلح أن يكون قاضيا، لان منصب القضاء يتطلب من شاغله إلى جانب علمه بالشريعة، صفات أخرى فصلها الامام في عهده، وأناط اختيار طبقة القضاة بتوفرها، وهذا يعني ان فاقدها ليس جديرا بهذا المنصب الخطير. يجب أن يكون القاضي واسع الصدر كريم الخلق، وذلك لان منصبه يقتضيه أن يخالط صنوفا من الناس، والوانا من الخلق، ولا يستقيم له أن يؤدي مهمته على وجهها إلا إذا كان على مستوى أخلاقي عال يمسكه عن التورط فيما لا تحمد عقباه. ويجب أن يكون من الورع، وثبات الدين، وتأصل العقيدة، والوعي لخطورة مهمته وقيمة كلمته، بحيث يرجع عن الباطل إذا تبين له انه حاد عن شريعة العدل في حكمه، ولم يصبها اجتهاده ولم يؤده إليها نظره، فلا يمضي حكما تبين له خطأه خشية قالة الناس. ويجب أن يكون من شرف النفس، ونقاء الجيب، وطهر الضمير، بحيث (لا تشرف نفسه على طمع) في حظوة أو

كرامة أو مال وفضلا عن أن يتأصل فيه الطمع ويدفعه إلى تحقيق موضوعه، وذلك لان القاضي يجب أن يجلس للحكم ضميرا نقيا، وروحا طاهرا، وعقلا صافيا، ونفسا متعالية عن مساف الاغراض، وألا يشغل نفسه بعرض من أعراض الدنيا، لان ذلك ربما انحرف به من حيث لا يدري فأدان من له الحق، وبرأ من عليه الحق. لتأثره بهاجس نفسه، وهاتف قلبه، ومطمح هواه. ويجب أن يكون من الوعي لمهمته بحيث لا يعجل في الحكم، ولا يسرع في إبرامه، وإنما عليه أن يمضي في دراسة القضية ويقتلها بحثا ويستعرض وجوهها

المختلفة، فإن ذلك أحرى أن يهديه إلى وجهة الحق وسنة الصواب، فإذا ما استغلق الامر واشتبه عليه فلا يجوز له أن يلفق للقضية حكما من عند نفسه، وإنما عليه أن يقف حتى ينكشف له ما غمض عنه، وينجلي له ما اشتبه عليه. هذه الصفات يجب أن تتوفر في القاضي، ويجب أن يناط اختيار الرجل لمنصب القضاء بما إذا توفرت فيه، وبذلك يضمن الحاكم ألا يشغل منصب القضاء إلا الاكفاء في عملهم، ودينهم، وبصرهم بالامور. قال عليه السلام: (ثم اختر للحكم بين الناس أفضل رعيتك في نفسك: ممن لا تضيق به الامور، ولا تمحكه الخصوم، ولا يتمادى في الزله، ولا يحصر من الفئ إلى الحق إذا عرفه، ولا تشرف نفسه على طمع، ولا يكتفي بأدنى فهم دون أقصاه، وأوقفهم في الشبهات، وآخذهم بالحجج، وأقلهم تبرما بمراجعة الخصوم، وأصبرهم على تكشف الامور، وأصرمهم عند اتضاح الحكم، ممن لا يزدهيه إطراء، ولا يستميله إغراء). عهد الاشتر * * * وهنا، كما في كل موطن، يضع الامام بين عينيه التأمين الاقتصادي ليضمن الاستقامة والعدل وحسن السيرة. فالقاضي مهما كان من سمو الخلق، وعلو النفس، وطهارة الضمير، إنسان من الناس يجوز عليه أن يطمع في المزيد من المال، والمزيد من الرفاهية، وإذا جاز عليه هذا جاز عليه أن ينحرف في ساعة من ساعات الضعف الانساني، فتدفعه الحاجة إلى قبول الرشوة، ويدفعه العدم إلى الضعف أمام الاغراء، وإذا جاز عليه ذلك أصبحت حقوق الناس في خطر، فلا سبيل للمظلوم إلى

الانتصاف من الظالم وتغدو الحكومة حكومة الاقوياء والاغنياء. هذه امور قدرها الامام حق قدرها، وأدرك مدى خطرها، فوضع الضمانات لتلافيها. وذلك يكون: أولا: بأن يتعاهد الحاكم قضاء قاضيه، وينظر فيما أصدره من الاحكام، فان ذلك كفيل بأن يمسك القاضي عن الانحراف، ويستقيم به على السنن الواضح لانه حينئذ يعلم ان المراقبة ستكشف أمر الحكم الجائر، ووراء ذلك ما وراءه من عار الدنيا وعذاب الآخره. وثانيا: بأن يعطى المزيد من المال لينقطع داعي الطمع من نفسه، فيجلس للقضاء وليس في ذهنه شئ من أحلام الثروة والمال. قال عليه السلام: (.. ثم أكثر تعاهد قضائه، وأفسح له في البذل ما يزيل علته، وتقل معه حاجته إلى الناس). عهد الاشتر * * * والقاضي، بعد، إنسان يخاف: يخاف على ماله أن ينهب، ويخاف على مكانته أن تذهب، ويخاف على كرامته أن تنال، ويخاف على حياته أن يعتدي عليها بعض من حكم عليهم من الاقوياء، فإذا لم تكن لديه ضمانات تؤمنه من كل ذلك اضطره الخوف إلى أن يصانع القوي لقوته، والشرير لشره، وحينئذ يطبق القانون من جهة واحدة. يطبق على الفقراء والضعفاء الذين يؤمن جانبهم. هذا الخوف ينشأ من عدم تأمين مركز القضاء وصيانته ضد الشفاعات، وينشأ من زجه في المساومات السياسية وغيرها، وحينئذ تكفي كلمة من قوي أو

غني ليسلب القاضي مركزه ومكانته. هذه الناحية وعاها الامام عليه السلام وأعد لها علاجها، فيجب أن دراسات في نهج البلاغة (م ٥)

يكون القاضي، لكي يأمن ذلك كله، من الحاكم بمكانة لا يطمع فيها أحد غيره، ولا تتاح لاحد سواه، وبذلك يأمن دس الرجال له عند الحاكم، ويثق بمركزه وبنفسه، وتكسبه منزلته هذه رهبة في قلوب الاشرار يقوى بها على حملهم على الحق، وردهم إليه حين ينحرفون عنه ويتمردون عليه. قال عليه السلام: (.. وأعطه من المنزلة لديك ما لا يطمع فيه غيره من خاصتك، ليأمن بذلك اغتيال الرجال له عندك. فانظر في ذلك نظرا بليغا، فان هذا الدين قد كان أسيرا في أيدي الاشرار، يعمل فيه بالهوى، وتطلب به الدنيا). عهد الاشتر هذه هي الضمانات الثلاث التي وضعها الامام عليه السلام، مبينا فيها النهج الذي يحسن أن يتبع في انتخاب أفراد هذه الطبقة، وشارحا كيفية معاملتهم ليؤدوا مهمتهم على نحو نموذجي. * * * وقد سجل الامام بما شرعه هنا سبقا عظيما على إنسان اليوم، وذلك لان استقلال مركز القضاء وعدم تأثره باي سلطة أخرى، وتأمين الناحية الاقتصادية للقاضي، ونظام التفتيش القضائي، جهات تنبه لها الامام وجعلها واقعا يخلف في حياة المجتمع آثاره الخيرة، في عصر كانت سلطة القضاء أداة يديرها الحاكمون والمتسلطون كما يحبون. * * ولا شئ ادعى إلى ثقة الناس بالقضاء من نفوذ حكم القاضي على جميع الناس، حتى على من تربطهم بالحاكم الاعلى قرابة قريبة أو صداقة حميمة، فان

ذلك خليق بأن يطمئن الرجل العادي، ويدخل في روعه انه حينما يدخل مجلس القضاء لا يواجه بنظرة احتقار. وان الحاكم الاعلى لاحرى الناس بالمحافظة على ذلك والحرص عليه، فإذا ما اعتدى بعض خاصته على بعض الناس وجب عليه أن يرده إلى الحق حين يروغ عنه، ويرده إلى الجادة حين يؤثر العصيان. قال عليه السلام: (وألزم الحق من لزمه من القريب والبعيد، وكن في ذلك صابرا محتسبا، واقعا ذلك من قرابتك وخاصتك حيث وقع، وابتغ عاقبة ذلك بما يثقل عليك منه، فإن مغبة ذلك محمودة). * * * راجع عهد الاشتر: وراجع كلاما له (ع) في صفة من يتصدى للحكم بين الامة وليس لذلك باهل رقم النص: ١٦ - وبعض خطبة له في صفات الفساق: رقم النص: ٨٣.

---

(٦) الولاة إنهم رجال الادارة، وأيدي الحاكم التي تمتد في أطراف بلاده، والاداة التي يستعين بها على تنفيذ أمره، وامضاء ما يريد امضاءه من الشؤون. وهم المرآة التي ينظر بها الرعية إليه، وأعمالهم تنسب إليه وتحمل عليه، وينال خيرها وشرها. والوجدان الطبقي لهذه الطبقة ينزع بها نحو التسلط الناشي من تصورات القوة والهيبة والنفوذ، ويصبح هذا الوجدان خطرا وبيلا إذا عبر عن نفسه في غير موضعه، وجرى في غير أقنيته. لهذا وذاك: لمكان الخطر فيهم، ومبلغ الفائدة منهم، احتاط لهم الامام واحتاط منهم، فوضع الشروط التي ينتخبون على أساسها، والطريقة التي يعاملون بها، و (الكوابح) التي

تزعهم عن أن يسيئوا سلطانهم وأن يخرجوا به عما انشئ لاجله من منفعة الرعية إلى استغلاله في سبيل المنافع الخاصة، والمصالح الشخصية. * * * لايدخل في هذه الطبقة كل من شاء له الحاكم أن يدخل، وإنما يدخل فيها من خبر المجتمع عن كثب، فعرف حاجاته، وتبين نقائصه، فإنسان

كهذا إذا ولي عملا مضى فيه على بصيرة، فلا يرتجل الخطط ارتجالا دون أن يعي حاجات المجتمع، ويلبي في خططه ومناهجه هذه الحاجات. وإلى جانب التجربة والخبرة العملية يجب أن يتوفر له مستوى عال من الاخلاق، فهو كما قلنا، المرآة التي ينظر بها الشعب إلى الحاكم، ولذلك فينبغي أن يكون على خلق رفيع يمسكه عن الشطط ومجانبة العدل، ويستقيم به على الجادة، ويؤم به قصد السبيل. فالحياء خلق يجب ان يتوفر فيه، والحياء هنا ليس على معناه المبتذل، وإنما هو الحياء من النفس.. من تلويثها بالظلم والعدوان والتهاون في القيام بالواجب، وهذا الخلق يدفع بصاحبه دائما إلى التعالي والتسامي. ويجب أن تتوفر فيه صفة القناعة، بان لا يلوث نفسه برذيلة الطمع التي توشك أن تنقلب إلى حقيقة خارجية حين تجد لها محلا في نفس الانسان، وصدى في تصوراته. وإلى جانب هذه الميزات يجب ان يجمع بعد النظر، واصالة الفكر، وجودة الفهم، فهذه الصفات ضرورية لمن انيط به أمر جماعة من الناس واعتبر مسؤولا عن أمنهم ونشاطهم الاجتماعي. ولم يكن في زمن الامام عليه السلام مدارس تعد الموظفين الاداريين، وتلقنهم الثقافة الادارية، لذلك أرشد الامام الحاكم إلى اختيار هؤلاء من بين أبناء الاسر المحافظة على التقاليد، الآخذة أبنائها بطراز عال من التربية، العاملة على تنشئتهم تنشئة نموذجية. قال عليه السلام: (.. وتوخ منهم أهل التجربة والحياء من أهل البيوتات الصالحة، والقدم في الاسلام المتقدمة، فانهم أكرم أخلاقا، وأصح أعراضا، وأقل في المطامع

إسرافا، وأبلغ في عواقب الامور نظرا). عهد الاشتر * * * ويخضع هؤلاء الولاة في ولايتهم للاختبار، فحين ينتقيهم الحاكم ممن توفرت فيهم الشروط السابقة يجب عليه أن يوليهم اختبارا، فيرى، وقد عرف نظريا مدى كفاءاتهم، إلى كفاءاتهم في المجال العملي، فإذا اثبتوا انهم أكفاء حقا، وانهم يعون مسؤوليات عملهم وآلياته ثبتوا وإلا عزلوا، واستبدل بهم غيرهم. لهذا المبدأ، مبدأ الاختبار، يجب أن يخضع اختيار الولاة، أما أن يوليهم الاعمال تحببا إليهم، ودون أن يستشير في أمرهم، ودون أن يعرف مدى كفاءاتهم، فذلك جور عن الحق، وانحراف عن الجادة، وخيانة للامة في مصالحها، فان مصالح الامة أمانة في يد الحاكم يجب أن يسلمها إلى أكفأ ولاته. ومن هنا نعلم ان القوانين الحديثة التي تنص على وجوب خضوع الموظف الاداري الحديث العهد بالوظيفة لفترة اختبار تطول وتقصر، لم تأت بجديد، فقد أدرك الامام قبلها بقرون وقرون هذه الحقيقة وسجلها في قانونه العظيم. قال عليه السلام: (ثم انظر في أمور عمالك فولهم اختبارا، ولا تولهم محاباة وأثره، فانهما جماع من شعب الجو والخيانة). عهد الاشتر * * * وليس يكفي في حسن الظن بهم والركون إليهم مراعاة الدقة في انتخابهم،

فان الوجدان الطبقي لهؤلاء ينزع بهم نحو التسلط وإظهار القوة، وحين يجري هذا الوجدان في غير أقنيته يصير خطرا على الرعية، لانه يدفع صاحبه حينئذ إلى الانحراف والزيغ. لاجل هذا يقرر الامام ان على الحاكم ألا يغفل عن تعقب هذه الطبقة ومراقبتها، فيلزمه بانتخاب رقباء من أهل الدين والمعرفة والامانة يبثهم في أطراف البلاد، ويجعلهم عيونا له على عماله، يراقبونهم في أعمالهم، ويرصدون مبلغ ما يتمتع به هؤلاء الولاة من خبرة في الادارة، وقدرة على التنظيم، ومعرفة بوجوه الاصلاح، ثم يرفعون ذلك كله إلى الحاكم فينكل بالمنحرف الذي خان أمانته، ويستأديه ما حاز لنفسه من أموال المسلمين، ويجعله عبرة لغيره. ويشجع الصالح في نفسه، الصالح في عمله. ويرشد المخطئ إلى وجه الصواب. إن هذا التدبير يمسك الوالي عن الاسراف، ويحمله على العدل في الرعية، لانه حين يعلم أن ثمة عينا ترقب أفعاله يحذر من الخروج عن الجادة، ويحرص على اتباع ما يصلح بلاده. وهذا التدبير الذي نهجه الامام هو نظام التفتيش المعمول به الآن في الدول المعاصرة. قال عليه السلام: (.. ثم تفقد أعمالهم، وابعث العيون من أهل الصدق والامانة عليهم، فان تعاهدك في السر لامورهم حدوة لهم على استعمال الامانة، ولرفق بالرعية. وتحفظ من الاعوان، فان أحد منهم بسط يده إلى خيانة اجتمعت بها عليه عندك اخبار عيونك، اكتفيت بذلك شاهدا. فبسطت عليه العقوبة في بدنه، وأخذته بما أصاب من عمله، ثم نصبته بمقام المذلة، ووسمته بالخيانة، وقلدته عار التهمة). عهد الاشتر

ولقد كان الامام (عليه السلام) يحرص أشد الحرص على اتباع هذا الاسلوب مع ولاته، ففي نهج البلاغة طائفة كبيرة من كتبه إلى عماله تدور كلها حول هذا المعنى، فيها تنديد بخيانة، وعزل عن ولاية، وزجر عن ظلم الرعية، وفيها توجيه وإرشاد ونصيحة. قال عليه السلام: (.. وإن عملك ليس لك بطعمة، ولكنه في عنقك امانة، وأنت مسترعى لمن فوقك، ليس لك أن تفتات في رعية، ولا تخاطر إلا بوثيقة، وفي يديك مال من مال الله عزوجل، وأنت من خزانه حتى تسلمه الي) (١) وقال: (. إن دهاقين أهل بلدك شكوا منك غلظة وقسوة واحتقارا وجفوة. ونظرت فلم أرهم أهلا لان يدنوا لشركهم، ولا أن يقصوا ويجفوا العهدهم، فالبس لهم جلبابا من اللين تشوبه بطرف من الشدة، وداول لهم بين القسوة والرأفة) (٢). وقال: (بلغني عنك أمر إن كنت فعلته فقد أسخطت ربك وعصيت أمامك، وأخزيت امانتك. بلغني أنك جردت الارض فأخذت ما تحت قدميك، وأكلت

---

١ - نهج البلاغة (من كتاب له إلى الاشعث بن قيس عامله على اذربيجان رقم النص: ٥ في المختار من كتب أمير المؤمنين، ٢ - نهج البلاغة - المختار من الكتب - رقم النص: ١٩

ما تحت يديك، فارفع إلي حسابك) (٣). وقال: (بلغني عنك أمر إن كنت فعلته فقد أسخطت إلهك، وأغضبت إمامك: انك تقسم فئ المسلمين الذي حازته رماحهم وخيولهم، واريقت عليه دماؤهم، فيمن اعتامك من أعراب قومك، فو الذى فلق الحبة وبرأ النسمة لئن

كان ذلك حقا لتجدن بك علي هوانا، ولتخفن عندي ميزانا) (٢). وقد كانت شرور هذه الطبقة هي التي سببت الثورة على عثمان، فقد ولى على البلاد الاحداث من ذوي قرابته، ممن لا خبرة لهم في الحكم، ولا عاصم لهم من دين، ولا ورع لهم عن المحارم، فظلموا الرعية، وامتصوا دمائها، وكانت عاقبة ذلك وبالا. وعلى النقيض من هذا كانت سياسة الامام مع ولاته، فهو ينتخبهم انتخابا، ثم يوليهم اختبارا، ثم يراقبهم ويحملهم على الاصلاح ما وجد إلى ذلك سبيلا. * * * والعامل الاقتصادي أداة يستخدمها الامام هنا - كما في كل موطن - لاجل ضمان استقامة الولاة على ما سنه لهم من شرائع العدل. ولذلك لم يغفل الامام عليه السلام ما للعامل الاقتصادي من عظيم الاثر في إصلاح هذه الطبقة وإفسادها، فقد تدفع الحاجة أحدهم إلى الخيانة والظلم، وهم - كما عبر عنهم الامام في بعض كتبه -: (خزان الرعية، ووكلاء الامة، وسفراء الائمة (٣).

---

٣ - نهج البلاغة المختار من الكتب - رقم النص: ٤٠. ٢ - نهج البلاغة المختار من الكتب - رقم النص: ٤٣. ٣ - نهج البلاغة المختار من الكتب - رقم النص: ٥١.

فلو ضيق عليهم الحاكم في الرزق، ولم يرفه عليهم في النعمة، كان حرمانهم مدعاة إلى أن تطمح أعينهم إلى ما ائتمنوا عليه من مال، وذلك داعية إلى الرغبة في الخيانة، واختلاس شئ من أموال الامة. لهذا أشار الامام على حاكم مصر بأن يوسع على الولاة في الرزق، لئلا يتخذوا الحاجة مبررا للخيانة. قال عليه السلام: (ثم أسبغ عليهم الارزاق، فان ذلك قوة لهم على استصلاح أنفسهم وغنى لهم عن تناول ما تحت أيديهم وحجة عليهم ان خالفوك، وثلموا أمانتك). عهد الاشتر * * * راجع في باب الكتب عهد الاشتر: وكتابا منه إلى الاشعث ابن قيس عامل اذربايجان: رقم: ٥. وكتابا منه إلى عبد الله بن عباس عامل البصرة: رقم: ١٨. وكتابا منه إلى بعض عماله: رقم: ١٩. وكتابين منه إلى زياد بن أبيه رقم: ٢٠ و ٢١. وكتابين منه إلى بعض عماله: رقم: ٤٠ و ٤١. وكتابا منه إلى مصقلة بن هبيرة الشيباني عامل أردشير خرة رقم: ٤٣. وكتابا منه إلى عثمان بن حنيف الانصاري عامل البصرة رقم ٤٥. وكتابا منه إلى عماله على الخراج رقم: ٥١. وكتابا منه إلى الاسود بن قحطبة صاحب جند حلوان رقم: ٥٩. وكتابا منه إلى كميل بن زياد عامل هيت رقم: ٦١. وكتابا منه إلى قثم بن العباس عامل مكة رقم: ٦٧. وكتابا منه إلى المنذر بن الجارود العبدي رقم: ٧١.

---

(٧) الكتاب الكتاب وأعوانهم هم الهيئة الوزارية، ووكلاؤها، ومديروها. وإلى هذه الطائفة يرجع أمر الدولة كله: سلمها، وحربها، واقتصادها، وكل ما يلم بها من خير أو شر. فهي الجهاز الاعلى الذي ينظم نشاط الدولة، ويشرف على توجيهه. وعلى قدر ما تكون عليه هذه الطائفة من الصلاح والاستقامة، تصلح الدولة، وتستقيم ويعظم شأنها. وقد نص الامام (عليه السلام) في عهده على من يصلح أن يلحق بهذه الطائفة ومن لا يصلح لذلك، وأفاض في ذكر الصفات التي يجب أن تتوفر في الوزير، وبين الاسلوب الذي يحسن بالحاكم ان يتبعه في الاخذ منه والسماع عنه. * * * من جملة ما قدمناه بين يدي هذا البحث ملاحظة ذكرنا فيها أن الامام كتب هذا العهد وهو يطمح إلى انشاء جهاز جديد للحكم في مصر، جهاز واع لمسؤولياته،

تقدمي في برامجه ومشروعاته، ليستجيب للحاجات التي يفتقر إليها المجتمع. وقد رأيناه في البحوث المتقدمة محافظا على هذه السمة في عهده، فهو دائما يؤكد ان جهاز الحكم يجب أن يكون سليما، واعيا، تقدميا، عاملا لمصلحة المجتمع.

---

[٧٦]

وها هو، بالنسبة إلى طائفة الوزراء ومن يتعلق بهم، ينص على هذا المعنى ويؤكده تأكيدا وافيا. فلا يجوز أن يدخل في هذه الطبقة رجال كانوا وزراء للظلمة والاشرار. وذلك لان تأليف هذه الطبقة من هؤلاء يستتبع عواقب وخيمة تعود بالضرر على الدولة. فهم، وقد استمرءوا فعل الظلم وتعودوا على مقارفته لا يعفون عن العودة إليه والارتكاس فيه. وإذا كانوا ذوي أنفس شريرة مست أعمالهم المجتمع كله نظرا إلى سعة سلطانهم، وعظيم قدرتهم، لان ملاك القوى كلها مجتمع عندهم. وضرر آخر ينجم عن دخولهم في هذه الطبقة، فالشعب الذي عرفهم بالجور، وذاق منهم مر الظلم تذهب ثقته بالحكم المهيمن عليه حين يراهم قد عادوا إلى مراكزهم، ويعتبره حكما أقيم لمصلحة طبقة خاصة، ومتى ذهب ايمان الشعب بحاكمية أهمل من حقوق الحاكمين عليه ما يجب ان يؤديه، لاعتقاده أنه حين يلبيهم فيما يطلبون لا يقوم بعمل يعود بالنفع عليه. وقد أصبح من المعطيات البديهية في علم الاجتماع ان ما يثير الشعوب ليس الظلم نفسه وانما الشعور بالظلم، وسيطرة أشخاص مثل هؤلاء على دفة الحكم يوقظ في الشعب تصورات الظلم الذي ذاقه على أيديهم في عهودهم السابقة، وهذا كاف لان يولد في نفسه الشعور بالظلم وان لم يكونوا ظالمين. وهكذا تحدث بين الحاكم والمحكوم هوة تبعد أحدهما عن الآخر، وتسلب ثقة كل منهما بالآخر، وفي بعض ذلك ما يجر الدولة إلى مصير وبيل. قال عليه السلام: (إن شر وزرائك من كان للاشرار قبلك وزيرا، ومن شركهم في الآثام، فلا يكونن لك بطانة، فانهم أعون الائمة، وأخوان الظلمة). عهد الاشتر

---

[٧٧]

ولا يجوز أن يناط اختيار أفراد هذه الطبقة بالفراسة وحسن الظن، فان الرجال يتصنعون الصلاح، ويتظاهرون بالمقدرة والامانة، ليظفروا بمثل هذا المنصب، فيخدعون الفراسة، وينتزعون حسن الظن بتصنعهم، دون أن يكونوا على شئ من الصلاح والكفاءة. إن اختيار أفراد هذه الطبقة يجب ان تلاحظ فيه اعتبارات متعددة. يجب أن يكونوا على معرفة تامة بمحيطهم وبحاجاته، ليصدروا في إدارته عن وعي. ويجب أن يكونوا إلى جانب المعرفة أكفاء، ذوي مقدرة على تصريف ما أنيط بهم من امور. ويجب أن يكونوا - إلى جانب هذا وذاك - ممن يعرفهم الشعب بالحب له، والحدب عليه، ورعاية مصالحه وتيسير حاجاته، والسهر على رفاهيته وسعادته، فان هذه الطبقة حين تتألف من مثل هؤلاء يطمئن الشعب إلى الحكم، ويستريح إلى أعمال الحاكم. ويعرف ذلك كله بالنظر إلى سابق ما ولوه من أعمال الصالحين من الحكام، هل أحسنوا إدارته ؟ وهل برهنوا فيه على دراية بأساليب الاصلاح ؟ وهل كانت للشعب فيهم ثقة ؟ فإذا اجتمعت فيهم هذه الصفات: من قدرتهم وكفائتهم إلى معرفتهم بمحيطهم، إلى حب الشعب لهم، وإيمانه بهم، حق لهم ان يدخلوا في هذه الطائفة، وحق على الحاكم ان يؤلفها منهم. قال عليه السلام: (.. ثم لا يكن اختيارك إياهم على فراستك واستنامتك، وحسن الظن منك، فان الرجال

يتعرفون لفراسات الولاة بتصنعهم، وحسن خدمتهم وليس وراء ذلك من النصيحة والامانة شئ، ولكن اختبرهم بما ولوا للصالحين قبلك: فاعمد لاحسنهم كان في العامة أثرا، وأعرفهم بالامانة وجها، فان ذلك دليل على نصيحتك لله ولمن وليت أمره). عهد الاشتر * * * لقد نظر ان الامام فرأى ان طائفة الوزراء هي أعظم أجهزة الدولة أهمية، لان جميع الشؤون تناط بها، وترجع إليها، وتصدر عنها، في السياسة والادارة والحرب. ولا يصح ان تناط هذه المهام بشخص واحد أو بمجموعة من الاشخاص، فان الاحاطة بدقائق كل هذه المهام ومعرفة أسرارها لا تتاح في العادة للشخص الواحد، ولو اتيحت لواحد فانيط به أمرها لما أحسن التصرف، ولوقع في الخطأ وسوء التدبير، لان اضطلاعه بها يرهقه ويبهظه، فاما أن يصرفها كلها فيقع في الخطأ، وينأى عنه بعد النظر، واصالة الرأي، وسلامة التدبير. وإما أن يهمل بعضها ويصرف بعضها الآخر فيقع الاضطراب في أعمال الدولة بسبب إهماله. وان انيطت المهام بجماعة من الناس دون تحديد المهمة الملقاة على عاتق كل منهم وقعت البلبلة وشاع الاهمال، فينقض أحدهم ما أبرمه الآخر، ويصرف أحدهم ما أمسكه صاحبه، ويمضي اثنان أمرين متضادين، ويهمل كل واحد منهم بعض المهمات اتكالا على رفاقه. فأحسن الوسائل لضمان سير أعمال الدولة على مستوى عال من حسن التدبير، وإصابة الهدف هو ما قرره الامام عليه السلام، وهو أن يناط بكل واحد من

هؤلاء الوزراء بعض مهمات الدولة، ويراعى في إلحاق من اختير للوزارة لعمل من الاعمال ان يكون ذا اختصاص بذلك العمل وذا خبرة بدقائقه واسراره ليؤدي ما استعصى منه على خير وجه. وبهذا يكون الامام قد قرر مبدأ الاختصاص وتوزيع الاعمال في الادارة الحكومية: ويكون بذلك قد تجاوز مفاهيم عصره الذي لم يكن يعرف هذا المبدأ العظيم الاهمية في مهمة الحكم والادارة. قال عليه السلام: (واجعل لرأس كل أمر من امورك رأسا منهم، لا يقهره كبيرها ولا يتشتت عليه كثيرها. ومهما كان في كتابك من عيب فتغابيت عنه ألزمته). عهد الاشتر وفي هذه الفقرة الاخيرة (ومهما يكن..) قرر الامام ان الحاكم مسؤول عما يكون في وزرائه من العيوب، وذلك لانه - وقد اختار - يجب ان يتحمل مسؤولية اختياره. * * * وعلى رأس هؤلاء جميعا رئيسهم، وهو من يقال له (كاتب الكتاب). ومهمة هذا الوزير هي الاشراف على من دونه من الوزراء، ومراقبة أعمالهم. ومهمته أيضا هي تولي السياسة العليا للدولة مع الحاكم، فهو عضد الحاكم في رسم الخطط السياسية، وإعلان الحرب، وعقد معاهدات الصلح، والتعرف على نيات من يخاف منهم على أمن الدولة وكيانها، فهو مع الحاكم الاعلى، العقلان اللذان يديران عملية الحكم كلها. هذا الوزير يشترط فيه الامام شروطا لا يصلح بدونها:

فيجب أن يمتاز عن بقية الوزراء بأن يكون خيرهم، وذلك بأن يكون أكثر منهم إلماما بشؤون الدولة وإمكاناتها، ليتسنى له أن يوجه كلا منهم إذا انحرف، ويفهم عنه إذا قال. ويجب ان يكون عارفا بمركزه وأنه لا يخرج عن كونه وزيرا يستمد الصلاحية ممن استوزره، فلا تبطره الكرامة التي حصل عليها، فتدفعه إلى اشاعة خلافه مع الحاكم بين الناس، لان ذلك يشعر الناس بأن في جهاز الحكم خللا، وربما سبب شيوع ذلك تحفز المشاغب إلى إظهار شغبه اغتناما لفرصة

الانشقاق. ان الامام: لا يطلب من الوزير ان يسلم بوجهة نظر الحاكم في كل ما يقول، لانه حينئذ يكون ببغاء لا وزيرا، ان عليه ان يجاهر برأيه حين يرى الحق في جانبه، ولكن ذلك يجب أن يبقى سرا بينه وبين الحاكم، ولا يجوز ان يذاع في الناس. ويجب أن يكون على وعي بحقيقة السياسة التي تسير عليها الدولة فيتبع في أوامره التي يصدرها إلى الولاة وفي مباحثاته السياسية هدى سياسة الدولة، ولا يغفل عنها فيلزم نفسه بما يتنافى وسياسة دولته التي يمثلها. ويجب أن يكون عارفا بأحابيل السياسة وألاعيبها، فيحافظ على التزامات الدولة السياسية التي تعود عليها بالنفع والقوة، ويعرف وجه الحيلة في اخراج الدولة من المآزق السياسية التي يكيدها بها أعداؤها. ويجب أن يكون، إلى جانب هذه جميعا، أجمع وزرائه لوجوه صالح الاخلاق، لان المهام التي تناط به تتطلب قوة في الدين تمسكه على الجادة، وشعورا بالمسؤولية يحمله على الاخلاص والاتقان، وعفة تعصمه من الاغراء. قال عليه السلام: (ثم انظر في حال كتابك، فول على أمورك خيرهم، واخصص رسائلك التي تدخل فيها مكائدك وأسرارك

بأجمعهم لوجوه صالح الاخلاق ممن لا تبطره الكرامة فيجترئ بها عليك في حضرة ملا، ولا تقصر به الغفلة عن إيراد مكاتبات عمالك عليك، واصدار جواباتها على الصواب عنك، فيما يأخذ لك ويعطي عنك، ولا يضعف عقدا اعتقده لك، ولا يعجز عن اطلاق ما عقد عليك، ولا يجهل مبلغ قدر نفسه في الامور، فان الجاهل بقدر نفسه يكون بقدر غيره أجهل) عهد الاشتر وفي هذه الفقرة الاخيرة: (ولا يجهل..) يشترط الامام في الوزير أن يكون واقعيا، ينظر إلى الامور نظرة جدية، ويعرف واقعة تمام المعرفة، فإذا كان مركزه ضعيفا احتاط لنفسه بما يحتاط به الضعيف، ولا يهمل الاحتياط غرورا منه واستعلاء، وإذا كان قوي المركز وجب عليه ان يمثل دور القوي ولايهن امام خصومه فيعطيهم من نفسه ما لو شاء لمنعه، ثم لا يلحقه من وراء ذلك شئ. * * * قلنا ان الوزير الذي يصوب كل ما يقوله الحاكم حتى إذا كان مخطئا فيه ليس وزيرا وإنما هو ببغاء تقمصت اهاب وزير. وظيفة الوزير هي ان يتعاون مع الحاكم الاعلى على ادارة جهاز الحكم ادارة صحيحة، وعليه إذا أخطأ الحاكم في الرأي ان يرده إلى الصواب. وعليها أن يتعاونا على معرفة أصلح الوجوه فيما يأخذان ويدعان من الامور لذلك يجب أن يعطى الوزير حرية الرأي بحيث لا يقيده في هذا المجال شئ، لانه بقدر ما يكون متمتعا بالحرية يكون عظيم الفائدة. ويجب ان ينال الوزير من الحضوة بمقدار ما يكون صريحا في رأيه، معالنا دراسات في نهج البلاغة (م ٦)

الحاكم بالحق رادا له إلى الصواب، فكلما ازداد قولا بالحق وايثارا للصدق ازداد كرامة ورفعة. وأما حين يتبين الوزير في الحاكم أنه لا يطلب النصح وإنما يطلب الموافقة على رأيه فقط فانه ينقلب إلى ببغاء، وحينئذ يسير الحاكم بالدولة معصوب العينين لان أحدا لا يجرؤ أن يقول في وجهه كلمة الحق. قال عليه السلام: (وليكن آثرهم عندك أقولهم بمر الحق لك، وأقلهم مساعدة فيما يكون منك مما كره الله لاوليائه، واقعا ذلك من هواك حيث وقع. ثم رضهم (١) على ألا يطروك، ولا يبجحوك (٢) بباطل لم تفعله، فان كثرة الاطراء تحدث الزهو (٣) وتدني (٤) من العزة). عهد الاشتر

١ - عودهم على ألا يمدحوك ٢ - يحح: فرح. عودهم على ألا يتقربوا إليك بنسبة إعمال إليك، ولم تكن قد فعلتها ٣ - الزهو: الاعجاب بالنفس ٤ - تدني: تقرب

---

[٨٣]

(٨) الزراع هذه الطبقة من أعظم الطبقات الاجتماعية، وأبلغها أثرا في حياة المجتمع ففى زمان الامام عليه السلام كانت هذه الطبقة أضخم الطبقات الاجتماعية، وكانت مركز الكثافة في المجتمع، كما أن مركز الكثافة فيه هي طبقة العمال في العصر الحديث. وكانت المجتمعات القديمة مجتمعات زراعية في الدرجة الاولى، فكان كيان الامة الاقتصادي يقوم على الارض ومنتجاتها، لان الصناعة لم تكن إذ ذاك على حال تسمح بان يقوم عليها الصرح الاقتصادي للامة، لضعفها وضيق نطاقها. ولم تكن التجارة وحدها كذلك لتسمح باقامة هذا الصرح في كثير من البلدان، لعدم انتظام التجارة العالمية إذ ذاك، ولضعف المواصلات، ولعدم وجود طرق تجارية كافية ومامونة في جميع الاوقات. وإذن فقد كان الكيان الاقتصادي يقوم في الدرجة الاولى على الارض ومنتجاتها، والرفاهية الاقتصادية منوطة بأن تتاح للارض أفضل الفرص التي تمكنها من أن تعطي عطاء كثيرا، ومنوطة بان تتاح (؟) للزارع أفضل الوسائل التي تعينه على صيانة أرضه، وخدمتها، والحصول منها على نتاج وفير. وقد برهن الامام عليه السلام في عهده إلى الاشتر أنه على وعي تام لمدي

---

[٨٤]

أهمية هذه الطبقة في الكيان الاجتماعي، ثم للعمليات التي يعتبر نشاط هذه الطبقة ضروريا لاستمرارها. * * * يقرر الامام عليه السلام أن النشاط الاقتصادي كله يتوقف على ما يدفعه أهل الخراج من الاموال. فسكان المدن على أقسام: الجنود المقاتلة، وأصحاب الحرف والصناع، وأصحاب التجارات، والذين لا يستطيعون عملا يرتزقون منه، أو لديهم أعمال لا يكفيهم ريعها. ويوزع قسم كبير من اموال الخراج على الجنود، وعلى الفقراء، وعلى من لا يكفيه عمله من ذوي الاعمال. وبهذه القوة الشرائية التي يحدثها هذا المال تستمر الحركة الاقتصادية، فتنشط حركة التجارة والصناعة، لان في أهل المدن حاجة إلى الطعام، والكساء، والآنية والوقود وغيرها، يحصلون عليها من التجار والصناع والعمال، وبهؤلاء حاجة إلى الزراع فيشترون منهم المواد الحيوانية والنباتية وغيرها، لاجل أن يلبوا حاجات المدن المتجددة، وبالزراع حاجة إلى الكساء والآنية والسلاح وما إليها: فيحصلون بهذا المال الذي يصير إليهم على ما يريدون. هكذا يتوقف ازدهار النشاط الاقتصادي على طبقة الزراع، واذن فاضطراب امور هذه الطبقة لن يعود بالضرر عليها وحدها وإنما يمتد بآثاره الضارة إلى المجتمع كله، فيشل نشاطه، ويؤدي به إلى ازمات اقتصادية حادة ينجم منها التفسخ الاجتماعي. قال عليه السلام: (وتفقد امر الخراج بما يصلح اهله، فان في صلاحه

---

[٨٥]

وصلاحهم صلاحا لمن سواهم ولاصلاح لمن سواهم إلا بهم، لان الناس كلهم عيال على الخراج واهله). عهد الاشتر * * * وتعتمد هذه الطبقة اعتمادا مطلقا على الارض، وعلى العناصر الطبيعية، وعلى سواعدها. فيجب ان تصان الارض لتبقى في حالة جيدة، ولتستفيد من العناصر الطبيعية إلى أقصى مقدار ممكن، فيجب أن

تشق الترع، وتبنى القناطر والسدود، وتحفر الابار، لتتوفر للارض حاجاتها من المياه وينتظم الري، ويجب شق الطرق الزراعية التي تمكن هذه الطبقة من الاتصال ببعضها، وتسهل قضاء المهام الزراعية والاستعانة بالعمال الزراعيين. وصيانة الارض ليست أمرا يعود بالنفع على هذه الطبقة وحدها، وانما يعود بالنفع على الدولة كلها، فقد رأينا ما لنشاط طبقة الفلاحين من تغلغل حيوي في العمليات الاجتماعية، فصيانة الارض والحال هذه من المصالح العامة، فيجب الانفاق عليها من الاموال العامة. فأما حين تهتم الحكومة بالجباية فقط وتهمل أمر الاصلاح والعمارة، حين تتجه هذا المتجه يصير بها الامر إلى ان تخرب البلاد وتهلك العباد، ثم لا تجد موردا تجبي منه المال، لعدم وجود انتاج وفير لان الخراج كثرة وقلة متصل بحالة الارض، فعلى مقدار ما تأخذ (؟) الارض تعطي، وعلى مقدار ما تعطي تكون قدرة أهلها على إجابة الحاكم إلى أداء ما يفرضه عليهم من خراج. قال عليه السلام: (. وتفقد أمر الخراج بما يصلح أهله فان في صلاحه وصلاحهم صلاحا لمن سواهم، ولا صلاح لمن سواهم الا

بهم: لان الناس كلهم عيال الخراج واهله.. وليكن نظرك في عمارة الارض أبلغ من نظرك في استجلاب الخراج، لان ذلك لا يدرك إلا بالعمارة، ومن طلب الخراج بغير عمارة أخرب البلاد وأهلك العباد ولم يستقم أمره إلا قليلا). عهد الاشتر * * * وطبقة الفلاحين اكثر الطبقات كدحا، وأشقها عملا. فعند من عداهم من الطبقات والطوائف وقت مخصص من اليوم للعمل، وأوقات أخرى للراحة والتسلية، بخلاف الفلاحين فان عملهم يمتد طول اليوم، وعلى مدار العام. وهذا العمل اما في مركز الانتاج وهو الحقل، واما في بيوتهم باعداد البذار والآلات وما إليها. وحتى في الاوقات التي ينقطعون فيها عن العمل هنا وهناك لا ينقطعون عنه في أحاديثهم وتصوراتهم. وطبيعة عملهم تفرض عليهم هذا اللون من الحياة، وهذا المقدار من الجهد فغيرهم من الناس يستطيع أن يتحكم بعمله فيختار الوقت الملائم لادائه ثم ينقطع عنه، أما الفلاح فعمله ينحصر في مساعدة العناصر الطبيعية على أن تؤدي وظيفتها على الوجه الاكمل، فهو أسير لهذه العناصر، وعليه أن يكون يقظا دائما ليعمل ما يجب عمله، ولما كان عمله متصلا بهذه العناصر فان أي تقصير منه يعود عليه بضرر كبير، لانه لا يستطيع أن يتحكم في الظواهر الطبيعية ويسخرها حسب هواه. هذا العمل المرهق يجب أن يقابله مستوى من المعيشة، ومقدار من الدخل يشعر ان هذه الطبقة بأنها حين تعمل لا تستغل لصالح الآخرين وإنما تعمل لنفسها في الدرجة الاولى.

ويجب أن يشعر الفلاح بأنه سيد أرضه وأن لا أحد يمكن أن ينازعه في هذه السيادة. وحيث كان من اللازم مراعاة حال الفلاح وتمكينه من أن يحيا على مستوى لا يشعر معه بالاضطهاد والاستغلال. وحيث كان من اللازم إشعاره بأنه سيد أرضه. لهذا وذاك يجب أن يكون مسموع الكلمة فيما يتصل بأرضه وبقدرتها على الانتاج، فإذا اشتكى ثقل الخراج لعدم تناسبه مع انتاج الارض، أو شكى آفة ألمت بالارض فأثرت على انتاجها، أو ذهبت به فلذلك لا يستطيع دفع ما فرض عليه من المال، إذا شكى شيئا من هذا كان من اللازم ان يسمع كلامه فيوضع عنه من المال مقدار ما يصلحه. وقد يذهب الظن بالبعض إلى ان هذه المعاملة تؤثر على مالية الدولة وتضعفها ولكن هذا الظن بعيد عن الصواب، لان هذه الوضيعة التي يحصل

عليها الفلاح تعود على الدولة نفسها بفوائد عظيمة تزيد في ازدهارها ورفاهيتها. وذلك لان هذا المال يصرف في إصلاح الارض وعمارتها، ويصرف في سد حاجات الفلاح نفسه من مسكنه وملبسه ومرافق حياته الاخرى، فيكون في ذلك تزيين للبلاد بما أتاح لها هذا المال من العمران ويكون في ذلك شعور هذه الطبقة بالطمأنينة والرضى مما يدفعها وهي أكثر طبقات المجتمع عددا وأعظمها انتاجا، إلى المحافظة على الحكم القائم، والدفاع عنه لانه يحفظ لها مصالحها. ولدينا شاهد من التاريخ على هذا، فقد كان نابليون الثالث (امبراطور فرنسا) ممن حدبوا على هذه الطبقة ورعوا مصالحها، وحموها من عتاة الظلمة، وأشعروا الفلاح الفرنسي انه سيد أرضه وان أمرها منوط به وحده، وقد كان موقفه هذا مما دفع بالفلاحين إلى أن يخصوه بتأييدهم دائما لما لمسوه من رعايته لمصالحهم وفهمه لموقفهم.

وهذه النتيجة (عطفهم على الحكم القائم) مع عمران أرضهم تجعلهم على استعداد للمعونة حين تطلب منهم، لحسن ظنهم بالحكم القائم ورغبتهم في استمراره من جهة، ولان حالهم المالية تسمح لهم بالمساعدة لوفرة الانتاج. فهذا المال الذي وضع زاد في عمران البلاد، ومن ثم زاد في ايرادها، ومن ثم جعلها تحتمل من الضرائب فوق ما كانت تحتمل وهي أقل عمرانا، وحمل الفلاحين على حب الحكم القائم وبذل المعونة له حين يشكو العجز وتأييده حين يشكو الخذلان. قال عليه السلام: (فان شكوا ثقلا أو علة (١)، أو انقطاع شرب أو بالة (٢) أو احالة أرض اغتمرتها غرق، أو أجحف بها عطش، (٣) خففت عنهم بما ترجو أن يصلح به أمرهم). (ولا يثقلن عليك شئ خففت به المؤونة (٤) عنهم، فانه ذخر يعودون به عليك في عمارة بلادك، وتزيين ولايتك، مع استجلابك حسن ثنائهم، وتبجحك (٥) باستفاضة (٦) العدل فيهم، معتمدا فضل قوتهم بما

---

١ - ثقلا - شكوا من ثقل الضريبة عليهم (علة) شكو من مرض زراعي اتلف محاصيلهم ٢ - الشرب بكسر السين: ماء الري في المناطق الزراعية التي تعتمد على الانهار وما إليهم (بالة) بتشديد اللام وفتحها: ماء المطر في المناطق التي تعتمد في الري على الامطار. ٣ - إحالة أرض - فساد البذور فيها، (اغتمرها غرق) غمرها الماء وطاف عليها فغرقت به (وأجحف بها عطش) لم تأخذ ما يلزمها من الماء للري - يعني أن الزراع إذا شكوا من فساد موسمهم الزراعي بسبب طوفان الماء على الارض المزروعة أو بسبب قلة الماء وعطش الارض، فينبغي أن تأخذ شكواهم بنظر الاعتبار. ٤ - المؤونة: النفقة. ٥ - تبجحك.. سرورك بمعاملتك العادلة لهم. ٦ - الاستفاضة: الانتشار والشيوع.

ذخرت عندهم من إجمامك (١) لهم، والثقة منهم بما عودتهم من عدلك عليهم، ورفقك بهم، فربما حدث من الامور ما إذا عولت فيه عليهم من بعد احتملوه طيبه (؟) أنفسهم به، فان العمران محتمل ما حملته). عهد الاشتر * * * ولهذه الفقرات وجوه أخرى من الدلالة، عظيمة القيمة، بالغة الاهمية. فمن الشروط الاساسية لنجاح العمل وازدهاره أن يقبل العامل عليه بهمة ونشاط، وأن يشعر نحوه بالحب والرغبة. وأن يحس حين يزاوله أنه ينمي به شخصيته الانسانية، ويؤكد قدرتها على الابداع - إذا كان هذا هو موقف العامل النفسي من عمله ازدهر العمل وتقدم، ولا يمكن أن يقف العامل من عمله هذا الموقف إلا إذا شعر بأن عمله له، وبأنه يعود عليه بالنفع والفائدة. ومن هنا اعتبرت الملكية الخاصة من أعظم الاسباب الدافعة

إلى ازدهار العمل، لان هذا اللون من الملكية يدفع العامل إلى بذل طاقته كلها مع شعوره بالسرور لانه يعمل لنفسه. ويتغير هذا الموقف حين يكون العمل للغير ولا يرجع إلى العامل من ثمراته شئ يذكر، فانه حين ذاك يشعر بالكراهية نحو عمله، ويتهاون فيه ولا يتحرى كماله واتقانه ويتحرى الفرض للتهرب منه، وهذا يضعف سير العمل، ويهبط به، ويسري هذا الموقف النفسي إلى صاحب العمل نفسه فيتمنى العامل هلاكه، ليتخلص منه. هذه الملاحظات تفيدنا هنا.

---

١ - الاجمام: الترفيه والاراحة.

فحينما توضع على الفلاحين الضرائب الفادحة التي لا تتناسب مع دخلهم، مع إهمال عمارة الارض وصيانتها يشعر هؤلاء الفلاحون أنهم لا يعملون لانفسهم، ولا يجنون من وراء كدحهم المرهق شيئا ذا قيمة، وانما يعملون لغيرهم، ويستغلون لهذا الغير استغلالا بشعا وذلك يخلق في نفوسهم كراهية عملهم والتذمر منه. إن هذه المعاملة التي تحدث هذا الشعور وتدفع إلى هذا الموقف تخلف في المجتمع آثارا ضارة قد تقوض المجتمع من أساسه. هذه المعاملة تدفع بأضخم طبقة في الامة إلى انحلال أخلاقي فظيع، فهذا الفلاح الذي يستغل الحاكم جهده دون أن يعوضه عليه شيئا يريد أن يعيش، وهو يتوصل إلى غايته هذه بالكذب والغش والتهريب والسرقة فبدلا من أن يعيش من أرضه بجهده يضطر إلى العيش من جيوب الآخرين بسلاحه، وينقلب قاطع طريق، مجرما، عدوا للمجتمع، بعد أن كان المفروض فيه أن يكون لبنة تزيد صرح المجتمع قوة ومناعة. ومن جملة آثارها أن تنتقل الايدى الفتية الشابة إلى بلاد اخرى هربا من الظلم، وطلبا للقمة العيش. فمن لا يصبر على الظلم إما أن يتحول إلى قاطع طريق وإما أن يهاجر، وهذا يسلب من البلاد زهرة شبابها، فان الذين يهاجرون هم الاقوياء المغامرون، ذوي المستوى الاخلاقي العالي الذي يمنعهم من الاجرام. وإلام يؤدي هذا ؟ انه يؤدي إلى هبوط الانتاج، فهذه الايدي الفتية هي التي تدير عمليته، وحين تنقطع عن العمل فلابد أن يصاب الانتاج بالشلل. ومن جملة آثارها أن تنتقل رؤوس الاموال الكبيرة إلى خارج البلاد، فان أصحاب الثروات يستغلون أموالهم عن طريق الزراعة في المجتمات الزراعية، فيعمرون الارض، ويحيون مواتها، ويصلحون نظام الري، ويوجدون عملا للكثيرين ولكن غاية هؤلاء هي الربح، فإذا ما رأوا ان الضرائب والمظالم تذهب بثرواتهم

فظلا عن ارباحهم آثروا تجميد اموالهم أو نقلها إلى بلد آخر يأمنون فيه العدوان وينجم عن هذا تعطيل شبان كثيرين يتجهون إلى الهجرة أو إلى الاجرام، وتزيد البلاد خرابا، ويزيد الكيان الاقتصادي ضعفا. ومن جملة آثارها ان تتجد الامة على بغض الحكم القائم، ثم لا تلبث أن تثور عليه وتجعله أثرا بعد عين. هذه الكوارث الاجتماعية تنشأ من عدم التبصر في إمكانات الانتاج وحالة المنتجين. وقد وضع الامام عليه السلام من المبادئ ما يعصم إتباعه من التردي، فبين ان على الحاكم قبل ان يفكر في وضع الضريبة ان يلاحظ حالة الارض فيعمرها ويصلحها، وأن يراعي حالة العامل النفسية والمعيشية فيضمن له العيش في مستوى لائق لئلا يشعر بالاضطهاد، وعندما يفرغ من

ذلك كله يحق له ان يضع الضريبة التي تتناسب مع مستوى الانتاج ومقدرة المنتجين. قال عليه السلام: (وانما يؤتي خراب الارض من إعواز (١) اهلها، وإنما يعوز اهلها لاشراف (٢) انفس الولاة على الجمع، وسوء ظنهم بالبقاء، وقلة انتفاعهم بالعبر). عهد الاشتر * * * ولا يكفي هذا وحده في ازدهار هذه الطبقة وتقدمها، فقد يكون الحاكم محسنا إليها رؤوفا بها، ومع ذلك ينالها الظلم، ويلحق بها الحيف. إن هذه الطبقة بحاجة إلى الحماية من طبقة الخاصة والنبلاء.

---

١ - الاعواز: الحاجة. ٢ - اشراف أنفس الولاة: الاشراف: التطلع، أي ان الولاة يتطلعون إلى جمع المال لانفسهم، لعدم ثقتهم بالاستمرار في الحكم.

فهؤلاء يظلمون، ولايتناهون عن منكر فعلوه، ولا يفيئون إلى حق، اعتزازا بقوتهم وغناهم وصلتهم بالحاكمين، ولذلك فيجب ان تحمى هذه الطبقة منهم بقطعهم عنها، ويكون ذلك بألا يجعل الحاكم لهم سبيلا عليها ولا صلة بها فلا يقطعهم الحاكم أرضا تتصل بأرض من هم دونهم قوة وقدرا لانهم يستغلو المرافق العامة في سبيل منافعهم الخاصه، ويعتدون على ارض غيرهم فيلحقونها (؟) بارضهم، ويعفيهم الجباة من الضرائب مراعاة لمننزلتهم، ويضعون ما رفعوه عنهم على أعناق غيرهم ممن ليس له مثل منزلتهم، وذلك أفدح الظلم وأقبحه. فإذا ما حدث شئ من ذلك وتعدى أحد هؤلاء على بعض الناس فظلمه بأن وضع عليه خراجه، أو سلبه ارضه، أو حرمه الانتفاع بالمرافق العامة، وجب على الحاكم ان يؤد به ويرده إلى العدل كائنا من كان. قال عليه السلام: (ثم ان للوالي خاصة وبطانة، (١) فيهم استئثار وتطاول، وقلة انصاف في معاملة، فاحسم مادة أولئك بقطع مادة تلك الاحوال. ولا تقطعن لاحد من حاشيتك وحامتك (٢) قطيعة ولا يطمعن منك في اعتقاد عقدة (٣) تضر بمن يليها (؟) (٤) من الناس في شرب (٥) أو عمل مشترك يحملون مؤنته على غيرهم،

---

١ - الخاصة والبطانة، رجال الحاشية المقربون من الحاكم. (البطانة) من بطانة الثوب لانها أقرب إلى جلد الانسان، فاستعيرت الكلمة للتعبير عن الناس المقربين إلى الحاكم. ٢ - الحامة - المقربون جدا من الحاكم وأقاربه، ٣ - قطيعة - عقدة: الضيعة، المزرعة، الارض الزراعية، (اعتقاد عقدة) اقتناء مزرعة. ٤ - يلي: يقرب، أي لا تجعل أحدا من حاشيتك يقتني مزرعة إذا كان يخشى منه أن يظلم جيرانه من المزارعين ويضرهم بأخذ أكثر من حصته المقروة له من الماء، أو بتكليفهم بأعمال زراعية مشتركة بينه وبينهم دون أن يتحمل ما يترتب عليه من النفقات. ٥ - الشرب - بكسر الشين - ما، الري

فيكون مهنأ (١) ذلك لهم دونك وعيبه عليك في الدنيا والآخرة. وألزم الحق من لزمه من القريب والبعيد وكن في ذلك صابرا محتسبا واقعا ذلك من قرابتك وخاصتك حيث وقع، وابتغ عاقبته بما يثقل عليك منه فان مغبة (٢) ذلك محمودة). عهد الاشتر راجع: عهد الاشتر وراجع كتابا منه إلى عماله على الخراج رقم النص: ٥١

---

[٩٤]

(٩) التجار والصناع إذا كانت الزراعة هي ينبوع النشاط الاقتصادي في العصور القديمة، فان التجارة هي المظهر الاكمل لهذا النشاط في جميع العصور. وإذن فطبقة التجار تشكل وحدة اجتماعية عظيمة القيمة، بعيدة الاثر في الكيان الاجتماعي. ولو ان اضطرابا ألم بنشاط هذه الطبقة لاضطرب المجتمع كله، فتحدث المجاعات في بعض الاطراف بينما تتكدس المواد الغذائية في أطراف اخرى، وبينما توجد في بعض المناطق سلع كثيرة للاستهلاك، توجد مناطق أخرى نقصا في سلع الاستهلاك. وهؤلاء التجار - في كلام الامام على قسمين: منهم المقيم المستقر بماله وتجارته. ومنهم المتجول المضطرب بماله بين البلدان يرصد حاجة كل بلد فيتجر فيه بالسلعة التي يفتقر إليها. وأما الصناع فيجب ان ندخلهم في طبقة التجار ونفهمهم على أنهم منها هنا، وذلك لامرين. الاول: أن لكل من هؤلاء الصناع عملا خاصا مستقلا يتجر به وحده أو يشاركه فيه غيره فهو يتمتع بنتيجة عمله وليس مستخدما عند غيره كما هو حال العامل الآن.

[٩٥]

الثاني: ان الوجدان الطبقي عند التجار والصناع واحد كما سنرى. والميزان في عد طائفتين من الناس طبقة واحدة هو وحدة الوجدان الطبقي فيهما * * * هناك تلازم وثيق بين الازدهار الاقتصادي وبين التجارة، فكلما نشطت حركة التجارة ارتفعت نسبة الانتاج، وكلما ضعف امر التجارة هبطت هذه النسبة، وتبعتها في الهبوط المكانة الاقتصادية للامة. نضرب لهذا مثلا بحالة المقاطعات الفرنسية في عصر الاقطاع، ثم بحالة هذه المقاطعات بعد ضعف امر الاقطاع ونشوء البرجوازية. ففي عهد الاقطاع الذي ساد اوربا منذ انهيار امبراطورية شرلمان إلى ما بعد الحركة الاولى للحروب الصليبية ضعفت الحركة التجارية في اوربا ضعفا عظيما فتبعها الانتاج في الهبوط، واكتفى سكان كل اقطاعية بانتاج ما يلزمهم ويكفيهم من المواد الغذائية واقتصروا منها على انواع خاصة تسد حاجتهم. ولا تستدعيهم بذل جهد كبير فلم يكن شئ سوي سد الحاجة مطلبا لهم. نعم كانت ثمة استثناءات خاصة في السلاح والثياب والاثاث للزعيم، وكانت هذه تنقل من اقاليم بعيدة نسبيا. وهكذا كانت المقاطعات الفرنسية كلها، تجنح في الاقتصاد نحو سياسة الاكتفاء الذاتي، وعدم انتاج ما يزيد على الحاجة. ولكن ما ان التهبت شرارة الحروب الصليبية التي ذهبت بكثير من النبلاء والاقطاعيين، وما ان حدثت تطورات اجتماعية أخرى كالنزوح من الريف إلى المدينة، وتأييد الملك، واختراع المدفع الذي ذهب بقيمه الحصون.. ما ان حدث هذا حتى عادت التجارة فنشطت نشاطا عظيما، ونشأت طبقة البرجوازيين التجارية التى يتنقل افرادها بين البلدان، واستتبع ذلك ارتفاع مستوي الانتاج، فزرع الزراع انواعا جديدة لم يكن ليزرعها لولا طلب التجار لها، واشترى

[٩٦]

اشياء جديدة (ملابس وأسلحة، وآنية، وادوات زينة) لم يكن ليقدر على شرائها لولا نشاطه الجديد، وتفنن الصانع في صنعه، فلم يعد يصنع ما يسد الحاجة فقط، وانما أخذ يصنع ما يرضي حاسة الجمال أيضا. وقامت المشاريع الصناعيه الكبرى فنشأت البرجوازية المالية

والبرجوازية الصناعية. وهكذا ارتفع مستوى الانتاج بسبب نشاط الحركة التجارية. وعندما نبحث عن أسباب التدهور الذى حل بفرنسا وغيرها من دول اوربا في عصر الاقطاع نجد أسبابا مختلفة. منها عدم وجود الطرق التجارية الصالحة في جميع الاوقات بين مختلف أنحاء البلاد ومنها قطاع الطرق، وعصابات اللصوص والقتلة التي تترصد القوافل التجارية. ومنها عدم وجود سلطة مركزية تبث الامن، وتضرب على أيدي المفسدين في الارض، لان السلطة المركزية في عصر الاقطاع كانت واهنة وكان السلطان الفعلي بأيدي الاقطاعيين وكان هؤلاء في حالة حرب دائمة فيما بينهم في شغل عن تأمين السبل والضرب على أيدي المفسدين. ومنها الرسوم الكمركية الفاحشة، والضرائب الباهظة التي تفرض على البضاعة عند حدود كل مقاطعة، وعند كل جسر ومعبر مما يرتفع بثمن السلعة إلى مبلغ كبير لا يقوى عليه الفرد المحدود الدخل. هذه الامور أضعفت الحركة التجارية وحصرتها في نطاق شديد الضيق. ولكن الوضع تغير عندما حدثت التطورات الاجتماعية التي أشرنا إليها. فلقد استتبع ضعف شأن الاقطاعيين تحول الشعب إلى تأييد الملك فاشتد ساعد السلطة المركزية، وعند ذلك ضربت هذه السلطة على أيدي اللصوص وقطاع الطرق ومهدت السبل التجارية وأمنتها، ووحدت الضرائب فاتسع مجال التجارة، ونجم عنها الازدهار الاقتصادي الذي أشرنا إليه.

وما نشك في أن الامام كان على وعي لهذا كله يوم كتب للاشتر عهده الذي عهد إليه. فقد استوصاه بالتجار خيرا، وأمره بأن يوصي بذلك ولاته وعماله. وما هذا الخير الذي أراده لهم إلا تسهيل مهمتهم، ليؤدوا خدماتهم للمجتمع على الوجه الاكمل، فلا يجوز أن تكون المكوس والضرائب باهظة تستصفي الربح كله، أو تبقى منه شيئا لا يسد الحاجة، ولا يحمل صاحبه على المخاطرة، لان ذلك يلجئه إلى أن يجمد ماله فلا ينميه بالتجارة، ويلحق بالمجتمع من ذلك ضرر كبير ينشأ من توقف حركة العرض والطلب التي ينجم عنها هبوط المستوى الاقتصادي. ويجب أن تكون الطرق التجارية صالحة في جميع ؟ ؟ ؟ ؟ ؟ ليتيسر للتجار التنقل بين أطراف البلاد، وليتمكنوا من تلبية الرغبات في جميع الانحاء، وليستطيعوا نقل فائض الانتاج من منطقه فيسدوا به حاجة منطقة أخرى تعاني نقصا فيه. ويجب أن يستتب الامن، لئلا يمسك الخوف التاجر عن التنقل، ويقعد به الفرق من أن يذهب ضحية العدوان. قال عليه السلام: (ثم استوص بالتجار وذوي الصناعات وأوص بهم خيرا، المقيم منهم، والمضطرب بماله (١)، والمترفق ببدنه (٢)، فانهم مواد المنافع، وأسباب المرافق (٣)، وجلا بها من المباعد والمطارح (٤)، في برك وبحرك،

---

(١) المضطرب بماله: التاجر المتنقل بين البلاد. (٢) العامل اليدوي. (٣) المرافق: الادوات والآلات، وما إليها. (٤) المطارح: الاماكن البعيدة. دراسات في نهج البلاغة (٧)

وسهلك وجبلك، لا يلتئم (١) الناس لمواضعها، ولا يجترؤن عليها، فانهم سلم لا تخاف بائقته (٢)، وصلح لا تخشى غائلته، وتفقد أمورهم بحضرتك، وفي حواشي بلادك). عهد الاشتر * * * ذهب (سان سيمون) إلى أن الوجدان الطبقي الذي يميز طبقة الصناع

والتجار هو الانتاج، وإنماء بالثروة الفردية عن طريق تشكيل المادة على نحو ينتفع به الانسان، أو عن طريق الاتجار بهذه المادة. وهم، بهذا، يخالفون طبقة الحاكمين لان هؤلاء يجعلون مظهر سلطانهم على الانسان (كان سيمون يكتب هذا في سنة ١٨١٨) أما التجار والصناع فقد جعلوا سلطانهم على المادة، ولذلك فهم طبقة مسالمة لا يخشى منها شر، بخلاف من كان سلطانهم على الانسان، فانهم ينزعون إلى الشر والتسلط. وهو يرى أن البرجوازية الصناعية والتجارية قد حققتا انقلابا هائلا في نظرة الانسان إلى وسيلة جمع المال، وبدلتا المفاهيم الاقتصادية التي سيطرت على العقل الانساني آلاف السنين. فبينما كانت هذه المفاهيم تقتضي بأن أحسن الوسائل لجمع المال هي السيطرة على طائفة من الناس واستخدامها، نرى هذه الطبقة الناشئة تؤكد أن السبيل الافضل لذلك هو السيطرة على المادة وتسخيرها لحاجات الانسان بواسطة قوى العلم. ويرى سيمون أن من الضروري للتقدم الانساني أن تتاح لهذه الطبقة جميع

---

(١) يلتئم: يجتمع الناس. (٢) البائقة: الداهية، والخطر، اي ان التجار والصناع مسالمون.

فرص النمو، لتعم ثروتها المباركة على النظرة التقليدية لوسائل جمع المال (١) وهذه الفكرة بديهية. وقد أكدت جميع التجارب صحتها. ولا يصعب علينا أن نتبين روح هذه الفكرة في عهد الامام، فقد رأيت أنه قد أوصى الحاكم بالتجار والصناع، وأمره أن يرعى شؤونهم ويتفقد أحوالهم، ويفسح لهم في المجالات ليتسنى لهم أن يساهموا مساهمة خصبة في رفع مستوى الانتاج وانماء الحياة الاقتصادية. وتأمل في قوله: (... فانهم سلم لا تخاف بائقته وصلح لا تخشى غائلته) فانه يؤكد فيه وجوب العناية بهم والرعاية لهم، لانهم لا يخشى منهم شر، فطبيعة عملهم، والوجدان الذي يدفعهم إلى هذا العمل فيهما خير المجتمع ورفاهه. وأما قوله: (وتفقد أمورهم بحضرتك وفي حواشي بلادك) بعد أن أمره وأمر عماله برعايتهم، فانه يشبه أن يكون أمرا بانشاء دائرة خاصة تعنى بشؤون التجار. * * * قلت: اننا لا يصعب علينا أن نتبين روح هذه النظرية في عهد الامام ولكن في هذا العهد ملاحظة عميقة واعية غفل عنها سان سيمون، وأولتها الابحاث الاجتماعية الحديثة عناية كبيرة. وذلك انه إذا كان من الحق أن نعترف بأن طبقة التجار والصناع طبقة محبة للسلم، طبقة يعود نشاطها على المجتمع بالخير، فان من الحق أن نعترف أيضا انها تصير في بعض الاحيان ذات نشاط عدواني مضر بالمجتمع فعندما تستحكم (العقلية التجارية) في التاجر والصانع إلى حد أنها تدفع بهما إلى التماس الثروة من أقرب الطرق - عندما يحدث هذا تجنح هذه الطبقة إلى التسلط والسيطرة

---

(١) دكتور محمد ثابت الفندي: الطبقات الاجتماعية ص: ٤٧ - ٥١.

على الانسان بصورة غير مباشرة، ولكنها بالغة الضرر، وذلك بالاحتكار والتوسل به إلى السيطرة على الاسواق والتحكم بالاسعار، وبالتطفيف في الموازين، وبالغش وبيع الاصناف الرديئة، وبكل طريق

يضمن ربحا وفيرا في مقابل رأسمال قليل. عندما يحدث هذا الانحراف في عمل هذه الطبقة تصير خطرا. واذن فكما تجب معونتها، تجب مراقبتها أيضا لئلا تنحرف انحرافا يضر بالشعب، ويحرم الفقير من بلغة عيشه، فحينما ترتفع الاسعار وتبقى الاجور كما هي تحدث أزمة عند من لا تفي أجورهم بالاسعار الجديدة. هذه الظاهرة، ظاهرة انقلاب هذه الطبقة إلى خطر، لاحظها الامام، وتقدم إلى عامله بأن يلاحظها، وبين له العلاج. فعندما يحدث الانحراف يتعين على الحاكم بأن يقوم بتدبير زجري يرجع الامور إلى نصابها، وذلك إما بمنع المحتكر من الاحتكار، وإجباره على البيع بالسعر المعقول، وإما بتعميم المادة المحتكرة على تجار عديدين يبيعونها بالسعر العادل بالنسبة إلى الفريقين: البائع والمستهلك، فإذا ما احتكر تاجر بعد النهى عوقب ليرتدع. وأمر عامله أن يجعل الاسعار على مستوى لا يعجز عنه أوساط الناس، ولا يخسر به التاجر. وأمره أن يضبط المكاييل والموازين لئلا يبخس البائع المبتاع. قال عليه السلام: (واعلم مع ذلك أن في كثير منهم ضيقا (١) فاحشا، وشحا (٢)، قبيحا، واحتكارا للمنافع: وتحكما في

---

(١) سوء الخلق في المعاملة (٢) الشح: البخل

البياعات، وذلك باب مضرة للعامة وعيب على الولاة. فامنع من الاحتكار فان رسول الله صلى الله عليه وآله منع منه، وليكن البيع بيعا سمحا بموازين عدل وأسعار لا تجحف (١) بالفريقين من البائع والمبتاع، فمن قارف (٢) حكرة من بعد نهيك إياه فنكل (٣) به وعاقبه من غير إسراف). عهد الاشتر

---

(١) الاجحاف: الظلم، يعني ان تكون الاسعار عادلة بالنسبة إلى: التاجر والمستهلك.
(٢) قارف: ارتكب وفعل (٣) النكال: العقاب اي عاقب التاجر إذا احتكر بعد نهيك له

---

(١٠) العمال ومن لا يستطيعون عملا هذه الطبقة، طبقة الفقراء تتألف ممن لا يستطيعون عملا، لعاهة فيهم لا يقدرون معها على العمل، أو لا يستطيعونه لكبر السن وضعف البنية، أو لا يستطيعونه لصغر السن كالايتام الذين لا كافل لهم، أو يستطيعون ويعملون، ولكن عملهم لا يمدهم بالكفاية، ولا ييسر لهم مستوى لائقا من العيش. هذه الطبقة تتألف من هذه الطوائف، وإذا لم تلاق عناية من المجتمع ينحرف قويها إلى طريق الجريمة، ويموت ضعيفها جوعا، وهي في الحالين سبة وخطر على المجتمع. واذن فلا بد من تدبير يدفع البؤس عن أفرادها، ويحول قويهم إلى خلية انسانية عاملة وينهض بهم إلى مستوى الحياة الحرة الكريمة. وقد سن الامام عليه السلام قانونا تعامل به هذه الطبقة استجاب فيه إلى أحكام الاسلام. وفي كلام الامام عن هذه الطبقة نرى تشريعا عماليا ناضجا إلى أبعد الحدود، ومستوعبا تمام الاستيعاب، وهو على نضجه الكامل واستيعابه التام، سابق للتشريعات العمالية الحديثة بأكثر من الف ومائتي عام. * * * ففي النصف الثاني من القرن الثامن عشر ظهرت طلائع الثورة الصناعية في

[١٠٣]

انكلترا، وهي أول بلد أو ربي شهد الانقلاب الصناعي الحديث. وقد تمت للثورة الصناعية عناصرها المكونة حين اخترع البخار كقوة محركة، وعمم في صناعة المحركات. واستتبع ذلك اتساع نطاق الصناعة وتركزها في المدن، وحينئذ حدثت الهجرة من الريف إلى المدينة، فقد باع الفلاحون أرضهم من كبار الملاك، وانتقلوا إلى المصانع الجديدة كعمال، وعند ذلك ظهرت طبقة العمال إلى الوجود على نحو فعال، وانتقلت مراكز الكثافة في المجتمع من الفلاحين إليها. ومن هذا الحين بدأت هذه الطبقة تستشعر الظلم أفدح وأقسى ما يكون، فلم يكن لمطامع أصحاب المصانع حد ولا غاية، وكان العامل يعمل أكثر ساعات نهاره بأجر زهيد، فإذا ما استغنى عنه صاحب العمل، أو حلت به آفة، أو اعتراه وهن، أو بلغ سنا لا يقوى فيها على العمل، طرد من عمله. وبدا كأن هذا الوضع الشائن سيستمر إلى الابد. وبدا كأن الكيان الاقتصادي القائم على هذا الاستغلال سيبقى منيعا. وبدا كأن واقع العمال التعس أمر لا مفر منه ولا معدى عنه. ولكن شيئا من هذا لم يستمر، فقد نبهت هذه المظالم الوعي العمالي، ودفعتهم إلى تحسين مستواهم الاقتصادي عن طريق الصراع. وقد عملوا كثيرا، وقد أخفقوا كثيرا، ولكنهم وفقوا أخيرا إلى تخفيض ساعات العمل ورفع الاجور، والتعويض عند الصرف من العمل، والضمان الاجتماعي باعانة مالية تدفع للعامل المتعطل من صندوق الدولة. ونقدم هنا ملاحظات: الاولى: ان هذا لم يتم إلا بجهود العمال أنفسهم، فلا المجالس التشريعية ولا

[١٠٤]

أصحاب العمل انتبهوا إلى حالة العمال واهتموا بتحسينها، ولم يستجب أصحاب العمل لمطالب العمال، ولم تسن التشريعات الملائمة إلا بعد صراع دام عقودا من السنين. الثانية: إن هذه الاعانة التي تعطى للعامل المتعطل إنما تعطى له بشكل إحسان وصدقة، ولا باعتبار ها حقا له. الثالثة: ان هذه التشريعات لا تشمل بعض الحالات، فمن يعمل ولا يكفيه عمله لا يدخل فيها، ومن يعمل ويحصل على أجر مناسب ولكن عرض له ما جعله مفتقرا إلى المزيد من المال لا يدخل فيها، وكذلك لا يدخل فيها الايتام، ومن لا كافل لهم ولا يستطيعون العمل لصغر السن أي لا تعتبر الدولة نفسها مسؤولة عنهم. وإذا رجعنا إلى عهد الامام لنقارن بينه وبين النتائج التي خرجنا بها ؟ فماذا نجد ؟ نلاحظ اولا: ان التشريعات الكافلة للطبقة العاملة ومطلق من لا يستطيع العمل للمرض أو لكبر السن أو لصغره - هذه التشريعات صدرت من فوق، من طبقة الحاكمين، ومغزى أن تكون التشريعات الحامية لطبقة العمال قد صدرت من فوق من دون أن يحدث من هذه الطبقة تحسس يلجئ إلى هذا، كبير القيمة، فهو يدل على أن الامام كان يفكر في هذه الطبقة ويعمل لخيرها. وثانيا: ان ما تدفعه الدولة إلى هؤلاء ليس احسانا منها إليهم، وانما هو حق لهم عليها، يجب أن تؤديه. وعهد الامام صريح في هذا كما سترى. ومغزى هذه الملاحظة عظيم، فعندما يأخذ المعوز ما يأخذه على انه (احسان) يشعر بالدونية، اما حين يأخذه على انه (حق) فانه يشعر بشئ من هذا. وثالثا: ان التشريع الذي سنه الاسلام وذكره الامام يشمل كل حالة عجز،

[١٠٥]

فمن لا يستطيعون عملا لمرض أو هرم أو صغر سن، أو يعملون ولكن أجرهم لا يكفيهم - هؤلاء جميعا تكفلهم الدولة، وتعتبر نفسها مسؤولة عنهم. وعهد الامام صريح في أن على الحاكم أن ينشئ لهذه الطبقة دائرة خاصة ترعى شؤونها، فهو يقول: (ففرغ لاولئك ثقتك من أهل الخشية والتواضع، فليرفع اليك أمورهم). وقد جرى عليه السلام على هذا فيما نقل ابن أبي الحديد إذ قال: (وكان لامير المؤمنين علي عليه السلام بيت سماه بيت القصص يلقي الناس فيه رقاعهم). واذن، فبالرغم من سبق عهد الامام على التشريعات العمالية الحديثة بأكثر من الف ومائتي عام نلاحظ أنه أوعى لحاجات هذه الطبقة وأرعى لشؤونها، وأشمل لطوائفها من هذه التشريعات. نعم تمتاز هذه التشريعات بأنها أكثر تفصيلا من عهد الامام، وبأنها تشتمل على ملاحظات لم ترد في هذا العهد، ولكن ذلك لا يكسبها ميزة حقيقية، فالعبرة بروح التشريع وبشموله، ولا شك، بعدما عرفت، في أن عهد الامام أشمل. قال عليه السلام: (ثم الله الله في الطبقة السفلى من الذين لا حيلة لهم من المساكين والمحتاجين، وأهل البؤسى (١) والزمنى (٢) فان في هذه الطبقة قانعا ومعترا (٣).

---

(١) البؤس: جمع بائس، الذين يعانون من الفقر الشديد (٢) الزمنى: جمع زمين - والزمانة العاهة (٣) القانع: السائل - المعتر: المتعرض لاخذ العطاء دون سؤال وطلب

واحفظ لله ما استحفظك من حقه فيهم، واجعل لهم قسما من بيت مالك، وقسما من غلات (١) صوافي (٢) الاسلام في كل بلد، فان الذي للاقصى (٣) منهم مثل الذي للادنى وكل قد استرعيت حقه (٤). ولا يشغلنك عنهم بطر (٥) فانك لا تعذر بتضييعك التافه لاحكامك الكثير المهم، فلا تشخص همك عنهم (٦)، ولا تصعر (٧) خدك لهم، وتفقد أمور من لا يصل اليك منهم ممن تقتحمه العيون (٨) وتحتقره الرجال، ففرغ لاولئك ثقتك من أهل الخشية والتواضع فليرفع اليك أمورهم ثم اعمل فيهم بالاعذار إلى الله سبحانه يوم تلقاه (٩)، فان هؤلاء من الرعية أحوج إلى الانصاف من غيرهم. وكل فاعذر إلى الله في تأدية حقه إليه. وتعهد أهل اليتم وذوي الرقة في السن (١٠) ممن لا

---

(١) الغلات: المحاصيل الزراعية (٢) الصوافي: الارض المفتوحة عنوة (بالقوة)، فانها ملك لجميع المسلمين، ويعود ريعها إلى بيت مال المسلمين. (٣) الاقصى: الابعد في القرابة أو في المكان. والادنى: الاقرب، أي انه لا فرق في لزوم الرعاية لهؤلاء بين القريب والبعيد. (٤) وجبت عليك رعاية حقه (٥) البطر: الطغيان بالنعمة (٦) لا تشخص همك: لا تصرف عنايتك واهتمامك عن هؤلاء الفقراء (٧) لا تتكبر عليهم. (٨) تقتحمه العيون: تحتقره، فلا تنظر إليه (٩) ليكن عملك بالنسبة إلى هؤلاء الفقراء عذرا لك عند الله تعالى (١٠) ذوي الرقة في السن: الذين بلغوا مرحلة الشيخوخة

حيلة له ولا ينصب للمسألة نفسه. وذلك على الولاة ثقيل والحق كله ثقيل، وقد يخففه الله على أقوام طلبوا العافية، فصبروا أنفسهم ووثقوا بصدق موعود الله لهم). عهد الاشتر ونستطيع أن نتصور عظيم اهتمامه عليه السلام بهذه الطبقة حين نتأمل قوله (ثم الله الله..) وقوله: (فلا تشخص همك عنهم، ولا تصعر خدك لهم) يأمر واليه بأن يتواضع لهم لئلا يشعروا بالذل من جهة، وليضرب لاغنياء رعيته مثلا

من نفسه في معاملته لهذه الطبقة. وقوله: (فان هؤلاء من بين الرعية أحوج إلى الانصاف من غيرهم). وأما قوله: (فان في هذه الطبقة قانعا ومعترا) وقوله: (وتفقد أمور من لا يصل اليك منهم) وقوله: (وتعهد أهل اليتم وذوي الرقة في السن، ممن لا حيلة له، ولا ينصب للمسألة نفسه) فانها تنطوي على مضمون عظيم القيمة، فهؤلاء الذين يمنعهم الحياء وشرف النفس من إظهار فقرهم ومن نصب أنفسهم للمسألة يموتون جوعا إذا لم يبحث عنهم الحاكم ويرعى أمورهم، ولذلك أمر الامام واليه بأن يتفقد هؤلاء وأمثالهم، ويوكل بهم من يتفقدهم. ولا أظن أن حكومة من الحكومات الحديثة بلغ فيها التشريع العمالي، والتأمين الاجتماعي من النضوج والوعي للمسؤولية الاجتماعية إلى حد أن تؤلف هيئة تبحث عن ذوي الحاجة والفاقة فترفع حاجتهم بأموال الدولة، كما نرى ذلك في عهد الامام ولا أظن أن قلوب المشرعين وعقولهم اجتمعت على أن تخرج للدنيا تشريعا عماليا فافلحت في أن تخرجه أنبض من تشريع الامام بالشعور الانساني العميق. راجع عهد الآشتر

---

[١٠٨]

(١١) كنا فيما نتحدث عن آراء الامام في المجتمع باعتبار تركيبه الداخلي، أعني الطبقات الاجتماعية. والآن نريد أن نتحدث عن رأي الامام في المجتمع كوحدة عامة، فلا ننظر إليه من داخل كما صنعنا في بحث الطبقات، وانما ننظر إليه من خارج باعتباره وحدة إنسانية عامة لا نلحظ فيها الفروق. وكنا نتحدث عن آراء الامام في اصلاح المجتمع على هدي الاسلام عن طريق التأمين الاقتصادي واصلاح جهاز الحكم، ونتحدث الآن عن آراءه في إصلاح المجتمع عن طريق العوامل النفسية ذات الاثر في الجماعة الانسانية. للاجتماع الانساني مظهران: مظهر حقيقي، ومظهر مزيف. أما المظهر الحقيقي للاجتماع الانساني فهو ذلك الذي يبدو الناس فيه وقد شاعت بينهم الالفة، وجمعتهم المحبة، وقاربت ما بينهم وحدة الوسائل والغايات. وهو ذلك الذي يعي فيه الافراد المسؤولية، ويشعرون ان القانون الذي يجب ان يسود هو قانون. حقي وواجبي. وهو الذي يعي فيه الافراد أن الغاية من الاجتماع الانساني هي التعاون على

---

[١٠٩]

إيجاد الفرص المناسبة التي تمكن كل فرد من إظهار قدرته، وتحقيق ذاته على نحو فعال مجد، وليس عملا يراد منه إيجاد الفرص المناسبة لطائفة من الناس على حساب آخرين. وأما المظهر المزيف للاجتماع الانساني فهو ذلك الذي يبدو فيه الافراد (مجتمعين) فحسب، فلا توحد بينهم الفة، ولا تلم شتاتهم محبة، ولا يلتقون على هدف صحيح. وهو ذلك الذي يسعى فيه كل فرد أو كل جماعة إلى امتلاك كل ما يستطيع دون وعي لحاجات الآخرين ودون اهتمام لمصائرهم. وهو ذلك الذي يسود فيه قانون الكلمة الواحدة، قانون: حقي، فقط. ان هذا الطراز من الاجتماع أحق بأن يسمى (تجمعا) ذئبيا من أن يسمى اجتماعا: إنسانيا. هذان مظهران للاجتماعي الانساني ويحسن بنا أن نلتمس الاسباب التي تسوق إلى هذا وذاك. * * * روح العدوان غريزة أصيلة في نفس الانسان. وإنما كانت أصيلة فيه لانها ضرورية لحياته، فلولاها لما كان في الانسان ما يحفزه إلى حماية نفسه من كواسر السباع، وفواتك الهوام، ولما كانت له القدرة على الصيد، ولا على أي عمل يتطلب صراعا مع كائن حي آخر في سبيل حفظ الحياة. وأوقات الحاجة إلى هذه الغريزة هي حين تتعرض الحياة الانسانية لخطر فاتك سواء كان من

الانسان أو الحيوان. وليس في النفس الانسانية جهاز يولد هذه الغريزة في أوقات الخطر ويعدمها

---

[١١٠]

في أوقات الامان. ولذا فان هذه الغريزة موجودة في جميع الاوقات. وهي في أوقات الخطر تعمل عملها الذي يسرت له وأودعت في الانسان لاجله. وأما في أوقات الامان فان وجودها يصبح مشكلة خطيرة قد تمتد بآثارها إلى الآخرين من أفراد وجماعات. ففي المجتمعات التي تدين بحضارة لا تجعل للانسان هدفا ساميا في الحياة، ولا تعلمه إلا أن يبالغ في إرواء شهواته ونزعاته، تعبر هذه الغريزة عن نفسها في عدوان بعض الافراد على بعض أو عدوان بعض الجماعات على بعض، لانها - كغريزة - لابد لها من التعبير عن نفسها، وحيث لا تقدم لها الحضارة موضوعا للتعبير يصرفها ويحولها عن الافراد، لابد أن تعبر عن نفسها في هؤلاء الافراد، وحينئذ ينقلب المجتمع الانساني إلى مجتمع ذئبي تناحري، ذي غرائز عدوانية ضارية، تعبر عن نفسها باستمرار. هذه هي الاسباب التي تذهب بروح الاجتماع الانساني وتسبغ عليه مظهرا اجتماعيا مزيفا. وجاء الاسلام والمجتمع الانساني كله في واقع تعس نشأ من أن الحضارات التي كان يدين بها كانت في الغالب حضارات لا تتجاوز بالانسان مدى الحس. وكان المجتمع العربي يعاني الازمة في أحد مظاهرها، فقد كان يقوم إلى جانب ما يعانيه من جدب روحي على أساس قبلي. وكان هذان العاملان: الجدب الروحي والروح القبلية يثيران غريزة العدوان أعتى وأضرى ما تكون. وقد عالج الاسلام هذه المشكلة. اولا، بأن حارب عناصر الفساد والانحلال في الارث الثقافي المهلهل الذي دعت إليه تلك الحضارات، وجاء بثقافة جديدة حرية بأن تعيد تكوين الانسان الروحي من جديد، وجعل للحياة الانسانية هدفا أعلى من إرواء الحس باللذة، جعل لها الفضيلة هدفا، وأمر الانسان بالمسير إليه.

---

[١١١]

وثانيا، بأن وجه غريزة المقاتلة إلى موضوعين: احدهما أعداء الاسلام الذين يكيدون له، ويبغون عليه، ويريدون اطفاء نور الله فيه. والثاني هو الشيطان، هذا الكائن الذي هو أعدى أعداء الانسان: يزين له الظلال، ويحبب إليه الانحراف، ويدفعه عن طريق الاغواء والاغراء إلى تشويه شخصية الانسانية وتلويثها. وقد أكد الاسلام عداوة الشيطان للانسان تأكيدا مطلقا، وأكد وجوب الاحتراز منه، والحذر من مكائده، والتحصن من شباكه، تأكيدا مطلقا وبذلك وجه غريزة القتال والعدوان إلى موضوع يستفيد منه المجتمع أعظم الفائدة، فالانسان، منذ اليوم، يكافح الشيطان من أجل أن يسمو.. من أجل أن يحقق الانسان. وقد أحرز النبي صلى الله عليه وآله نصرا باهرا حين استطاع، عن طريق الاسلام، أن يجمع العرب على عقيدة توحد بينهم في الوسائل والغايات، وأن يكون من الشراذم العربية أمة عربية. ولكن الظرف الزماني لم يسعفه على استئصال الروح القبلية من نفس العربي، فما أن قبضه الله إليه حتى حدث ما بعث هذه الروح من جديد.. حتى ولي الخلافة عثمان فعبرت عن نفسها بسبب سياسات معينة تعبيرات شديدة، فلما ولي الامام الحكم جوبه بهذا الواقع، واقع المجتمع العربي المسلم الذي ساقته الروح القبلية إلى مصير وبيل. فنصب نفسه لمحاربة هذه الروح. * * * وقد كانت طريقته في العلاج فذة رائعة، سنقف في فصل آت على جانب منها يتناول التثقيف الفردي، وتعليم أصحابه روح الاسلام أما هنا فنتحدث

عن كفاحه للروح القبلية باعتبارها نزعة هدامة ولابد انه عليه السلام تكلم كثيرا في هذا الموضوع، لان واقعه كان يدعوه

---

[١١٢]

إلى ذلك، ولئن لم يصل الينا كل ما قال أو اكثره فان ما في نهج البلاغة يغني في مقام التعرف على آراءه في هذه المسألة، وثمه خطبة من طوال خطبه خصصها لمحاربة هذه النزعة في مجتمعه، وقد ذكر الشريف مختارا منها، ونحن ذاكرون طرفا مما اختار نستشهد به على ان الامام كان يعي العمليات الاجتماعية، وكان يعي ما وراء هذه العمليات من دوافع نفسية تحمل عليها وتدفع إليها. * * * تكرر ذكر الشيطان في نهج البلاغة كثيرا: ١ - قصة آدم (ع) وإغراء الشيطان له. ٢ - الشيطان أخطر عدو للانسان، يزين له المعصية، ويحمله على تسويف التوبة، ويدفعه إلى مقارفه الاثم، حتى إذا حق الحق تبرأ منه وتركه بين يدي عذاب غليظ. ٣ - من جملة مهام الانبياء الكبرى ان يحذروا الناس من إغواء الشيطان. وقد كان الامام يهدف من كل ذلك إلى تأكيد عداوة الشيطان في النفوس لتنصرف إليه غريزة العدوان. وأعظم خطبة تضمنت ذلك، وتجلى فيها غرض الامام الاجتماعي هي خطبته المسماه (القاصعة). ففيها صرح الامام بأن الاجتماع الانساني الحق لا يمكن أن يجتمع مع النزعة القبلية. وفيها يصرح بأن النزعة القبلية ان هي إلا ارث شيطاني يزينه الشيطان لاوليائه. وفيها يبين أن الشيطان احق بالمحاربة من هؤلاء الضعفاء الذين يقع عليهم الظلم ويلحقهم الحيف بسبب النزعة القبلية

---

[١١٣]

وفيها يضرب الامثال التي تشهد لدعاواه والتي تدل على أن النزعة القبلية، بما لها من آثار سيئة، هي التي محقت المجتمعات القديمة. قال عليه السلام: (الحمد لله الذي لبس العز والكبرياء، واختارهما لنفسه دون خلقه، وجعلهما حمى وحرما على غيره، واصطفاهما لجلاله، وجعل اللعنة على من نازعه فيهما من عباده. (ثم اختبر بذلك ملائكته المقربين، ليميز المتواضعين منهم من المستكبرين، فقال سبحانه، وهو العالم بمضمرات القلوب ومحجوبات الغيوب: إني خالق بشرا من طين. فإذا سويته ونفخت فيه من روحي فقعوا له ساجدين. فسجد الملائكة كلهم أجمعون. إلا إبليس (١). اعترضته الحمية، فافتخر على آدم بخلقه، وتعصب عليه لاصله، فعدو الله إمام المتعصبين. وسلف المستكبرين، الذي وضع أساس العصبية.). - الخطبة القاصعة - رقم النص: ١٩٠

---

(١) سورة ص، آية ٧١ - ٧٤. دراسات في نهج البلاغة (٨)

---

[١١٤]

وبعد أن بين أن الله ابتلى خلقه بهذا لينفي عنهم التكبر والخيلاء، وبعد أن أمرهم أن يعتبروا بما صار إليه إبليس حين تكبر، قال: (فاحذروا عباد الله أن يعديكم بدائه، وأن يستفزكم بندائه، وأن يجلب عليكم بخيله ورجله (١)، فلعمري لقد فوق لكم سهم الوعيد (٢)، وأغرق لكم بالنزع الشديد (٣)، ورماكم من مكان قريب، وقال: (رب

بما أغويتني لازينن لهم في الارض ولاغوينهم أجمعين) (٤) قذفا بغيب بعيد، ورجما بظن غير مصيب، صدقه أبناء الحمية وإخوان العصبية، وفرسان الكبر والجاهلية، حتى إذا انقادت له الجامحة منكم (٥)، واستحكمت الطماعية منه فيكم، فنجمت الحال من السر الخفي إلى الامر الجلي (٦)، استفحل سلطانه

---

(١) أجلب بخيله، يعني استعان بفرسانه. وأجلب برجله، يعني استعان بمشاته. (٢) فوق السهم: أعده للرمي. (٣) أغرق بالنزع: شد وتر قوسه إلى أقصاه ليصيب الهدف إصابة مهلكة. (٤) سورة الحجر، آية ٣٩. (٥) الجامحة: من جمح الفرس، إذا فر وشرد، يريد الامام بذلك من عصاه من أصحابه الذين تأثروا بالروح القبلية. (٦) نجم: ظهر، يريد أن العصبية القبلية كانت في أول الامر مجرد فكرة، ولكنها بعد أن أثر الشيطان أثره، تحولت العصبية من مجرد فكرة خفية إلى حقيقية خارجية ظاهرة جلية.

---

[١١٥]

عليكم، ودلف (١) بجنودة نحوكم، فأقحموكم ولجات الذل (٢)، وأحلوكم ورطات القتل، وأوطؤوكم إثخان الجراحة (٣).. فأصبح أعظم في دينكم جرحا، وأورى (٤) في دنياكم قدحا من الذين أصبحتم لهم مناصبين، وعليهم متألبين، فاجعلوا عليه حدكم وله جدكم (٥)، فلعمر الله لقد فخر على أصلكم، ووقع في حسبكم، ودفع في نسبكم، وأجلب بخيله عليكم. فاطفئوا ما كمن في قلوبكم من نيران العصبية، وأحقاد الجاهلية، فإنما تلك الحمية تكون في المسلم من خطرات الشيطان ونخواته، ونزغاته (٦) ونفثاته (٧)، واعتمدوا وضع التذلل على رؤوسكم، وإلقاء التعزز تحت أقدامكم، وخلع التكبر من أعناقكم، واتخذوا التواضع مسلحة (٨) بينكم وبين عدوكم إبليس وجنوده،

---

(١) دلف: تقدم. (٢) ولجات: مفرده: ولجة، المأوى في الطريق، يلجأ إليه الناس. (٣) أوطأ: أركب، (اثخان الجراحة) يقال: أثخن في العدو: أي أوقع فيه إصابات شديدة، فيكون معنى قوله (ع) (أوطؤكم اثخان الجراحة) انهم أشعلوا نار الفتنة بينكم، ففتك بعضكم بالبعض الآخر فتكا شديدا. (٤) أورى النار: جعلها تشتعل بشدة وقوة. (٥) الحد: هنا الغضب. والجد هنا القطع. يريد: صبوا عليه غضبكم، واقطعوا الصلة بينكم وبينه. (٦) النزغ: الافساد. (٧) النفث: النفخ. كأن الشيطان ينفخ الشر والفساد في عقول الناس وقلوبهم. (٨) المسلحة: مكان تجمع الجنود المسلمين على الحدود لدفع العدو. يريد: اجعلوا التواضع سلاحكم في حد ابليس الذي يدعوكم إلى التكبر

---

[١١٦]

فإن له من كل أمة جنودا وأعوانا ورجلا وفرسانا، ولا تكونوا كالمتكبر على ابن أمه من غير ما فضل جعله الله فيه سوى ما ألحقت العصبية بنفسه من عداوة الحسد). - الخطبة القاصعة - رقم النص: ١٩٠ - * * * ثم يضرب لهم الشواهد، ويبصرهم عبر التاريخ. فهذا الواقع الاجتماعي المزري جر أمما قبلهم إلى الانهيار، وجدير بهم أن يعتبروا بمن قبلهم ممن غفلوا عن عدوهم الكامن في أعماقهم، وصرفوا - بإغرائه وإيحائه - عدوانهم إلى إخوانهم في الدين والانسانية: (فاعتبروا بما أصاب الامم المستكبرين من قبلكم من بأس الله وصولاته ووقائعه ومثلاته (١)، واتعضوا بمثاوي خدودهم (٢) ومصارع جنوبهم واستعيذوا بالله من لواقح الكبر (٣)، كما تستعيذوه من طوارق الدهر (٤).

---

(١) المثلات: العقوبات الشديدة. (٢) المثوى: المنزل - مثاوي الخدود: موضع الخد على التراب بعد الموت. كناية عن أن المصير الاخير هو الموت، فلماذا الاحقاد والصراعات. وهذا المعنى هو المراد من الفقرة التاليه (ومصارع جنوبهم). (٣) لواقح: من اللقاح، ومعناه معروف. أي أن الكبر يلقح النفس بالشر فاستعيذوا بالله من ذلك. (٤) طوارق الدهر: مصائبه.

---

[١١٧]

واحذروا ما نزل بالامم قبلكم من المثلات بسوء الافعال، وذميم الاعمال، فتذكروا في الخير والشر أحوالهم، واحذروا أن تكونوا أمثالهم. فإذا تفكرتم في تفاوت حاليهم، فالزموا كل أمر لزمت العزة به شأنهم، وزاحت الاعداء له عنهم، ومدت العافية به عليهم، وانقادت النعمة له معهم، ووصلت الكرامة عليه حبلهم: من الاجتناب للفرقة، واللزوم للالفة، والتحاض عليها والتواصي بها. واجتنبوا كل أمر كسر فقرتهم (١)، وأوهن منتهم (٢): من تضاغن القلوب، وتشاحن الصدور، وتدابر النفوس، وتخاذل الايدي). - الخطبة القاصعة - رقم النص: ١٩٠ - ثم يضرب لهم الامثال بحال بني إسرائيل كيف جمعتهم الدعوة الواحدة، ولم شعثهم الهوى الجميع، فعظم أمرهم، ثم اختلفوا فذهب ريحم ووهنوا وذلوا. وضرب لهم الامثال بحال العرب قبل الاسلام كيف كانوا، ثم كيف اتحدوا بالاسلام فأصبحوا يطاعون في بلاد كانوا فيها أذلة ضعفاء.

---

(١) كسر فقرتهم: كسر ظهورهم، لان الفقار في ظهر الانسان يقوم عليها كيانه فإذا كسرت عجز عن الوقوف والعمل. (٢) أوهن منتهم: أضعف قوتهم.

---

[١١٨]

ثم ذكر أن أعظم ما امتن الله به عليهم هو أنه جمعهم، وألف بين قلوبهم، وجعلهم إخوانا، قال: (فإن الله سبحانه قد امتن على جماعة هذه الامة فيما عقد بينهم من حبل هذه الالفة التي ينتقلون في ظلها، ويأوون إلى كنفها، بنعمة لا يعرف أحد من المخلوقين لها قيمة، لانها أرجح من كل ثمن وأجل من كل خطر). - الخطبة القاصعة - رقم النص: ١٩٠ - * * * ورؤساء القبائل هم أصحاب المصلحة في استشراء العصبية القبلية والتفكك الاجتماعي، فلو وعى الناس الحياة الاجتماعية الصحيحة وراعوا المصلحة العامة وحدها، لما بقيت لهؤلاء الرؤساء قيمة، لان وجودهم منوط بهذه العصبية. وقد عرف الامام عليه السلام ذلك، فوجه إليهم صفعة مدوية حين صرخ بالناس: (ألا فالحذر الحذر من طاعة ساداتكم وكبرائكم الذي تكبروا عن حسبهم، وترفعوا فوق نسبهم وألقوا الهجينة (١) على ربهم، وجاحدوا الله على ما صنع بهم، مكابرة لقضائه ومغالبة لآلائه (٢)،

---

(١) الهجينة: الفعلة القبيحة. (٢) آلاء الله: نعمة وإحسانه.

---

[١١٩]

فإنهم قواعد أساس العصبية، ودعائم أركان الفتنة، وسيوف اعتزاء الجاهلية (١)، فاتقوا الله.. ولا تطيعوا الادعياء (٢) الذين شربتم بصفوكم كدرهم وخلطتم بصحتكم مرضهم، وأدخلتم في حقكم

باطلهم، وهم أساس الفسوق وأحلاس العقوق (٣) اتخذهم إبليس مطايا ظلال وجندا بهم يصول على الناس، وتراجمة ينطق على ألسنتهم، استراقا لعقولكم، ودخولا في عيونكم، ونفثا في أسماعكم فجعلكم مرمى نبله، وموطئ قدمه، ومأخذ يده). - الخطبة القاصعة - رقم النص: ١٩٠ - وعلى هذا النسق العالي من البيان الشامخ يمضي الامام صلوات الله عليه في بيان أمراض المجتمع. ويكشف عن أسبابها النفسية، ويبرهن بذلك على وعي خارق للعمليات الاجتماعية وأسباب انحرافها، وطرق اصلاحها. وننصح بالرجوع إلى الخطبة القاصعة وقراءتها بامعان، فقد لا يعطي ما قدمناه فكرة تامة عن جميع الافكار التي تحتويها.

---

(١) الاعتزاء: الانتساب، إعتزاء الجاهلية: العادات الجاهلية في المفاخرة بالسلالة والنسب. (٢) الدعي هو الذي ينتسب إلى غير أصله. يريد هنا أن رؤساء القبائل أدعياء على أهل الخير وأهل الصلاح، وهم في الحقيقة أشرار. (٣) الحلس كساء يكون على ظهر البعير ملازم له، واستعير للتعبير عن كل ملازم لشئ. فيقال حلس بالمكان: لزمه: وحلس بفلان: لم يفارقه. ويريد الامام هنا أن هؤلاء الزعماء ملازمون للعقوق، عقوق الله وعقوق إمامهم.

(هل الامامة أمر محتم، فلا يجوز أن يمضي على المسلمين وقت دون إمام يسير بهم على كتاب الله وسنة الرسول ؟ أم أنها أمر جائز وليس فرضا، فإذا شاء المسلمون أقاموا إماما، وإذا لم يريدوا فليس في الشريعة ما يلزمهم بذلك، بل الامر في ذلك منوط بهم وموكل إليهم ؟ (اختلفت الفرق الاسلامية بين هذين المبدأين، فذهبت الكثرة العظمى من المسلمين إلى أن الامامة أمر محتم، فهو مذهب أهل السنة جميعا، ومذهب الشيعه جميعا، ومذهب الكثرة الغالبة من المعتزلة والكثرة الغالبة من الخوارج. أما الجواز فقد ذهب إليه (الهشامية) من المعتزلة أصحاب هشام بن عمرو الفوطي، فهم يقولون: (يجوز عقدها في أيام الاتفاق والسلامة أما في أيام الفتنة فلا) وهو كذلك مذهب (المحكمة الاولى من الخوارج) فإنهم أجازوا ألا يكون في العالم إمام أصلا.. وكذلك (النجدات).. و (العجاردة) من الخوارج أيضا) (١). وإذن فالمسلمون جميعا مجمعون على وجوب نصب الحاكم، ومن رأيت خلافه فهو شاذ لا يعتنى به، وتشهد للوجوب النصوص الكثيرة الصريحة فيه. وبعد، فلو لم تكن ثمة نصوص تقضي بوجوبه لكفى العقل في الالزام به،

---

(١) راجع كتابنا: نظام الحكم والادارة في الاسلام ص ٧٠ - ٧١.

فالحكم من ضرورات الاجتماع، لان النشاط الانساني - وقد تشابك بفعل الحياة الاجتماعية - لابد له من هيئة تشرف عليه وتنظمه، وتشق له القنوات، وتوجهه الوجهة الصحيحة المستقيمة، وبدون

هذه الهيئة يتسيب هذا النشاط فيطغى لون منه على لون، ويتجه اتجاهات غير محمودة تؤول به في النهاية إلى الضمور، ومن ثم تنتهي بالمجتمع إلى الانحلال. والحكومة في الاصل مؤسسة اجتماعية، لان طبيعة الاجتماع تقتضيها كما رأينا، ولكنها في الاسلام، تتخذ بالاضافة إلى صفتها الاجتماعية، طابعا دينيا أيضا وذلك لان المجتمع الاسلامي مجتمع ديني في الدرجة الاولى، أي أن الذي يستلهم في التنظيم: الاقتصادي والسياسي والعسكري هو الدين وحده. وها هو الامام عليه السلام يقرر هذه الحقيقة، رادا على الخوارج يوم نادوا (لا حكم إلا الله) قائلا: (كلمة حق يراد بها باطل، نعم إنه لا حكم إلا لله، ولكن هؤلاء يقولون لا إمرة إلا لله، وإنه لابد للناس من أمير بر أو فاجر، يعمل في امرته المؤمن ويستمتع فيها الكافر، ويبلغ الله فيها الاجل ويجمع به الفئ، ويقاتل به العدو، وتأمن به السبل، ويؤخذ به للضعيف من القوي حتى يستريح بر ويستراح من فاجر) (١). فقوله (انه لابد للناس من إمام..) تقرير لهذه الضرورة، التي يفرضها واقع الاجتماع الانساني، ولا معدى عنها بحال من الاحوال، ولئن كانت إمرة

---

(١) نهج البلاغة، رقم النص: ٤٠.

---

[١٢٥]

الامام الفاجر - حين لا يوجد العادل - شرا -، فهي على ما فيها من شر خير من الفوضى التي تمزق أواصر الاجتماع. وغير خفي ان الامام لم يقصد في كلمته الآنفة إلى بيان طبيعة الحكم الاسلامي، وإنما قصد فيها إلى بيان ضرورة الحكم في قبال دعوى الخوارج الفوضويين.

---

[١٢٦]

(١) وإذا كانت الامامة أمرا لازما فهل يصح أن يتولاها كل من قدر على بلوغها دون نظر إلى صفاته الشخصية وكفاءاته أم أن من يصح له أن يلي منصب الامامة يجب أن تتوفر فيه شروط خاصة يمتاز بها عن غيره من الناس ؟ المسلمون على اتفاق فيما بينهم على أن منصب الامامة لا يليه إلا من توفرت فيه شروط مميزة، واختلفوا في أمور أخرى فذهب بعض إلى اشتراطها وذهب آخرون إلى عدمه. ولسنا هنا في مقام استعراض شروط الامام الحاكم عند مختلف الفرق الاسلامية. وقد عالجنا هذا الموضوع علاجا وافيا في كتابنا (نظام الحكم والادارة في الاسلام). فإذا رجعنا إلى نهج البلاغة لم نجد فيه تفصيلا دقيقا لهذه الشروط، فليس فيما بين أيدينا من كلام أمير المؤمنين عليه السلام قسم مستقل تعرض فيه لبيانها وإنما ذكر منها، في عرض كلامه، طائفة وأهمل طائفة. فاشترط في الامام أن يكون كريم النفس لئلا تدفعه الطماعية وشدة الحرص إلى العدوان على أموال المسلمين. واشترط فيه أن يكون عالما لانه قائد المسلمين الاعلى فيجب أن يهديهم ولو كان جاهلا لاضلهم.

---

[١٢٧]

واشترط فيه أن يكون لين العريكة، رحب الصدر. واشترط فيه أن يكون عادلا في إعطاء الاموال فيسوي بين الناس في العطاء ولا يفضل

قوما على حساب آخرين استجابة لشهوات نفسه وميول قلبه. واشترط فيه أن يكون نزيها في القضاء فلا يرتشي لان ذلك مؤذن بذهاب العدل في الاحكام. واشترط فيه أن يكون عاملا بالسنة فيجري الحدود ولو على أقرب الناس إليه، ويعطي الحق من نفسه كما يطلبه من غيره. قال عليه السلام: (. وقد علمتم أنه لا ينبغي أن يكون الوالي على الفروج، والدماء، والمغانم، والاحكام وإمامة المسلمين البخيل، فتكون في أموالهم نهمته (١)، ولا الجاهل فيضلهم بجهله، ولا الجافي فيقطعهم بجفائه، ولا الحائف للدول فيتخذ قوما دون قوم (٢)، ولا المرتشي في الحكم فيذهب بالحقوق ويقف بها دون المقاطع (٣)، ولا المعطل للسنة فيهلك الامة) (٤).

---

(١) النهمة: الافراط في الشهوة. (٢) الحائف للدول - الحائف: الظالم، والحيف: الظلم، والدول: المال لانه يتداول أي ينتقل من يد إلى يد. مراده: الانسان الظالم في تقسيم الاموال فيفضل قوما على قوم بغير موجب للتفضيل. (٣) المقاطع: حدود الله. (٤) نهج البلاغة، رقم النص: ١٢٩.

---

[١٢٨]

وقال عليه السلام: (لا يقيم أمر الله سبحانه إلا من لا يصانع (١) ولا يضارع (٢) ولا يتبع المطامع) (٣). وقال متحدثا عن الامام. (من نصب نفسه للناس إماما فليبدأ بتعليم نفسه قبل تعليم غيره، وليكن تأديبه بسيرته قبل تأديبه بلسانه، ومعلم نفسه ومؤدبها أحق بالاجلال من معلم الناس ومؤدبهم) (٤). وهذه الكلمات تقوم على فلسفة للحكم عند الامام عليه السلام تتلخص في أن الحكم، وهو ضرورة اجتماعية، أقيم لصالح المجتمع، ولا يمكن أن يعمل الحكم لصالح المجتمع إلا إذا كان على رأسه إنسان كامل الصفات، واع لمهمته، أما حين يكون الحاكم إنسانا غير واع للمسؤولية وغير عامل على إصلاح المجتمع ورفع شأنة، فإن الحكم ينقلب إلى وسيلة للظلم، وستتضح لنا الخطوط الكبرى لهذه الفلسفة فيما يأتي.

---

(١) يصانع: يداري، أي أن الذي يقيم أمر الله هو الذي لا يداري أحدا في إحقاق الحق. (٢) يضارع: المضارعة المشابهة، أي لا يتشبه في عمله بالمبطلين. (٣) نهج البلاغة، باب المختار من كلام أمير المؤمنين، رقم النص: ١١٠. (٤) نهج البلاغة، نفس الباب، رقم النص: ٧٣.

---

[١٢٩]

(٢) حقوق الرعية على الحاكم تستمد معناها من طبيعة الحكم الذي يمارسه الحاكم. فهناك حكم يقوم لاجل عائلة من العائلات الكبيرة وحينئذ يعمل الحاكم لاجل هذه العائلة، ويسخر جميع مرافق الدولة لها ولمن يقوم عليه سلطانها. وهناك حكم يقوم لصالح طبقة من الطبقات وحينئذ يعمل الحاكم لاجل هذه الطبقة، ولا ينيل الرعية شيئا إلا إذا كان فيه ما يعود بالخير على هاتيك الطبقة التي يقوم من أجلها الحكم. ومرة يقوم الحكم من أجل الرعية وحدها، وحينئذ يعمل الحاكم للرعية وحدها. وفي هذا اللون من الحكم توجد للرعية على الحاكم حقوق يصح أن نتحدث عنها. فأي لون من ألوان الحكم بشر به نهج البلاغة، ووضع قواعده الامام ؟ إذا رجعنا إلى نهج البلاغة وجدنا ان الحكم الذي كان يمارسه الامام عليه السلام والذي كان يحمل عماله على أن يمارسوه هو هذا الحكم الذي يقوم من أجل الرعية وحدها. دراسات في نهج البلاغة (٩)

[١٣٠]

وقد تقدم منا في حديثنا عن المجتمع والطبقات الاجتماعية في نهج البلاغة أن عرضنا إلى طرف من ذلك، فرأينا كيف أن الامام في عهده العظيم إلى مالك الاشتر قد وضع الاسس المتينة لانشاء جهاز حكم يعمل للشعب وللشعب فقط، غير ملق بالا إلى منافع طبقة خاصة تسعد على حساب الشعب وتنعم بجهوده. وسنعرض في حديثنا هذا طرفا من الشواهد التي تدل على أن الحكم الذي مارسه الامام عليه السلام ودعا إلى ممارسته هو الحكم من أجل الشعب، وما تقدم في بحث الطبقات الاجتماعية، وما سيمر هنا يؤلف هيكلا يكاد أن يكون كاملا لفلسفة الحكم عند الامام عليه السلام. * * * من ضرورات الحكم الصالح المشاركة الوجدانية بين الراعي والرعية، إذ بها يستطيع الحاكم أن يتعرف على آمال المحكومين وآلامهم ومطامحهم، وأن يعي حاجاتهم ومخاوفهم، فيعمل لخيرهم ويضع كل شئ مما يصلحهم موضعه. ويشعرهم ذلك برعايته لهم، وحياطته لامورهم، وعمله لصالحهم، فيدعمون حكمه بحبهم وإيثارهم له، ويؤازرونه في السراء والضراء على السواء. ولا يحصل شئ من هذا إذا ما أغلق الحاكم دونهم قلبه وأغمض عنهم عينه. إنه حينذاك لا يعرف شيئا من أمورهم ليعمل على الاصلاح، وتكون عاقبة ذلك أن يفقد حبه في قلوبهم، ويشعرون بأنه شئ غريب عنهم مفروض عليهم، كالحشرة الطفيلية التي تعيش على دماء الحيوان الذي تلتصق به. قال عليه السلام: (. وأشعر قلبك الرحمة للرعية والمحبة لهم واللطف بهم، ولا تكونن عليهم سبعا ضاريا

[١٣١]

تغتنم أكلهم. فإنهم صنفان: اما أخ لك في الدين أو نظير لك في الخلق، يفرط منهم الزلل (١)، وتعرض لهم العلل ويؤتى على أيديهم في العمد والخطأ، فأعطهم من عفوك وصفحك مثل الذي تحب أن يعطيك الله من عفوه وصفحه). عهد الاشتر ولكي تحصل هذه المشاركة الوجدانية ولكي تؤتي أكلها يجب على الوالي أن يخالط الرعية، وأن يمكنهم من مخالطته ومطالعته بما يريدون، لان احتجابه عنهم سبب لجهله بأحوالهم، وسبب لانصراف قلوبهم عنه وتفاقم موجدتهم عليه. قال عليه السلام: (. فلا تطولن احتجابك عن رعيتك، فإن احتجاب الولاة عن الرعية شعبة من الضيق، وقلة علم بالامور. والاحتجاب منهم يقطع عنهم علم ما احتجبوا دونه فيصغر عندهم الكبير ويعظم الصغير، ويقبح الحسن ويحسن القبيح، ويشاب الحق بالباطل. وإنما الوالي بشر لا يعرف ما توارى عنه الناس به من الامور، وليست على الحق سمات تعرف بها ضروب الصدق من الكذب) (٢). عهد الاشتر

---

(١) يفرط منهم الزلل: يفرط: يسبق، الزلل: الخطأ. (٢) سمات: جمع سمة، وهي العلامة، أي ليس للحق علامات ظاهرة يتميز بها الصدق من الكذب، وإنما يعرف ذلك بالامتحان والتجربة.

[١٣٢]

ولكي يبقى ما بين الوالي ورعيته من وشائج الود، ويبقى ما للوالي في قلوب الرعية من جميل الاثر وحسن الظن، يجب عليه أن يبدد

من أذهانهم كل ما يتوهمون فيه الظلم والحيف، فيبين لهم خطته ويشرح لهم نهجه ليؤيدوا سياسته عن قناعة بها وإيمان بصلاحها وجدواها. ويجب عليه ألا يمن على رعيته بما يفعل، فإن منصبه يفرض عليه أن يخدمهم، ولو من عليهم لذهب جميل أثره من قلوبهم. وعليه أن يتجنب الكذب فيما يعطي من عهد، والتزيد فيما يصف من عمل، فإن الكذب داعية المقت، والتزيد أخو الكذب. قال عليه السلام: (وإن ظنت الرعية بك حيفا (١) فأصحر (٢) لهم بعذرك، واعدل (٣) عنك ظنونهم بإصحارك، فإن في ذلك رياضة (٤) منك لنفسك، ورفقا برعيتك، وإعذارا (٥) تبلغ به حاجتك من تقويمهم على الحق). عهد الاشتر

---

(١) الحيف: الظلم. (٢) أصحر: أظهر، والاصحار: الاظهار. يعني إذا ظنت الرعية أنك كنت ظالما في تصرف من التصرفات فاكشف عذرك لهم، وبين الاسباب الموجبة التي دعتك إلى اتخاذ ذلك الاجراء. (٣) اعدل، هنا، معناها: حول. أي ان إعلانك لتفسير موقفك يجعلهم يحولون ظنونهم واتهاماتهم لك بالظلم، عنك. (٤) رياضة: تعويدا لنفسك على أن تكون عادلا، وصريحا. (٥) الاعذار: هو إعلان العذر والحجة.

وقال عليه السلام: (وإياك والمن على رعيتك بإحسانك، أو التزيد (١) فيما كان من فعلك، أو أن تعدهم فتتبع موعدك بخلفك، فإن المن يبطل الاحسان، والتزيد يذهب بنور الحق، والخلف يوجب المقت (٢) عند الله والناس، قال الله تعالى: (كبر مقتا عند الله أن تقولوا ما لا تفعلون) (٣)). عهد الاشتر والسبيل الاقوم الذي يؤدي إلى تأكيد حب الحكم في نفوس الرعية ويحملها على عضد والدفاع عنه هو ما أشار عليه السلام بقوله: (واعلم أنه ليس شئ بأدعى إلى حسن ظن راع برعيته من إحسانه إليهم، وتخفيفه المؤونات عنهم، وترك استكراهه إياهم على ما ليس له قبلهم (٤)، فليكن منك في ذلك أمر يجتمع لك به حسن الظن ويقطع نصبا (٥) طويلا، وأن أحق من

---

(١) التزيد - كالتقيد إظهار الزيادة في الاعمال، وإظهارها بأكبر من حقيقتها في الواقع، فيكون من المفاخرة بالباطل والكذب. (٢) المقت: البغض. (٣) سورة الصف، الآية: ٣، وقبلها (يا أيها الذين آمنوا لم تقولون ما لا تفعلون). (٤) قبلهم: عندهم. (٥) النصب: التعب.

حسن ظنك به لمن حسن بلاؤك عنده، وإن أحق من ساء ظنك لمن ساء بلاؤك عنده) (١). عهد الاشتر ولم كل هذا ؟ لان الحكم إنما أقيم لصالح الشعب، ولذلك فيجب أن يرعى مصالح الشعب، ويجب أن يستلهم في أعماله حاجات هذا الشعب. أما هذه الطبقة، طبقة الخاصة والنبلاء، التي تحسب أن كل شئ مسخر لها وما عليها إلا أن تدعو فتجاب وتأمر فتطاع، هذه الطبقة ليس لها في حكومة الامام امتيازات، فهي وسائر الناس سواء، وعلى الحاكم، حين تتعدى حدودها وتطلب ما ليس لها، أن يردها إلى قصد السبيل. قال عليه السلام: (أنصف الله وأنصف الناس من نفسك ومن خاصة أهلك ومن لك فيه هوى من رعيتك (٢)، فإنك إلا تفعل تظلم، ومن ظلم عباد الله كان الله خصمه دون عباده، ومن خاصمه الله أدحض حجته (٣) وكان لله حربا حتى ينزع (٤) أو يتوب،

---

(١) البلاء، هنا، الصنع مطلقا، حسنا كان أو سيئا. أي ان من صنعت معه صنيعا حسنا يكون موضعا لحسن ظنك به. ومن صنعت معه صنيعا سيئا يكون موضعا لسوء ظنك به. (٢) من لك فيه هوى: تميل إليه أكثر من غيره من الناس. (٣) أدحض حجته: أبطل حجته. (٤) ينزع: يكف عن ظلمه.

---

[١٣٥]

وليس شئ أدعى إلى تغيير نعمة الله وتعجيل نقمته من إقامة على ظلم (١) فإن الله سميع دعوة المضطهدين، وهو للظالمين بالمرصاد). (وليكن أحب الامور اليك أوسطها في الحق، وأعمها في العدل، وأجمعها لرضا الرعية، فإن سخط العامة يجحف (٢) برضا الخاصة وإن سخط الخاصة يغتفر مع رضا العامة. وليس أحد من الرعية أثقل على الوالي مؤونة في الرخاء وأقل معونة له في البلاء، وأكره للانصاف، وأسأل بالالحاف (٣)، وأقل شكرا عند الاعطاء وأبطأ عذرا عند المنع، وأضعف صبرا عند ملمات الدهر من أهل الخاصة. وإنما عماد الدين وجماع (٤) المسلمين، والعدة للاعداء العامة من الامة، فليكن صغوك (٥) لهم وميلك معهم). عهد الاشتر وهكذا حكم الامام عليه السلام بأن الحكم إنما أقيم من أجل الشعب فيجب أن يبقى خالصا للشعب وللشعب وحده.

---

(١) الاقامة على الظلم: الاصرار عليه، وعدم الرجوع عنه. (٢) يجحف: يذهب. أي أن سخط عامة الشعب لا ينفع معه رضا طبقة المترفين الاريستوقراطية. أما إذا رضيت عامة الشعب وسخط المترفون فلا يضر سخطهم مع رضى عامة الشعب. (٣) الالحاف: الالحاح والشدة في السؤال. (٤) أي جماعة الاسلام. (٥) صغوك: ميلك، فليكن ميلك إلى عامة الشعب لا إلى الخاصة المترفين.

---

[١٣٦]

وإذا كان الحكم قد أقيم من أجل الشعب، فهذه الاموال التي تجبى منه لم تجب لتنفق على إرواء شهوات طائفة من الناس يومها دهرها، وبغيتها لذتها، وهي تتمتع بحياة فارغة لاهية، إنما جبي هذا المال من الشعب ليرد عليه في صورة خدمات عامة، ومؤسسات عامة، هذا هو مصرف أموال الدولة. وأمير المؤمنين عليه السلام صريح في هذا فقد تكرر منه أمره إلى عماله بصيانة مال الامة، وصرفه في موارده وعدم التفريط به. قال عليه السلام: (. فانظر إلى ما اجتمع عندك من مال الله فاصرفه إلى من قبلك (١) من ذوي العيال والمجاعة مصيبا به مواضع الفاقة (٢) والخلات (٣)، وما فضل عن ذلك فاحمله الينا لنقسمه فيمن قبلنا) (٤). * * * راجع في باب الكتب: كتابه إلى أشعث بن قيس عامل أذربيجان / رقم النص ٥ / وكتابه إلى زياد بن أبيه / رقم النص ٢٠ /، ووصيته لمن كان يستعمله على الصدقات / رقم النص ٢٥ / والنص رقم ٢٦ / والنص رقم ٤١ /، وكتابه إلى مصقلة بن هبيرة / رقم النص ٤٣ / وكتابه إلى عثمان بن حنيف عامله على البصرة / رقم النص ٤٥ / وكتابه إلى عماله على الخراج / رقم النص ٥١ / وعهد الاشتر / رقم النص ٥٣ / وكتابه إلى قثم بن العباس عامله على مكة / رقم النص ٦٧ /.

---

(١) قبلك: عندك. (٢) الفاقة: الفقر. (٣) الخلات: الحاجات. (٤) نهج البلاغة، باب الكتب، رقم النص ٦٧.

---

(٣) وإذا كان الامام عليه السلام قد وضع أسس هذا اللون من الحكم وممارسه، ودعا إلى ممارسته، فللحديث عن حقوق الرعية محل في هذا البحث كما أسلفنا. ولم يغفل الامام الحديث عن هذه الحقوق بل عرض لها بالذكر في مواطن كثيرة فما هي حقوق الرعية على الوالي ؟ لقد تحدث مرة عن هذه الحقوق فقال: (ويجمع به الفئ (١)، ويقاتل به العدو، وتأمن به السبل، ويؤخذ به للضعيف من القوي، حتى يستريح بر ويستراح من فاجر) (٢). وقال: (. فأما حقكم علي فالنصيحة لكم، وتوفير فيئكم عليكم، وتعليمكم كيلا تجهلوا، وتأديبكم كيما تعلموا) (٣).

---

(١) الفئ: الخراج وما يحويه بيت المال. (٢) نهج البلاغة: رقم النص: ٤٠ (٣) نهج البلاغة: رقم النص: ٣٤

وقال: (.. انه ليس على الامام إلا ما حمل من أمر ربه الا بلاغ في الموعظة، والاجتهاد في النصيحة، والاحياء للسنة، واقامة الحدود على مستحقيها، واصدار السهمان (١) على أهلها) (٢). وفي هذه النصوص أجمل الامام حقوق الرعية على الراعي في توفير الامن في الداخل والخارج، وتأمين الحياة الاقتصادية، والتعليم والتوجيه الاجتماعي، واقامة العدل. ولا يضرنا اجمال هذه النصوص بعد أن عرفنا أن أطول وثيقة كتبها عليه السلام وأجمعها لحقوق الرعية هي عهده إلى الاشتر، ففي صدر هذا العهد أجمل هذه الحقوق اجمالا ثم فصلها بعد ذلك تفصيلا. أجملها فقال: (هذا ما أمر به عبد الله علي أمير المؤمنين مالك بن الحارث الاشتر في عهده إليه حين ولاه مصر: جباية خراجها، وجهاد عدوها، واستصلاح أهلها، وعمارة بلادها). عهد الاشتر ثم فصلها بعد ذلك. فأفاض أولا في بيان وظيفة العسكريين وواجباتهم والسبيل الذي يحسن بالحاكم أن يتبعه للاستفادة منهم.

---

(١) إصدار السهمان: السهمان - بالضم - جمع سهم، بمعنى الحظ والنصيب. وإصدار السهمان: إعادتها إلى أهلها المستحقين لها بدون انقاص شئ منها. (٢) نهج البلاغة، رقم النص: ١٠٣.

ثم فصل الكلام في جهاز الحكم: الولاة والوزراء والقضاة، فوضع أسس الحكم العادل التقدمي الواعي. وتكلم بعد ذلك على الزراع والتجار والصناع والفقراء، فبين حقوقهم على الحاكم من توفير المجالات لهم، وإعداد أحسن الفرص لنجاحهم في أعمالهم. ثم تحدث عن حالة البلاد العمرانية فأفاض في الحديث وبين خطورة هذه الناحية في أمن الرعية ورفاهها واطراد تقدمها. في هذا العهد نظر الامام عليه السلام إلى المجتمع كله بما فيه من طوائف وطبقات، وبين فيه حقوق هذا المجتمع كلها، ولا نرى ما يدعونا إلى تفصيل الكلام في ذلك هنا بعد أن تبين من خلال حديثنا عن الطبقات الاجتماعية، لانه حينما تحدث عن الطبقات لم يتناولها على نحو تجريدي، وإنما تناولها بالحديث باعتبار ما لها من حقوق، وقد قدمنا ملاحظة بين يدي ذلك الحديث قلنا فيها: (.. لم يفرغ آراءه الاجتماعية كلها في

قالب علمي مجرد، وإنما قدم بعضها مفرغا في التجربة العملية التي قام بها، ولا يسلبها قيمتها، كحقيقة موضوعية، أنها مفرغة في قالب تجريبي اجتماعي يسبغ عليها بدل جمود الحقيقة العلمية المجردة، حيوية وحركية تنشأن من حيوية الجماعات وحركتيها).

---

[١٤٠]

(٤) تحدث الامام عليه السلام عن طبيعة الحق فلاحظ أنه لا يمكن أن يكون لاحد حق على غيره إلا ويكون عليه لغيره واجب، وهناك تقابل دائم بين الحق والواجب فحيثما يكون الحق يتبعه الواجب. ولكن الناس - غالبا - يريدون استيفاء حقوقهم دون أن يؤدوا ما عليهم من واجبات غير عالمين انه حينما يتمرد الانسان على واجبه فلا يأتي به يسقط حقه الذي يدعيه. قال عليه السلام: (.. فالحق أوسع الاشياء في التواصف (١)، وأضيقها في التناصف، لا يجري لاحد إلا جرى عليه ولا يجري عليه إلا جرى له، ولو كان لاحد أن يجري له ولا يجري عليه لكان ذلك خالصا لله سبحانه دون خلقه لقدرته على عباده،

---

(١) يتسع القول في وصف الحق، حتى إذا حان وقت العمل والتنفيذ على الانسان الذي يصف الحق يفر من أداء الحق ولم ينصف.

---

[١٤١]

ولعدله في كل ما جرت عليه صروف قضائه، ولكنه جعل حقه على العباد أن يطيعوه، وجعل جزاءهم عليه مضاعفة الثواب تفضلا منه وتوسعا بما هو من المزيد أهله) (١). وقال عليه السلام: (. ثم جعل سبحانه من حقوقه حقوقا لبعض الناس على بعض، فجعلها تتكافأ (٢) في وجوهها ويوجب افتراضها بعضها بعضا، ولا يستوجب بعضها إلا ببعض) (٣). وننبه هنا إلى أن هذه الحقوق، حقوق الامام، ليست امتيازات على سائر الناس يحصل عليها الامام بسبب الحكم، وذلك لان الحكم، عند الامام، لا يسبب للحاكم أي امتياز شخصي أبدا. وها هو يخاطب الاشتر، عامله على مصر، بقوله: (إياك والاستئثار (٤) بما الناس فيه أسوة (٥)، والتغابي عما تعنى به مما قد وضح للعيون، فإنه مأخوذ منك لغيرك، وعما قليل تنكشف عنك أغطية الامور، وينتصف منك للمظلوم). عهد الاشتر

---

(١) نهج البلاغة، رقم النص: ٢١٤. (٢) تتكافأ: تتساوى. (٣) نهج البلاغة، نفس النص السابق. (٤) الاستئثار: تخصيص النفس بزيادة في الحصة عن الآخرين. (٥) أسوة: متساوون. والتغابي: التغافل.

---

[١٤٢]

وقال عليه السلام مخاطبا أصحابه في صفين (١): (. وإن من أسخف (٢) حالات الولاة عند صالح الناس أن يظن بهم حب الفخر، ويوضع أمرهم على الكبر، وقد كرهت أن يكون جال في ظنكم اني أحب الاطراء واستماع الثناء، ولست - بحمد الله - كذلك ولو كنت أحب أن يقال ذلك، لتركته انحطاطا لله سبحانه عن تناول ما هو أحق به من العظمة والكبرياء وربما استحلى الناس الثناء بعد البلاء (٣) فلا تثنوا

علي بجميل بلاء لاخراجي نفسي إلى الله واليكم من التقية (٤) في حقوق لم أفرغ بعد من أدائها، وفرائض لابد من إمضائها، فلا تكلموني بما تكلم به الجبابرة ولا تتحفظوا في بما يتحفظ به عند أهل البادرة (٥)، ولا تخالطوني بالمصانعة) (٦) - (٧). عهد الاشتر.

---

(١) صفين كسجين - موقع عده الجغرافيون من بلاد الجزيرة (ما بين الفرات ودجلة) والمؤرخون العرب عدوه من أرض سوريا. وهو اليوم في محافظة حلب. (٢) وان من أسخف..: أصل السخف رقة العقل وغيره، والمراد: ان أدنى حالات الولاة أن يظن بهم الصالحون أنهم يحبون الفخو، ويبنون أمورهم على أساس الكبر. (٣) البلاء: إجهاد النفس في اتقان العمل واحسانه. (٤) التقية: الخوف، والمراد هنا بها العقاب، ومعنى الجملة: أي لا أستحق الثناء لاني قمت باداء حقوق واجبة علي خوفا من عقاب الله إذا تركت أداءها. (٥) أهل البادرة: سريعو الغضب. ينهاهم أن يكلموه بألقاب العظمة التي اعتاد الناس أن يخاطبوا بها الجبارين، وينهاهم عن أن يقابلوه بالتحفظ والرهبة خشية غضبه. (٦) ولا تخالطوني بالمصانعة: يعني لا تصانعوني فتتظاهرون بطاعتي دون أن تكونوا راغبين في ذلك. (٧) نهج البلاغة: رقم النص: ٢١٤.

وإذا لم تكن حقوق الحاكم من هذا الباب فما هي طبيعتها إذن ؟ حقوق الحاكم كما يجملها الامام في نهج البلاغة هي أمور يعطاها لانها ضرورية لاستمرار الحكم وصلاحه فهذه الحقوق هي: (. وأما حقي عليكم: فالوفاء بالبيعة، والنصيحة في المشهد والمغيب، والاجابة حين أدعوكم، والطاعة حين آمركم) (١). وهي: (. ولي عليكم حق الطاعة وألا تنكصوا عن دعوة (٢)، ولا تفرطوا في صلاح، وأن تخوضوا الغمرات (٣) إلى الحق) (٤). وهي: (. فلا تكفوا عن مقالة بحق أو مشورة بعدل) (٥). وتكاد ترجع كل هذه الحقوق إلى الوفاء بالبيعة، فإن الامام يبايع على السمع والطاعة. وإذا لم يسمع المحكومون حين يدعوهم ولم يطيعوا حين يأمرهم، ولم ينصحوا له ولم يثبتوا على ولائه لم يستطع الامام أن يسير أداة الحكم على نحو صالح.

---

(١) نهج البلاغة، رقم النص: ٣٤. (٢) نكص: تأخر ورجع: يعني لا تتأخروا عن إجابتي إذا دعوتكم. (٣) الغمرات: الشدائد. (٤) نهج البلاغة، باب الكتب، رقم النص: ٥٠. (٥) نهج البلاغة، رقم النص: ٢١٤.

---

(٥) ولا يمكن أن يصلح شئ من أمور الدولة إلا إذا وجد جو صالح للعمل، ويوجد هذا الجو بتحقق الرغبة المشتركة بين الحاكم والمحكومين في إصلاح ما يفتقر إلى الاصلاح وتقويم ما يحتاج إلى التقويم من شؤون الناس وشؤون البلاد. والذي يعبر عن هذه الرغبة المشتركة هو تعاون الوالي مع الرعية على القيام بذلك كله، ويتحقق التعاون بينهما بأن يقوم كل منهما بما عليه من واجبات بعد أن يتلقى كل منهما ما له من حقوق. فعلى الرعية أن تعطي الوالي ما له عليها من حقوق، فتطيعه إذا أمر، وتجيبه إذا دعا، وتتصحه إذا كان في حاجة إلى ذلك. وعلى الوالي إذا حصل على ذلك كله أن يستغله في إصلاح شؤون رعيته. أما حين لا تبذل الرعية للوالي طاعتها ولا تمحضه نصيحتها، ولا تلبي دعوته إذا دعا، وأما حين تفعل ذلك كله ولكن الوالي يستغله في رعاية مصالح نفسه، ويهمل مصالح رعيته فإن ذلك مؤذن بشيوع الظلم، وسيطرة الظلمة، وفساد الدولة.

[١٤٥]

قال عليه السلام: (. وأعظم ما افترض سبحانه من تلك الحقوق حق الوالي على الرعية وحق الرعية على الوالي، فريضة فرضها الله سبحانه لكل على كل، فجعلها نظاما لالفتهم، وعزا لدينهم، فليست تصلح الرعية إلا بصلاح الولاة، ولا تصلح الولاة إلا باستقامة الرعية، فإذا أدت الرعية إلى الوالي حقه وأدى الوالي إليها حقها عز الحق بينهم، وقامت مناهج الدين واعتدلت معالم العدل، وجرت على أذلالها السنن (١)، فصلح - بذلك - الزمان، وطمع في بقاء الدولة، ويئست مطامع الاعداء. وإذا غلبت الرعية واليها أو أجحف الوالي برعيته (٢)، اختلفت هنالك الكلمة، وظهرت معالم الجور وكثر الادغال في الدين (٣) وتركت محاج السنن (٤)، فعمل بالهوى وعطلت الاحكام، وكثرت علل النفوس، فلا يستوحش لعظيم حق عطل (٥) ولعظيم باطل فعل، فهناك

---

(١) ذل الطريق - بكسر الذال - وسطه. والسنن: جمع سنة، هي أوامر الله ونواهيه، وهي طريق المؤمن في حياته، معنى الجملة: إن أحكام الله حينئذ تطبق بدقة واحكام. (٢) أجحف الوالي، الاجحاف: الظلم، يعني ظلم الوالي رعيته. (٣) الادغال في الشئ: ادخال ما يفسده فيه، والادغال في الدين: إفساده. (٤) محاج السنن: جمع محجة، وجمع سنة: تركت طرق الله وأحكامه الواضحة وانحرف الناس عنها. (٥) لا يستوحش الناس ولا يستغربون من تعطيل الحق لتعودهم على تعطيل الحقوق وأفعال الباطل. دراسات في نهج البلاغة

---

[١٤٦]

تذل الابرار وتعز الاشرار وتعظم تبعات الله عند العباد، فعليكم بالتناصح في ذلك وحسن التعاون عليه) (١). وقال في التعاون بين الراعي والرعية: (. ولكن من واجب حقوق الله على العباد: النصيحة بمبلغ جهدهم، والتعاون على إقامة الحق بينهم، وليس امرؤ - وان عظمت في الحق منزلته وتقدمت في الدين فضيلته - بفوق أن يعان (٢) على ما حمله الله من حقه. ولا امرؤ - وان صغرته النفوس واقتحمته العيون (٣) - بدون أن يعين على ذلك أو يعان عليه) (٤).

---

(١) نهج البلاغة، رقم الخطبة: ٢١٤. (٢) أي بأعلى من أن يحتاج إلى المساعدة والاعانة. (٣) اقتحمته العيون: احتقرته (بدون أن يعين) أي بأعجز من أن يساعد غيره. (٤) نهج البلاغة، رقم الخطبة: ٢١٤.

---

[١٤٧]

المغيبات

---

[١٤٩]

في ناس هذا العصر من إذا وقعت أبصارهم على هذا العنوان طاف على ثغورهم شبح ابتسامة، ولاح في أعينهم بريق الهزء، واتسمت معالم وجوههم بامارات الاستنكار. ولم كل هذا. ؟ لاننا في هذا العصر الآلي لا نستطيع - إذا أردنا أن نحترم أنفسنا وعقولنا - أن

نؤمن بوجود إنسان يعلم الغيب، إنسان تنقشع من أمام عينيه حجب القرون وتنطوي المسافات فيقرأ المستقبل البعيد أو الخاطر المحجوب كما يقرأ في كتاب مفتوح، ويعي حوادثه كأنها بنت الساعة التي هو فيها. وكل إنسان يقول هذا فلابد أن يكون واحدا من إثنين: اما مجنونا، وإما جاهلا بما قدر للعقل الانساني أن يعيه من نظام الكون. وقد لا يقولون هذا بألسنتهم ولكنهم يقولونه بوجوههم وأيديهم.

---

[١٥٠]

(١) في ناس هذا العصر من يقول هذا. وطبيعة الثقافة المنحرفة التي يلقاها إنسان هذا العصر في كل مكان هي التي تدفع بهؤلاء إلى أن يقفوا هذا الموقف ويتجهوا هذا المتجه في إنكار كل دعوى تذهب إلى أن في الانسان شيئا آخر وراء غدده وخلاياه. الثقافة الحديثة هي التي تفرض على الانسان مثل هذا الموقف فهذه الثقافة تعتبر الانسان - آلة - آلة دقيقة الصنع فقط، وهي تخضع في عملياتها لقانون الآلة وحده، فلا شئ وراء الغدد والاعصاب يمكن أن يعتبر موجها للنشاط الانساني وباعثا له. هذه النظرية، نظرية الانسان الآلة، وجدت أول تعبير لها على لسان ديكارت في فلسفته حينما اعتبر الانسان آلة، وأنشأ ثنائية النفس والجسد، ثم وجدت تعبيرا أشد صراحة على لسان توماس هوبس في فلسفته الميكانيكية، والذي جرد الكائن الانساني من كل قوة غير مدركة. وبينما كان ديكارت يعترف بنشاط داخلي سماه (الافكار الباطنية) نرى هوبس قد تنكر لهذا وأرجع مضمون الفكرة إلى الخبرة الحسية وحدها.

---

[١٥١]

وبين القرنين - الثامن عشر والتاسع عشر - ساهمت علوم أخرى غير الفلسفة في تأكيد هذه النظرية. ومهما تكن حظوظ هذه العلوم من قوة التأثير وضعفها في صياغة هذه النظرية وإقرارها فلا مراء في أن علم النفس المعاصر من أعظم العلوم أثرا في تأكيدها. فقد بدأ علم النفس عهده التجريبي في أواخر القرن التاسع عشر (١٨٧٩) على يد فلهلهم فونت الذي أسس سيكولوجيا الاستبطان، والذي حاولت مدرسته إحلال كلمة (شعور) المرادفة للحس في العمليات النفسية محل كلمة (روح) التي هي إرث ديني وغير مدرك. وبعدها تتابعت المدارس النفسية: السلوكية، التحليل النفسي، علم النفس التحليلي، علم النفس الفردي، الجشطلت، القصد. وكلها تتنكر للروح، ولاي قوة غيبية أخرى، وترد السلوك الانساني إلى إفرازات الغدد، وعمليات الجهازين الحشوي والعصبي، واللاوعي، والغرائز. وقد بلغ التعصب لهذه العلوم ذروته في القرن التاسع عشر، ففيه استحوذ الغرور على العلماء المحدثين، وظنوا أنهم قد تمكنوا من اكتشاف جميع القوانين الميكانيكية التي تسير الكون، وذهبوا إلى أن كل دعوى يراد منها اثبات أن ثمة قوى غير مدركة تهيمن علينا، وتتحكم فينا هي دعوى خرافة ذهب زمنها - خرافة صنعها الانسان يوم كان أفق تفكيره غائما وضبابيا إلى حد يثير الاشفاق. ولعل من الخير لنا أن نتبين الاساس الذي يقوم عليه إنكار الروح في الثقافة الحديثة. * * * الميزة الكبرى للحضارة الحديثة التي هي معطى للثقافة الحديثة أنها حضارة

---

[١٥٢]

التجريب، فكل شئ يجب أن يخضع للتجربة المعملية ليصح أن يؤمن به، فإذا لم يخضع للتجربة لم يصح أن يؤمن به كما لو خضع لها وكشفت زيفه. وقد عاد هذا الاتجاه التجريبي على الحضارة بما لا يتصور مدى خصبه من النتائج، ولكن الخطأ وقع حين داخلت العلم العزة بنفسه فادعى أن بوسعه أن يدخل الانسان إلى المعمل ويجعله موضوعا للتجريب. وليس الانسان موضوع التجريب هنا هو هذه الكتلة من اللحم والعظم المشدودة إلى بعضها بجهاز من العصب، وإنما هو النفس الانسانية. فقد ادعى العلم الحديث أن بإمكانه أن يفحص صحة الدعوى الكبرى القائلة بوجود الروح والنفس ليثبت صحتها أو بطلانها عن طريق التجربة المعملية. وقد اضطلع بهذه المهمة علمان تجريبيان، هما الفيزيولوجيا والسيكولوجيا، هذان العلمان أدخلا الانسان إلى المعمل ليريا أحق ما يقال من أن وراء هذه التشكيلة الدقيقة من الغدد والخلايا والاجهزة العصبية والحشوية شيئا يسمى نفسا وروحا، أو ان هذه خرافة من جملة الخرافات ؟ ولقد كانت النتيجة بطبيعة الحال - وهذا شئ كان من الممكن أن نجزم به سلفا - هي أن لا روح ولا نفس ولا شئ وراء جسم الانسان. وأذيعت هذه النتائج على أنها (حقائق) أثبتها العلم التجريبي وآمن بها الناس، لان العلم التجريبي والتطبيقي، الذي أخضع الامراض لسلطانه، وكشف عللها ووضع أدويتها، والذي لا يزال يفجؤنا كل يوم بجديد لا يمكن أن يستعصي عليه هذا الموضوع. وعلى هذا النحو المسرحي حلت المشكلة - أعقد وأعضل مشكلة واجهت العقل الانساني منذ القدم - واعتبر أمر الروح الانسانية قد انقضى.

---

[١٥٣]

وهنا نقول كلمتنا في المسألة. نحن نؤمن بالعلم قوة في يد الانسان وسبيلا إلى إنماء الحياة الانسانية وإغنائها. ونحن نؤمن بالتجربة منهجا للبحث أفضل من جميع المناهج الاخرى. ولكننا نؤمن بالعلم إلى حد محدود، ونؤمن بالتجربة منهجا للبحث فيما هو قابل للتجربة. إن الميدان الاصيل للعلم التجريبي هو الموضوع القابل لان يقع تحت أدوات التجريب: يد الانسان وعينه وحاسة الشم فيه وموازين الحرارة والضغط والمشارط وأنابيب الاختبار وما إليها. فكل موضوع خارجي يصلح أن يقع تحت أداة التجريب يصلح أن يكون ميدانا للعلم الذي يستخدم هذه الاداة، ويمكن أن يتوصل فيه بواسطتها إلى نتائج معتمدة نسبيا. ونتسأل: هل الروح من هذا القبيل ؟ وهل يمكن أن تقع موضوعا صالحا لاداة التجربة المعملية ؟ اللهم لا. فالباحثون عنها لا يجرؤن على القول بأنها شئ ذو كيان يمكن أن يصل إليه الحس أو ما يصطنعه الانسان من أدوات. ونتسأل كرة أخرى: إذا كانت الروح شيئا لا يمكن أن يقع موضوعا لاداة التجربة فكيف يصح أن تتخذ هذه الاداة سبيلا إلى البت في أمرها ؟ نعم، إن (أساطين) السيكولوجيا - وخاصة السلوكيون - والفيزيولوجيا يقولون لنا إن باستطاعتهم أن (يختبروا) وجود الروح عن طريق مراقبة

---

[١٥٤]

الانفعالات التي تطرأ على مختلف أجهزة الانسان بفعل السوائل الكيماوية المختلفة. ونتسأل ثالثة: هل عواطف الانسان ومطامحه وأفكاره تتجمع كلها في بضعة من عصب، تنفعل بالسوائل الكيمائية التي تراق عليها لنحكم بأن لا روح ولا شئ سوى هذه البضعة الخاضعة للفعل الكيماوي ؟ وهل يمكن أن يعتمد على نتيجة هذه مقدماتها في تقرير موقفنا من الحياة والكون، وفي تحديد مصيرنا الذي نريد ؟ إن العلم التجريبي نفسه يأبى علينا الاخذ بنتيجة هذه

مقدماتها، فنتيجة كهذه لا يمكن أن تسمى نتيجة علمية بحال. وإذن، فلا دليل يمكن أن ينهض على أن الروح الانسانية لا واقع لها، وأكثر من دليل يدل على أن الروح الانسانية، أعظم واقعية من بعض الاشياء التي نحسبها واقعية. ما هو الواقعي ؟ أهو الشئ الذي تدركه حواسنا ؟ لا، لقد أصبح هذا التفسير الساذج (للواقعي) شيئا بعيدا عن المفهوم العلمي الحديث، ولو شئنا أن نفسر الواقعي بهذا التفسير لوجب علينا أن نكفر بأشيع الحقائق في حياتنا الحاضرة وأعني بها الكهرباء. (فالكهرباء - كما يقول يعقوب فام في البراجماتزم - لا صورة ذهنية لها عندنا ولا شكل نستطيع أن نراه بعين العقل أو نتخيله، ومع ذلك فمدلوله له وجود ذاتي مستقل في هذا النظام الموضوعي للكون. وبعبارة أخرى: الكهرباء

---

[١٥٥]

موجود حقيقي وان كان الذهن لا يستطيع أن يتخيلها لاننا نشاهد آثارها وعملها في الحياة اليومية). واذن، فليس الواقع هو ما نحسه، وإنما الواقع هو ما يعمل على صياغة حياتنا بآثاره وإن لم يبلغ علمنا مدى كنهه. وإذا كان هذا هو الواقع فما الذي يمنع أن تكون الروح حقيقة من الحقائق الجمة التي تصنع حياتنا بآثارها ؟ إن جهلنا بحقيقتها لا يبرر نكران وجودها. وقد عرفت ان الذين ينكرونها يبنون نكراهم على ما لا يصلح أن يكون أساسا للموقف العقلي الذي التزموه تجاه الروح فالاداة التي اصطنعوها لمعرفة الروح قاصرة عن أن تنيلهم ما أرادوا. لقد حدس القدماء فلم يهدهم حدسهم إلى شئ، ولقد جرب المحدثون فلم تهدهم تجربتهم إلى شئ، ويقف الانسان مكتوف اليدين أمام غياهب الاسرار، ويردد حكم القرآن في اعتراف بالعجز: (ويسئلونك عن الروح، قل الروح من أمر ربي، وما أوتيتم من العلم إلا قليلا) (١). ونخلص من هذا كله إلى القول بأن منكري (المغيبات) ليسوا سوى طائفة من الناس تنظر إلى الانسان من أحد جوانبه وتبني أحكامها على ما ترى غير حاسبة أن ثمة غير هذا الجانب، وأن حكمها على الانسان قبل الاحاطة به من أقطاره - في الحدود التي تبلغها المعرفة - ضرب من الخبط العشوائي الذي لا يليق بمن يدعي العلم ويستهديه فيما يفعل أو يقول، وهؤلاء أشبه بمن يحكم بأن لون الهرم أحمر لمجرد أنه رأى ضلعا واحدا من أضلاعه بهذا اللون قبل أن يرى بقية الاضلاع.

---

(١) سورة الاسراء: آية ٨٦.

---

[١٥٦]

وحيث قد عرفنا أن في الانسان قوى وراء جهازه العصبي والحشوي ووراء غدده وخلاياه لا ندركها بما لدينا من وسائل المعرفة، فلا مبرر لانكار (إمكان) أن يكون لدى إنسان من الناس، بسبب ما يتمتع به من سمو روحي ونقاء داخلي - وهذه صفات قابلة للتفاوت - قدرة على معرفة ما يخبئه الغد وتضطم عليه أحشاء المستقبل. وإذا كان (يمكن) أن يوجد إنسان كهذا فلنقم بنقلة تثبت أن إنسانا كهذا (موجود بالفعل).

---

[١٥٧]

(٢) منذ القدم لاحظ الناس في بعض الافراد شيئا خارقا للعادة، وكان ذلك الشئ هو الاطلاع على حادث وقع في مكان يبعد عن مكان الرائي بمئات الاميال، أو قراءة أفكار الآخرين الخفية، أو التنبؤ بما سيقع لبعض الناس في الغد القريب أو البعيد. وقد اعتبر القدماء هذه الظواهر شيئا صادقا ولكن لا سبيل إلى تعليله، وانتهت المسألة عند هذا الحد. وغبرت القرون والناس يؤمنون بهذا حتى نجمت طلائع الثقافة الحديثة، فجرفت فيما جرفته من مخلفات القرون هذه الفكرة، استنادا إلى أن الروح لا واقع لها، فلا شئ من هذا يمكن أن يكون موضع إيمان وإذعان. ولكن ظاهرة كهذه لا يمكن أن تذهب وتنسى بمثل هذه السهولة، فليس أمرا عاديا أن يتمتع إنسان من الناس بقوى خارقة تتجاوز كل قانون علمي معروف. وهكذا عادت هذه الظاهرة ففرضت نفسها على العلماء من جديد، وغدت موضوعا للبحث العلمي عند علماء مشهورين مشهود لهم بدقة النظر، أمثال:

---

[١٥٨]

سير اوليفر لودج، ووليم كروكس، وألفرد رسل ولاس، وهؤلاء الثلاثة من أعضاء الجمعية العلمية الملكية. ووليم جيمس، وشارل ريشيه، وهنري سدجوك، وهانز دريش، وهنري برجسون، والدكتور ميرس، ورتشارد هودسون، وتشارلس اليوت نورثون أستاذ بجامعة هارفارد، ووليم ر. ليوبولد أستاذ علم النفس والفلسفة في جامعة بنسلفانيا، والفلكي الفرنسي المشهور كاميل فلامريون، وتوماس هكسلي.. وغيرهم، وهذا العدد في تعاظم يوما بعد يوم. وكانت أول خطوة جدية في سبيل التثبت من صدق هذه الظاهرة هي تأليف جمعية المباحث النفسية في بريطانيا سنة ١٨٨٢، وقد اشترك فيها عدد جم من العلماء والفلاسفة، فأصدرت مجلة تنطق بلسانها. وكان أول رئيس انتخب لها هو البروفيسور هنري سدجوك. وقد انتهجت هذه الجمعية في بحثها طريقة جمع الوثائق وفحصها، فإذا سمع الباحثون بشخص ما يمتلك موهبة خارقة أرسلوا إليه ملاحظين معتمدين يقومون بدراسة ما يقوم به ذلك الشخص ويضعونه تحت المراقبة الدقيقة، ثم يقدمون عنه تقريرا بما شاهدوه. وقد كان لنجاح هذه الجمعية صداه في أنحاء العالم، فأسست لها فروع في أقطار أخرى كفرنسا وأمريكا وهولندا والدانمارك والنرويج وغيرها. وقد اكتشف الباحثون الذين اشتملت عليهم هذه الجمعيات وغيرهم أن في الانسان ملكات نفسية خارقة أهمها ثلاث: تناقل الافكار، ورؤية الاشياء من وراء حاجز أو عن بعد، والتنبؤ. وقد تعزى إصابة الانسان في التنبؤ إلى الصدفة، ولكن جمعيات المباحث النفسية أثبتت كذب هذه الدعوى بصورة قاطعة، فقد أثبت السير أو ليفر لودج عضو جمعية المباحث النفسية البريطانية والعالم الطبيعي المشهور، أن قدرة الانسان على التنبؤ أعلى جدا من مستوى الصدفة حسب قانون الاحتمالات.

---

[١٥٩]

وعلى أثر اطلاع البروفيسور راين على حلم عجيب ذي تفاصيل عجيبة دقيقة تحقق في الخارج بحذافيره، أسس في سنة ١٩٣٠ فرعا في جامعة ديوك في ولاية كارولينا الشمالية في أمريكا لدراسة القوى النفسية دراسة مختبرية. وقد أيده وساعده في عمله وليم مكدوجل الباحث النفساني المشهور. وقد اتخذ راين في بحثه طريقا غير طريق جمعيات المباحث النفسية، فبينما كانت تلك الجمعيات تهتم بذوي المواهب الخارقة وحدهم اهتم هو بفحص الفرد العادي لمعرفة مقدار ما لديه من قوى خارقة. وقد أثبتت التجارب المتعددة التي أجراها راين وغيره، أن الانسان يملك في الغالب قدرة على

الحدس بمعدل يفوق معدل الصدفة قليلا أو كثيرا. وذلك هو ما أثبته اختبار جامعة (كولورادو) الذي أجري على ثلاثمئة شخص. وقد أثارت تجارب راين ضجة كبرى في الاوساط العلمية، حتى لقد حاول بعض الباحثين أن يجري تجاربه سرا مخافة أن ينفضح أمره بين زملائه فيكون موضع السخرية منهم. ويروي راين أن أحد الباحثين في أمريكا توصل في تجاربه إلى نتائج هامة، ولكنه امتنع عن نشرها وقال: إن عائلتي تريد طعاما. أي أنه يخشى نشر أبحاثه فتعزله الجامعة التي يعمل فيها وتبقى عائلته بغير طعام. وقد كان من آثار هذه الضجة أن اجتمع مؤتمر الاحصاء الرياضي في أمريكا وناقش الناحية الاحصائية من أبحاث راين، ثم أذاع البلاغ التالي: (إن أبحاث راين لها ناحيتان: تجريبية وإحصائية. والرياضيون لا يستطيعون أن يقولوا شيئا عن الجانب التجريبي منها. أما الناحية الاحصائية، فقد أظهرت

الابحاث الرياضية الحديثة أن التحليل الاحصائي فيها صحيح. وإذا كان من الممكن أن تهاجم أبحاث راين فإنها ينبغي أن تهاجم من ناحية اخرى غير الناحية الرياضية). ويظهر أن الرأي العلمي أخذ يتجه حديثا إلى الاعتراف بحقيقة هذه القوى الخارقة، وقد أدلى البروفيسور ثولس أستاذ علم النفس بجامعة كمبردج ببيان في هذا الصدد قال فيه: (إن هذه الظاهرة يجب أن تعتبر حقيقة ثابتة كأية حقيقة أخرى توصل إليها البحث العلمي، فلنترك إذن أمر البرهنة على وجودها في سبيل إقناع المرتابين، ولنتوجه عوض ذلك نحو الاستمرار على دراستها بقدر الامكان، فإننا باطلاعنا على طبيعتها اطلاعا أوفى نجد الصعوبات التي تكتنف التصديق بوجودها قد قلت إلى حد بعيد) (١).

---

(١) هذا البحث مقتبس من الدكتور علي الوردي: خوارق اللاشعور، ص ١٦٥ - ١٧٦. ولاجل التوسع في الموضوع يحسن بالراغب مراجعة: على أطلال المذهب المادي بأجزائه الاربعة للباحث محمد فريد وجدي، فقد أفاض إفاضة طيبة في الناحية الوصفية للمسألة.

---

(٣) وإذ قد اعتبرت هذه الظاهرة شيئا واقعا لا سبيل إلى نكرانه فقد اتجه العلماء إلى تبين القانون العلمي الذي يمكن إدراجها فيه، وإلى معرفة ماهية هذه القوى ومصادرها في الانسان. وقد وضعت لاجل هذا فرضيات كثيرة تعتمد كل واحدة منها وجهة نظر معينة في المسائل الطبيعية، ولكن لفرضية سينل من بين هذه الفرضيات مؤيدين كثيرين، ويبدو أن عددا كبيرا من العلماء الطبيعيين يميلون إليها، وذلك لما فيها من بساطة وملاءمة للنظريات الفيزيائية الحديثة. فالرأي السائد بين الفيزيائيين يتجه إلى اعتبار الكون كله مؤلفا من أمواج كهربائية، وما المادة إلا أمواج كهربائية قد كورت في حيز ضيق. وعلى هذا الاساس يبني سينل فرضيته، فهو يرى ان كل مادة في الكون تبعث ذبذبات وأمواجا أثيرية خاصة لا تدركها الحواس الخمس (وهذه حقيقة قررها البروفيسور دنكان أستاذ العلوم الطبيعية في جامعة نيويورك سابقا). ويؤيد فرضية سينل هذه أن الابحاث الحديثة اكتشفت أنواعا معينة من الامواج الكهربائية تنطلق من دماغ كل إنسان. ويذهب الدكتور دايفس إلى القول بأن كل فرد يطلق من رأسه أمواجا دماغية خاصة به دون غيره. دراسات في نهج البلاغة (١١)

[١٦٢]

وإذن، فسبب هذا الاحساس الخارق هو أن منطقة معينة من جسم الانسان تتلقى أمواجا كهربائية يتأثر بها الانسان من حيث لا يشعر. وقد اعترض على هذا التفسير، أولا: بأن الامواج الكهربائية تضعف ببعد المسافة، وقد اكتشف الباحثون أن الاحساس الخارق لا يتأثر بالمسافة. وثانيا: بأن التنبؤ يدخل في جملة الظواهر الخارقة عند الانسان كما عرفت، وهذا ينافي فرضية الامواج إذ لا يتصور صدور أمواج من شئ لم يوجد بعد. وقد أجيب عن الاعتراض الاول بأن سرعة الامواج الكهربائية تختلف باختلافها طولا وقصرا، فالموجة القصيرة لا يؤثر عليها البعد والقرب، وقد تكون الامواج التي يطلقها الدماغ ويتلقاها من أقصر الامواج الكهربائية. وأما التنبؤ فيمكن أن يبنى على نظرية البرت اينشتاين في الزمان. يختلف تصورنا التقليدي للفضاء عن تصور اينشتاين له. فالفضاء - كما نتصوره - فراغ ذو ثلاثة أبعاد: الطول والعرض والارتفاع، بينما يذهب اينشتاين إلى إن للفضاء أربعة أبعاد: الطول والعرض والارتفاع والزمان. وإذن، فللزمان، في النظام الموضوعي للكون، كيان حقيقي وليس عبارة عن اختراع أقررناه لنقيس أعمالنا. وهو، لذلك، بعد للفضاء لا يفترق عن الابعاد الثلاثة الاخرى، غير أننا لا نعيه لان أدوات الادراك عندنا قاصرة عن إدراكه. ومعنى هذا أن التنبؤ عن حوادث المستقبل لا يختلف في جوهره عن الاحساس بأشياء موجودة في الوقت الحاضر، فالنفس البشرية التي تستطيع أن تخترق حاجز المسافة المكانية بما تملك من قوى خارقة تستطيع أيضا أن تخترق حاجز المسافة الزمانية بهذه القوى. إنها قد تبصر بها شيئا مغيبا عنها في ثنايا

[١٦٣]

المستقبل، بنفس السهولة التي تبصر بها شيئا مغيبا عنها في أحد الابعاد الثلاثة الاخرى من الفضاء. والامواج الكهربائية على مختلف أنواعها تتحرك في فضاء ذي أربعة أبعاد، أي الابعاد الثلاثة مضافا إليها بعد الزمان، والقرائن التي تدل على هذا هي: أولا: كشفت الابحاث الفيزيائية الحديثة ان شعاع الضوء يظهر على شكل موجات تارة وعلى شكل دفقات متتالية تارة أخرى. وقد حار العلماء في تفسير هذا الازدواج العجيب في شخصية الشعاع الضوئي. ومن المحتمل أننا حين نرى الضوء على شكل دفقات متتالية، إنما نستبين منه قمم الموجات فقط أما البقية المختفية من الموجات فتذهب في الزمان أي في البعد الرابع، لان أمواج الضوء تتحرك في فضاء ذي أربعة أبعاد. ثانيا: كشفت الابحاث الذرية عن أن الالكترون يقفز داخل الذرة من مدار إلى آخر ولا يلتزم مدارا ثابتا. وهو حين يقفز من مدار إلى آخر لا يمر بالمسافة التي تفصل بين المدارين، إنه يختفي من مدار ليظهر في المدار الآخر، فأين يذهب أثناء القفز ؟ إنه في الظاهر يذهب في الزمان الذي هو بعد رابع، لانه يسبح في فضاء ذي أربعة أبعاد. ثالثا: لا يخضع الالكترون في سيره لقانون، وإنما هو يسير سيرا عشوائيا في الظاهر. وهناك طائفة كبيرة من العلماء يفسرون هذه الحركة العشوائية في سير الالكترون بأنها ناتجة عن قصورنا عن مراقبة حركته على نحو صحيح، وذلك أننا، في نظر هؤلاء العلماء، نراقب ظل الالكترون فقط ولا نستطيع أن نراقبه نفسه لانه يتحرك في فضاء ذي أربعة أبعاد، ونحن نراقبه من خلال أبعادنا الثلاثة، فهذه الفوضى التي نراها في سير الالكترون إنما ترجع إلى أننا لا

[١٦٤]

نراه نفسه وإنما نرى ظله، لان ما يتحكم في سيره كامن في الزمان الذي هو بعد يخضع له الالكترون في سيره. فهذه الفرضية، فرضية سير الامواج الكهربائية في فضاء ذي أربعة أبعاد، لا نجد صعوبة في قبولها بناء على ما جاء به اينشتاين من مفهوم جديد للزمان والمكان. وعلى هذا، فالتنبؤ بحوادث المستقبل ليس مستحيلا، لان الامواج الخفية التي تساعدنا على الاحساس الخارق لا يصعب عليها أن تتصل بالمستقبل وتكشف ما يحدث فيه، فهي تتحرك في كون ليس فيه مستقبل ولا ماض (١). * * * وإذن فهذه الظاهرة التي تشمل الرؤية عن بعد، وانتفال الافكار، والتنبؤ، أمر واقع لا سبيل إلى نكرانه، كما اعترف بذلك جمهرة من العلماء الاثبات مرت عليك أسماء بعضهم. وقد عرفت أيضا أن العلم الحديث يتجه إلى البحث عن ماهية هذه الظاهرة وحقيقتها. وقد رأيت الفرضية التي يفسرون بها هذه الظاهرة، وهي، إذا صحت، لا تبين لنا حقيقتها وماهيتها، فالعلم لا يعرف عن ماهية هذه الامواج النفسية شيئا وإنما توضح آليات عملها ومجالاته. وإذا كان العلم الحديث يقبلها كحقيقة موضوعية لا مراء فيها. وإذا كان العلماء المحدثون يسعون إلى الكشف عن حقيقتها والتعرف على

---

(١) هذا البحث مقتبس من الدكتور علي الوردي: خوارق اللاشعور، ص: ١٧٩ - ١٩٦.

آلياتها فهل يبقى بعد ذلك مجال لنكرانها لاننا لا نعرف ماهيتها ؟ اللهم لا، لاننا سنكون حينئذ كذلك الاعمى الذي ينكر وجود النور لانه لا يراه. وإذ كانت هذه الظاهرة حقيقة واقعة، وإذ كانت القوانين العلمية الحديثة لا تأباها، فلا حرج علينا إذن في أن ندرسها عند أمير المؤمنين عليه السلام، كما تبدو لنا في نهج البلاغة وغيره.

---

(٤) قد دلت الابحاث الحديثة كما عرفت على أن كل إنسان يملك مقدارا من هذه القوة الخارقة التي تكشف له عما اضطمت عليه أحشاء المستقبل، ولكن الناس إذا تساووا في نوع هذه القوة فإنهم يختلفون في مقدارها. فقد ثبت أن هذه الحاسة توجد عند بعض الناس بقوة تثير الدهشة، بينما توجد في بعض آخر على حال من الضعف والوهن لا تكاد تبين معه، فما السبب في هذا التفاوت ؟ لقد تبين للباحثين أن قوة هذه الحاسة تتناسب تناسبا طرديا مع درجة الصفاء الروحي والنقاء الداخلي التي يتمتع بها الشخص، فكلما كان الانسان صافي النفس، نقي الضمير، منعتقا من أسر التقاليد الاجتماعية الضارة، متفلتا من قيد الضرورة وما إليها، خالي النفس من العقد والاحقاد والمطامع، كانت هذه الحاسة فية قوية بالغة القوة، وكلما كان الانسان مشوش النفس موزع الضمير مستغرقا في حواسه، أسيرا لضرورات جسده وشهواته، غارقا في مجتمعه، كانت هذه الحاسة فيه ضامرة لا تكاد تبين (١).

---

(١) الدكتور علي الوردي: خوارق اللاشعور.

فهذه الحاسة لا تنشط إلا في ساعات الصفاء العقلي والروحي والوجداني، فعند ذلك تبلغ أقصى قوتها. فإذا شئنا أن نبحث عن هذه الظاهرة في حياة الامام عليه السلام طالعتنا فيه على أتم وأكمل ما تكون، فلقد بلغ من الصفاء الروحي حدا لم يدانه فيه إنسان على الاطلاق ولم يزد عليه فيه إلا النبي صلى الله عليه وآله. وتاريخ حياته عليه السلام سلسلة ذهبية من هذه الظواهر الرائعة الفاتنة. وإذا صح أن تجردا وصفاء وقتيين يقوم بهما إنسان عادي يتيحان له إطلاق قواه الخارقة، فما قولك فيمن كانت حياته كلها تجردا روحيا وصفاء لا يعدله في بني الانسان صفاء ؟. إن هذه الظاهرة التي تبدو لاعيننا في تاريخ حياته لتدل على أنه كان يدخل في وسعه أن يطلق قواه الخارقة متى أراد، وأن يعي ما غاب عنه في أحشاء الزمان وطوايا المكان متى شاء. ويصدق قولنا هذا ما أثبته المؤرخون وتسالموا عليه من إخباراته بالمغيبات وصدق ما أخبر به ووقوعه بعده بأزمان. * * * لم يعن الشريف رحمه الله، حين آلى على نفسه أن يجمع كلامه عليه السلام، بهذه الناحية عناية تستحق الذكر، فما في نهج البلاغة من اخباراته بالمغيبات لا يبلغ عشر ما نسب إليه وصح عنه. وهذه الطائفة التي ذكرها الشريف من إخباراته تجئ على أقسام:

---

١ - غرق البصرة. ٢ - تسلط الظالمين على الكوفة. ٣ - تغلب معاوية على الخلافة. ٤ - مصير الخوارج ونهاية أمرهم. ٥ - مروان وخلافته. ٦ - حرب الزنج. ٧ - ولاية الحجاج. ٨ - الاتراك. ٩ - بنو أمية: ظلمهم ونهايتهم. ١٠ - خروج المهدي عجل الله فرجه. ١١ - فتن تشمل الدنيا وتهلك الحرث والنسل. في هذه العناوين ينحصر ما ذكره الشريف في نهج البلاغة من الاخبار بالمغيبات، وسنتكلم في كل واحد من أولئك على حدة. ذاكرين بعد ذلك ما أهمله الشريف ولم يعن به. * * * لقد تحدث الامام عليه السلام عن علمه بالمغيبات في مناسبات كثيرة منها قوله: (. فاسألوني قبل أن تفقدوني، فوالذي نفسي بيده لا تسألوني عن شئ فيما بينكم وبين الساعة، ولا عن فئة تهدي مائة وتضل مائة إلا أنبأتكم بناعقها (١)، وقائدها، وسائقها، ومناخ (٢)

---

(١) ناعقها: الداعي إليها مأخوذ من (نعق بغنمه) إذا صاح بها لتجتمع. (٢) مناخ.. في الاصل: محل بروك الابل، استعمل هنا للتعبير عن مصير الفئة الضالة أو الهادية ونهايتها.

ركابها، ومحط رحالها، ومن يقتل من أهلها قتلا ومن يموت منهم موتا، ولو قد فقدتموني، ونزلت بكم كرائه الامور (١) وحوازب الخطوب (٢)، لاطرق كثير من السائلين وفشل كثير من المسؤولين) (٣). وقد ذكر عليه السلام أنه استقى علمه هذا من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم. فقد أتى في كلام له بعد أن هزم أصحاب الجمل في البصرة، على ذكر بعض ما يلم بالبصرة من الخطوب، فذكر فتنة الزنج وذكر التتر، فقال له بعض أصحابه لقد أعطيت يا أمير المؤمنين علم الغيب، فضحك الامام وقال للرجل: (ليس هو بعلم غيب، وإنما هو تعلم من ذي علم، وإنما علم الغيب علم الساعة وما عدد الله سبحانه بقوله: (إن الله عنده علم الساعة.) الآية. فهذا علم الغيب

الذي لا يعلمه أحد إلا الله، وما سوى ذلك فعلم علمه الله لنبيه فعلمنيه، ودعا لي بأن يعيه صدري وتضطم (٤) عليه جوانحي) (٥). وقال مخاطبا أصحابه في موقف آخر: (والله لو شئت أن أخبر كل رجل منكم بمخرجه

---

(١) كرائه الامور: جمع كريهة، المصائب الكبرى. (٢) الحازب: الخطب الشديد، يقال (حزبه الامر) إذا اشتد عليه. (٣) نهج البلاغة، رقم الخطبة: ٩١. (٤) تضطم: إفتعال، من الضم، أي وتنظم عليه جوانحي، والجوانح: الاضلاع تحت الترائب مما يلي الصدر، وانضمامها عليه: اشتمالها على قلب يعيها. (٥) نهج البلاغة، رقم الخطبة: ١٤٦.

---

[١٧٠]

ومولجه (١) وجميع شأنه لفعلت، ولكن أخاف أن تكفروا في برسول الله صلى الله عليه وآله، ألا وإني مفضيه (٢) إلى الخاصة ممن يؤمن ذلك منه. والذي بعثه بالحق واصطفاه على الخلق ما أنطق إلا صادقا، وقد عهد إلي بذلك كله، وبمهلك من يهلك ومنجى من ينجو، ومآل هذا الامر، وما أبقى شيئا يمر على رأسي إلا أفرغه في أذني وأفضى به إلي) (٣). وقال: (أيها الناس لا يجر منكم شقاقي (٤)، ولا يستهوينكم (٥) عصياني، ولا تتراموا بالابصار (٦) عندما تسمعونه مني، فوالذي فلق الحبة وبرأ النسمة (٧)، إن الذي أنبأكم به عن النبي الامي صلى الله عليه وآله، ما كذب المبلغ ولا جهل السامع) (٨).

---

(١) المخرج: محل الخروج، والمولج: محل الولوج، الدخول، أي: أخبره من أين يخرج، وأين يدخل. (٢) مفضيه: أصله من (أفضى إليه) إذا خلا به. والمراد أنه موصله إلى أهل اليقين ممن لا تخشى عليهم الفتنة. (٣) نهج البلاغة: رقم الخطبة: ١٧٣. (٤) لا يجرمنكم: لا يحملكم ويكسبنكم، (شقاقي) عصياني. أي لا يكسبنكم عصياني الخسران والضياع. (٥) لا تقعوا في هوى العصيان. (٦) تتراموا بالابصار. ينظر بعضكم إلى بعض تعجبا واستنكارا. (٧) أنبت الحبة، وخلق الروح. (٨) نهج البلاغة، رقم الخطبة: ٩٩، ولاحظ في النص رقم: ١٦ قوله: (ولقد نبئت بهذا المقام وهذا اليوم).

---

[١٧١]

في هذه النصوص يصرح الامام عليه السلام بأن علمه بالمغيبات جاءه عن طريق رسول الله صلى الله عليه وآله. والذي يستوقفنا في هذا هو أننا لا نستطيع أن نتصور أن النبي قد أفضى إلى الامام بكل حادثة من الحوادث المقبلة على نحو التفصيل، لان الظرف الزماني الذي جمع بين النبي والامام لا يسع شيئا مثل هذا حتى لو فرضنا أن الامام قد اختص بأوقات فراغ النبي كلها، فهو عليه السلام يقول: (فوالذي نفسي بيده لا تسألوني عن شئ فيما بينكم وبين الساعة ولا عن فئة تهدي مائة وتضل مائة إلا أنبأتكم بناعقها.) (١). ويقول: (سلوني قبل أن تفقدوني، فلانا بطرق السماء أعلم مني بطرق الارض.) (٢). ويقول: (. والله لو شئت أن أخبر كل رجل منكم بمخرجه ومولجه وجميع شأنه لفعلت.. وقد عهد إلي بذلك كله وبمهلك من يهلك ومنجى من ينجو، ومآل هذا الامر، وما أبقى شيئا يمر على رأسي إلا أفرغه في أذني وأفضى به إلي) (٣).

---

(١) نهج البلاغة، رقم النص: ٩١. (٢) نهج البلاغة، رقم النص: ١٨٧. (٣) نهج البلاغة، رقم النص: ١٧٣.

فهذا علم واسع بالغ السعة متراحب الآفاق، ومهما يكن الظرف الزماني الذي قضاه الامام مع النبي طويلا، ومهما تكن الاوقات الخاصة التي يفرغ فيها النبي للامام وحده طويلة وكثيرة، فإن ذلك كله لا يسع الافضاء ببعض هذا العلم إلى الامام على نحو التفصيل، بحيث يتناول التعليم الجزئيات الدقيقة، والتفصيلات الكثيرة، فضلا عن أن يسع الافضاء إليه بكل هذا العلم على هذا النحو من الافضاء. وإذ كانت الحال على هذا فلا نستطيع أن نتصور أن النبي قد أفضى إلى الامام بكل حادثة من الحوادث المقبلة إلى قيام الساعة على نحو التفصيل، ولكن الامام عليه السلام يصرح بما لا يدع مجالا للشك بأنه قد استقى علمه هذا من النبي صلى الله عليه وآله، فكيف السبيل إلى ملاءمة هذا الذي يقوله الامام مع ما تبين لنا من عدم استيعاب الظرف الزماني للافضاء بكل هذه العلوم ؟ الذي أراه هو أن النبي صلى الله عليه وآله لم يفض إلى الامام بالمغيبات على نحو التفصيل الذي يلم بجميع الجزئيات، فقد رأينا أن العقل يحيل ذلك لان الزمان مهما يطل لا يتسع له. وإنما أفضى إليه بهذه المغيبات على نحو الاجمال لا التفصيل. فقد رأينا ان نشاط هذه القوى الخفية المودعة في الانسان والتي تصله بالمجهول المحجوب في أحشاء الزمان أو ثنايا المكان، يتوقف على الحالة العقلية والروحية والوجدانية التي يكون عليها الانسان، فكلما كان الانسان على حال رفيعة من الصفاء العقلي والطهارة الروحية والنقاء الوجداني كانت هذه القوى أنشط وأبلغ في النفوذ إلى المغيب المحجوب، والذي نراه بالنسبة إلى الامام عليه السلام هو ان النبي قد أخبره بالمغيبات على نحو الاجمال ثم هداه إلى أقوم السبل التي تؤدي به إلى أرفع درجات هذه الحالة الروحية التي تتيح لقواه الخفية ان تعمل عملها الخارق فيعي بسببها تفصيل ما أجمله له رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم.

وبهذا التفسير وحده نستطيع ان نلائم بين علم الامام الواسع بالمغيبات الذي يسنده إلى الرسول وبين الظرف الزماني الضيق نسبيا الذي جمع بينه وبين الرسول، وليس هذا التفسير اعتباطيا فلدينا عليه شاهد مقبول. وهذا الشاهد الذي نعني هو ان النبي صلى الله عليه وآله خلى بالامام فأدخله في ثوبه وناجاه في اللحظات القليلة الاخيرة التي قبض بعدها، فلما فرغ من نجواه خرج الامام من عنده فسأله الناس عما أفضى به إليه فقال: (علمني ألف باب ينفتح لي من كل باب ألف باب). فمهما كانت اللحظات التي خلا بها النبي مع الامام كثيرة لا نستطيع أن نتصور كيف أفضى إليه فيها بألف باب من العلم على نحو التفصيل، لانها مهما طال مداها لا تتسع للافضاء ببعض هذا العدد الكبير، فلابد من القول بأنه أفضى إليه بهذه الالف باب على نحو الاجمال وذلك بإعطاء الظوابط الكبرى التي تشمل كثيرا من الابواب. ولعل قوله: (ينفتح لي من كل باب ألف باب) أبلغ دلالة على ما نقول من أنه علمه على نحو الاجمال لاعلى نحو التفصيل، وأنه اتكل في معرفة الجزئيات والتفاصيل إلى ما يتمتع به الامام من مواهب تسعفه في معرفة ما غاب وتهديه إلى شريعة الصواب. * * * قلنا إن إخباراته التي ذكرها الشريف تجئ على أقسام، منها إخباره بما يلم بالبصرة من الخطوب. فأخبر بعد فراغه من أصحاب الجمل، عن غرق البصرة كلها بقوله:

[١٧٤]

(.. وأيم الله لتغرقن بلدتكم حتى كأني أنظر إلى مسجدها كجؤجؤ سفينة (١) أو نعامة جاثمة) (٢) - (٣). وقد صدقت الحوادث هذه النبوءة، فقد ذكر ابن أبي الحديد أن البصرة غرقت مرتين: مرة في أيام القادر بالله (٤)، ومرة في أيام القائم بأمر الله (٥)، غرقت بأجمعها ولم يبق منها إلا مسجدها الجامع بارزا كجؤجؤ الطائر حسب ما اخبر به أمير المؤمنين. وخربت دورها وغرق كل ما في ضمنها وهلك كثير من أهلها. وأخبار هذين الغرقين معروفة عند اهل البصرة يتناقله خلفهم عن سلفهم) (٦). وأخبر عن هلاك البصرة بالزنج، فقال مخاطبا الاحنف بن قيس بعد حرب الجمل: (يا أحنف كأني به وقد سار بالجيش الذي لا يكون له غبار ولا لجب (٧) ولا قعقعة لجم (٨)

---

(١) الجؤجؤ: الصدر. هنا: صدر السفينة. (٢) جثم الطائر: تلبد بالارض، وهيئة النعامة الجاثمة على الارض كهيئة السفينة من مقدمها. (٣) نهج البلاغة، رقم النص: ١٣. (٤) القادر بالله، أبو العباس أحمد بن اسحاق بن المقتدر. بويع بالخلافة في يوم ١٢ رمضان سنة ٣٨١ هـ.)٣ أكتوبر (تشرين الاول) ٩٩١ م) واستمر خليفة إلى أن توفي في نهاية ذي الحجة سنة ٤٢٢ هـ)١٨ ديسمبر (كانون الاول) ١٠٣١ م). (٥) القائم بأمر الله، أبو جعفر عبد الله بن القادر. بويع بالخلافة في ذي الحجة سنة ٤٢٢ هـ)١٠٣١ م) واستمر خليفة إلى ١٣ شعبان سنة ٤٦٧ هـ)٣ ابريل (نيسان) سنة ١٠٧٥ م). (٦) ابن أبي الحديد، شرح النهج: ١ - ٨٤. (٧) اللجب: الصياح. (٨) اللجم، جمع لجام. وقعقعة اللجم ما يسمع من صوت اضطرابها بين أسنان الخيل

---

[١٧٥]

ولا حمحمة خيل (١)، يثيرون الارض بأقدامهم كأنها أقدام النعام. ويل لسككم العامرة (٢) والدور المزخرفة التي لها أجنحة كأجنحة النسور (٣) وخراطيم كخراطيم الفيلة (٤)، من أولئك الذين لا يندب قتيلهم ولا يفتقد غائبهم (٥) أنا كاب الدنيا لوجهها، وقادرها بقدرها، وناظرها بعينها) (٦). هذه النبوءة صدقتها الحوادث، ففي سنة خمس وخمسين ومائتين ظهر المدعو عليا بن محمد بن عبد الرحيم وجمع الزنوج وخرج بهم على المهتدي العباسي (٧)، واستشرى أمره، وكاد يبيد البصرة ويفني أهلها، واستمرت الحرب بينه وبين السلطة المركزية خمسة عشر عاما، فقد قتل في سنة سبعين ومائتين، وقد كتب ابن أبي الحديد فصلا كبيرا عن هذه النبوءة (٨).

---

(١) الحمحمة: صوت البرذون عند الشعير. (٢) السكك: جمع سكة، وهي الطريق المستوي الممهد. وهو إخبار عما يصيب تلك الطرق وما حولها من المنازل من الخراب والتهديم. (٣) أجنحة الدور: رواشنها (جمع روشن، بمعنى شرفة (برندة)) وذلك على التشبيه بأجنحة الطير. (٤) خراطيم الدور: هي الميازيب تطلى بالقار. (٥) أصحاب الزنجي، وإنما لا يندب قتيلهم، لان ليس لهم زوجات وأهل يبكون عليهم لانهم كانوا عبيدا ليست لهم أسر. (٦) نهج البلاغة، رقم النص: ١٢٦. (٧) المهتدي بالله، محمد بن هارون الواثق، إبن المعتصم بن الرشيد بويع له بالخلافة يوم ٢٧ رجب سنة ٢٥٥ هـ (١١ يوليو (تموز) ٨٦٩ م)، وخلع في ١٤ رجب سنة ٢٥٦ (١٧ يونيو سنة ٨٧٠ م). (٨) ابن أبي الحديد: شرح النهج ٢ - ٣١٠ - ٣٦١.

---

[١٧٦]

ولا يفوتنا التنبيه على تنبوئه عليه السلام، في النص الآنف، بما ستكون عليه حال البصرة من الناحية العمرانية. وأخبر عن هلاك البصرة بالتتر فقال: (. كأني أراهم قوما كأن وجوههم المجان المطرقة (١)، يلبسون السرق (٢) والديباج، ويعتقبون الخيل العتاق

(٣)، ويكون هناك استحرار (٤) قتل حتى يمشي المجروح على المقتول، ويكون المفلت أقل من المأسور) (٥). هذه النبوءة تحققت بظهور التتار واكتساحهم للممالك حتى وصلوا إلى العراق فلقيت البصرة منهم أعظم البلاء وأشنعه، فقد تكدست الجثث في الشوارع والازقة وحل بالناس منهم خوف عظيم. وقد وقعت هذه الاحداث في زمن ابن أبي الحديد فكتب عنها فصلا كبيرا (٦). * * * وقد تنبأ عليه السلام بما سيحل بالكوفة من الظالمين فقال:

---

(١) المجان، جمع مجن - بكسر الميم - وهو الترس، وسمي مجنا لانه يستتر به عن العدو، والجنة - بالضم - السترة، والمطرقة، هي التي الزق بها الطراق - ككتاب - وهو جلد يفصل على مقدار الترس ثم يلزق به. (٢) السرق: شقق الحرير الابيض. (٣) يعتقبون الخيل. أي يحتبسون كرائم الخيل لانفسهم ويمنعون غيرهم منها. (٤) استحرار قتل. اشتداد قتل. (٥) نهج البلاغة، رقم النص: ١٢٦. (٦) ابن أبي الحديد: شرح نهج البلاغة، ٢ / ٣٦١ - ٣٧١.

---

[١٧٧]

(كأني بك يا كوفة تمدين مد الاديم العكاظي (١)، تعركين بالنوازل (٢)، وتركبين بالزلازل (٣)، وإني لاعلم انه ما أراد بك جبار سوءا إلا ابتلاه الله بشاغل، ورماه بقاتل) (٤). وقد صدقت الحوادث نبوءته، فقد تعاقب على الكوفة سلسلة من ولاة الجور، وأعوان الظلمة، أذاقوها الصاب وساموها العذاب، فزياد ابن أبيه، وعبيد الله ابن زياد، والحجاج، ويوسف بن عمرو، والمغيرة بن شعبة، وخالد بن عبد الله القسري وأضرابهم.. كلهم أقاموا الحكم في الكوفة على ركام من الجماجم وأنهار من الدماء (٥). * * * وقد تنبأ عليه السلام بتغلب معاوية على الخلافة وسيطرته على الكوفة وأنه سيأمر أهل الكوفة من الشيعة بسب الامام والبراءة منه، فقال: (أما انه سيظهر (٦) عليكم بعدي رجل رحب

---

(١) الاديم: الجلد المدبوغ، والعكاظي نسبة إلى عكاظ - كغراب - وهو سوق كانت تقيمه العرب في صحراء بين نخلة والطائف، يجتمعون إليه من بداية شهر ذي القعدة ليتعاكظوا، أي يتفاخروا، وأكثر ما كان يباع الاديم بتلك السوق فنسب إليها. وقوله: (تمدين مد الاديم العكاظي) استعارة لما ينالها من العسف والشدائد، كأن ما ينزل بها من الظلم يشبه ما ينزل بالجلد حين يراد أن يدبغ من الخبط والدق. (٢) تعركين مأخوذ من (عركتهم الحرب) إذا مارستهم حتى أتعبتهم، والنوازل: الشدائد. (٣) الزلازل: المزعجات من الخطوب. (٤) نهج البلاغة، رقم النص: ٤٧. (٥) ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة ١ / ٢٨٦ - ٢٨٧. (٦) سيظهر: سيغلب. دراسات في نهج البلاغة (١٢)

---

[١٧٨]

البلعوم (١)، مندحق البطن (٢)، يأكل ما يجد ويطلب ما لا يجد، فاقتلوه ولن تقتلوه. ألا وإنه سيأمركم بسبي والبراءة مني، أما السب فسبوني فإنه لي زكاة ولكم نجاة، وأما البراءة فلا تتبرؤوا مني (٣)، فإني ولدت على الفطرة، وسبقت إلى الايمان والهجرة) (٤). هذه النبوءة تحققت بتمامها، فقد غلب معاوية بعد صلح الحسن وأمر الناس بسب الامام صلوات الله وسلامه عليه، والبراءة منه، وقتل طائفة من عظماء أصحابه (ع) لانهم ثبتوا على ولائه فلم يتبرؤوا منه، منهم حجر بن عدي الكندي وجماعته. وقال قوم إن المعنى بهذا الكلام زياد بن أبيه، وقال قوم إنه المغيرة بن شعبة، وكل ولي الكوفة، وأمر بالسب والبراءة (٥). * * * وتنبأ عليه السلام بما سيصير إليه أمر الخوارج من بعده فقال: (. أما إنكم ستلقون من

بعدي ذلا شاملا وسيفا قاطعا وأثرة (٦) يتخذها الظالمون فيكم سنة) (٧).

---

(١) الرحب: الواسع. (٢) مندحق البطن: عظيم البطن بارزه، كأنه لعظمه مندلق من بدنه يكاد يبين عنه. (٣) قد يكون السب نتيجة للاكراه من الظالم مع إبطان الحب والولاء، وأما البراءة من إنسان فهي الانسلاخ من مذهبه. (٤) نهج البلاغة، رقم النص: ٥٧. (٥) ابن أبي الحديد: شرح النهج ١ - ٣٥٥. (٦) الاثرة: الاستبداد بفوائد الملك، وحرمان الآخرين منه. (٧) نهج البلاغة، رقم النص: ٥٨.

وهكذا كان، فإن الخوارج، بعد العدل الذي لاقوه من حكومته والحرية التي تمتعوا بها، لم يعاملوا في جميع العهود التالية إلا بالاضطهاد والحرب والمطاردة. * * * وقال لما قتل الخوارج وقيل له: هلك القوم بأجمعهم: (كلا والله، إنهم نطف في أصلاب الرجال وقرارات النساء (١)، كلما نجم منهم قرن قطع (٢) حتى يكون آخرهم لصوصا سلابين) (٣). وقد صحت نبوءته، فلم يمض زمن طويل حتى نجم أمرهم مرة اخرى واستمرت بينهم وبين السلطات المركزية المتعاقبة حروب طاحنة، وكانت نهايتهم أن صاروا قطاع طرق ولصوصا سلابين. * * * وقد تنبأ بعدد من يقتل من أصحابه وبقدر من يبقى من الخوارج قبل أن يشتبك معهم في النهروان، فقال: (مصارعهم دون النطفة (٤)، والله لا يفلت منهم عشرة، ولا يهلك منكم عشرة) (٥).

---

(١) قرارات النساء: كناية عن الارحام. (٢) كلما نجم منهم قرن قطع: كلما ظهر منهم رئيس قتل. (٣) نهج البلاغة، رقم النص: ٥٩. (٤) يعني بالنطفة ماء النهر، وقد جرت المعركة معهم عند النهروان. (٥) نهج البلاغة، رقم النص: ٥٩.

فلم يقتل من أصحاب الامام إلا ثمانية، ولم ينج من الخوارج إلا تسعة (١). * * * وقد كثر كلامه عما سيحل بالناس من بني أمية وظلمهم، وكأنه يعد بذلك أنفس الناس لتلقي فادح الظلم. وقد تنبأ بخلافة مروان بن الحكم وبما سيحل بالامة منه ومن أولاده، وتنبأ عن نهاية بني أمية متى تحين. قال متنبأ بمصير الخلافة إلى مروان: (اما أن له إمرة كعلقة الكلب أنفه (٢) وهو أبو الاكبش الاربعة (٣) وستلقى الامة منه ومن ولده يوما أحمر) (٤). وقد تم كل ما قال، فقد كانت إمرة مروان قصيرة جدا إذ لم تزد على تسعة أشهر، وقد كان له من الابناء أربعة هم: عبد الملك، وعبد العزيز وبشر، ومحمد. ولي عبد الملك الخلافة، وولي محمد الجزيرة، وولي عبد العزيز مصر، وولي بشر العراق. وقد حل بالمسلمين منهم ظلم عظيم (٥). * * *

---

(١) ابن أبي الحديد: شرح نهج البلاغة ١ - ٣٧٩ - ٣٨٠ - و ٤٢٤ - ٤٢٧ و ٤٤٥ - ٤٤٦. (٢) تصوير بالحركة لقصر ملك مروان بن الحكم. (٣) كناية عن أولاده. (٤) نهج البلاغة، رقم النص: ٧١. (٥) ابن أبي الحديد: شرح نهج البلاغة ٢ - ٥٣ - ٦٠.

وقال في ظلم بني أمية: (. والله لا يزالون حتى لا يدعو الله محرما إلا استحلوه (١)، ولا عقدا إلا حلوه، وحتى لا يبقى بيت مدر ولا وبر (٢) إلا دخله ظلمهم، ونبا به سوء رعيهم (٣)، وحتى يقوم الباكيان يبكيان: باك يبكي لدينه، وباك يبكي لدنياه. وحتى تكون نصرة أحدكم من أحدهم كنصرة العبد من سيده، إذا شهد أطاعه، وإذا غاب اغتابه) (٤). ولا يجهل أحد مبلغ ما نزل بالناس من ظلم بني أمية وانتهاكهم للحرمات، واستهتارهم بالفضيلة حتى صار خلفاؤهم مثلا في الظلم والفسق والتهتك (٥). * * * وقد تحدث عليه السلام كثيرا عن نهاية بني أمية وأن الامر سيصير إلى أعدائهم بعدهم في الوقت الذي يحسب الناس فيه أنهم مخلدون.

---

(١) استحلال المحرم: استباحته. (٢) بيوت المدر: المبنية من حجر، وبيوت الوبر: الخيام، أي أن ظلم بني أمية يشمل جميع الناس حيث كانوا. (٣) أصله من (نبا به المنزل) إذا لم يوافقه، فارتحل عنه. أي أن ظلم بني أمية وسوء سياستهم في الناس، يجعل المجتمع مضطربا غير مستقر ولا آمن. (٤) نهج البلاغة، رقم النص: ٩٦. (٥) ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة: ٢ - ٤٦٦ - ٤٦٧ وراجع ٢ - ١٩٣ - ١٩٤ و ٤٠٩ ٤٠٨ في شأن عبد الملك بن مروان والفتن في عهده.

---

[١٨٢]

قال عليه السلام: (حتى يظن الظان أن الدنيا معقولة على بني أمية (١)، تمنحهم درها (٢) وتوردهم صفوها، ولا يرفع عن هذه الامة سوطها ولا سيفها، وكذب الظان لذلك. بل هي مجة (٣) من لذيذ العيش يتطعمونها برهة ثم يلفظونها جملة (٤). وقال: (فأقسم بالله يا بني أمية عما قليل لتعرفنها في أيدي غيركم وفي دار عدوكم) (٥). هذه النبوءات بزوال ملك بني أمية على يد العباسين، وما يصنعه العباسيون من القتل والتشريد قد تحققت بحذافيرها (٦). وقد تنبأ بولاية الحجاج وبما سيحل بالعراق من بلوائه فقال: (أما والله ليسلطن عليكم غلام ثقيف الذيال

---

(١) معقولة على بني أمية: مقصورة عليهم، مسخرة لهم، كأنهم شدوها بعقال الناقة. (٢) درها: لبنها (٣) مجة: مصدر من (مج الشراب من فيه) إذا رمى به. (٤) نهج البلاغة، رقم النص: ٨٥ آخر النص. (٥) نهج البلاغة، رقم النص: ١٠٣ ولاحظ النص رقم: ١٦٧. (٦) ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة: ٢ - ١٣٢ - ١٣٣ و ١٧٨ - ٢٠٠ - ٢٠٢ و ٤٦٦ - ٤٦٧.

---

[١٨٣]

الميال (١)، يأكل خضرتكم ويذيب شحمتكم، إيه أبا وذحة) (٢) - (٣). وقال فيما رواه ابن أبي الحديد من تتمة خطبة أخرى تنبأ فيها بولاية الحجاج ابن يوسف الثقفي ويوسف بن عمرو الثقفي: (. وستليكم من بعدي ولاة يعذبونكم بالسياط والحديد. وسيأتيكم غلاما ثقيف: أخفش وجعبوب، يقتلان ويظلمان وقليل ما يمكثان). قال ابن أبي الحديد: (. الاخفش الضعيف البصر خلقة، والجعبوب القصير الدميم، وهما الحجاج ويوسف بن عمرو وفي كتاب عبد الملك إلى الحجاج: قاتلك الله أخيفش العينين أصك الجاعرتين. ومن كلام الحسن البصري (ره) يذكر فيه الحجاج: أتانا

---

(١) الذيال: الطويل القد، الطويل الذيل، المتبختر في مشيته، والميال: الجائر المائل عن طريق الحق والعدل. (٢) الوذحة: قال الشريف الرضي رحمه الله بعد أن أورد هذا النص: الوذحة الخنفساء. وهذا القول يومئ به إلى الحجاج، وله مع الوذحة حديث ليس هذا موضع ذكره. وقد أورد ابن أبي الحديد عند شرح هذه الفقرة عدة روايات عن الحجاج الثقفي في شأن الوذحة. راجع الجزء ٧ ص ٢٧٩ - ٢٨٠ من شرح نهج البلاغة بتحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، نشر دار إحياء الكتب العربية سنة ١٩٦٠ م. (٣) نهج البلاغة، رقم النص: ١١٤.

---

[١٨٤]

أخيفش أعيمش يمد بيد قصيرة البنان ما عرق فيها عنان في سبيل الله. وكان المثل يضرب بقصر يوسف بن عمرو كان يغضب إذا قيل له قصير) (١). * * * راجع النصوص التالية: رقم ١٣ و ١٤ و ٤٦ و ٥٦ و ٥٧ و ٧٠ و ٨٤ (آخر النص) و ٩٠ و ٩٥ و ٩٨ و ٩٩ و ١٠٢ و ١٠٥ و ١١٣ و ١٢٥ و ١٣٦ و ١٤٥ و ١٤٨ و ١٤٩ و ١٥٦ و ١٦٤ و ١٧٣ و ١٨٥ و ١٨٧.

---

(١) شرح نهج البلاغة: ٢ - ١٣٢ - ١٣٣ و ٢٥٧ - ٢٥٨.

---

[١٨٥]

(٥) قلنا أن الشريف رحمه الله لم يذكر في نهج البلاغة كل ما صح عن أمير المؤمنين من أخباره بالمغيبات، ولكن ابن أبي الحديد قد سد هذا النقص حين أفاض في ذكر ما صح عنه عليه السلام في هذا الباب. ومما يحسن ذكره هنا أن ابن أبي الحديد لم ينقل كلما وقع إليه من أخبار الامام بالمغيبات، بل حقق فيما وقع إليه من ذلك فطرح المشتبه أمره، وذكر ما صح عنه عليه السلام. قال ابن أبي الحديد: (. وقد وقفت له على خطب مختلفة فيها ذكر الملاحم (١) فوجدتها تشتمل على ما يجوز أن ينسب إليه وما لا يجوز أن ينسب إليه، ووجدت في كثير منها اختلالا ظاهرا. وهذه المواضع التي أنقلها ليست من تلك الخطب المضطربة بل من كلام وجدته متفرقا في كتب مختلفة) (٢). وعلل ابن أبي الحديد هذه الظاهرة الفذة في الامام بقوله:

---

(١) الملاحم: جمع ملحمة، وهي الواقعة العظيمة. (٢) ابن أبي الحديد: شرح النهج ٢ - ٥٠٨.

---

[١٨٦]

(واعلم أنه غير مستحيل أن تكون بعض الانفس مختصة بخاصية تدرك بها المغيبات، وقد تقدم من الكلام في ذلك ما فيه الكفاية (١)، ولكن لا يمكن أن تكون نفس تدرك كل المغيبات، لان القوة المتناهية لا تحيط بأمور غير متناهية، وكل قوة في نفس حادثة فهي متناهية. فوجب أن يحمل كلام أمير المؤمنين عليه السلام لا على أن يريد به عموم العالمية، بل يعلم امورا محدودة من المغيبات، مما اقتضت حكمة الباري سبحانه أن يؤهله لعلمه.) (٢). * * * ولابن أبي الحديد هذا نص طويل ذكر فيه طائفة كبيرة من إخبارات الامام بالمغيبات، نذكره لطرافته، ولما له من الصلة ببحثنا هذا، على أن نتبعه بذكر ما أهمل ابن الحديد ذكره في هذا النص وذكره في

مناسبات أخرى. قال: (. وهذه الدعوى ليست منه عليه السلام ادعاء الربوبية ولا ادعاء النبوة، ولكنه كان يقول ان رسول الله صلى الله عليه وآله أخبره بذلك، ولقد امتحنا إخباره فوجدناه موافقا، فاستدللنا بذلك على صدق الدعوى المذكورة. (كأخباره عن الضربة التي يضرب في رأسه فتخضب لحيته. (وإخباره عن قتل الحسين ابنه عليهما السلام، وما قاله في كربلاء حيث مر بها. (وإخباره بملك معاوية الامر من بعده. (وإخباره عن الحجاج وعن يوسف بن عمرو.

---

(١) تقدم منه كلام في هذا في ١ - ٤٢٥ و ٤٢٦ - ٤٢٧. (٢) المصدر السابق ٢ - ٥٠٨.

(وما أخبر به من أمر الخوارج بالنهروان. (وما قدمه إلى أصحابه من إخباره بقتل من يقتل منهم وصلب من يصلب. (وإخباره بقتال الناكثين والقاسطين والمارقين. (وإخباره بعدة الجيش الوارد إليه من الكوفة لما شخص عليه السلام إلى البصرة لحرب أهلها. (وإخباره عن عبد الله بن الزبير وقوله فيه: (خب ضب، يروم أمرا ولا يدركه، ينصب حبالة الدين لاصطياد الدنيا، وهو بعد مصلوب قريش). (وكإخباره عن هلاك البصرة بالغرق وهلاكها تارة اخرى بالزنج.. (وكإخباره عن ظهور الرايات السود من خراسان، وتنصيصه على قوم من أهلها يعرفون ببني رزيق - بتقديم المهملة - وهم آل مصعب الذين منهم طاهر بن الحسين وولده وإسحق بن إبراهيم، وكانوا هم وسلفهم دعاة الدولة العباسية. (وكإخباره عن الائمة الذين ظهروا من ولده بطبرستان كالناصر والداعي وغيرهما في قوله عليه السلام: (وإن لآل محمد بالطالقان لكنزا سيظهره الله إذا شاء، دعاؤه حق، حتى يقوم بإذن الله فيدعو إلى دين الله). (وكإخباره عن مقتل النفس الزكية بالمدينة وقوله إنه يقتل عند أحجار الزيت. (وكقوله عن أخيه ابراهيم المقتول بباخمرا: (يقتل بعد أن يظهر ويقهر بعد أن يقهر).

وقوله فيه أيضا: (يأتيه سهم غرب تكون فيه منيته، فيا بؤسا للرامي شلت يده ووهن عضده). (وكإخباره عن قتلى وج وقوله فيهم: هم خير أهل الارض. (وكإخباره عن المملكة العلوية بالمغرب، وتصريحه بذكر كتامة، وهم الذين نصروا أبا عبد الله الداعي المعلم. وكقوله، وهو يشير إلى أبي عبد الله المهدي، وهو أولهم: (ثم يظهر صاحب القيروان الغض النض ذو النسب المحض المنتخب من سلالة ذي البداء المسجى بالرداء). وكان عبيد الله المهدي أبيض مترفا مشربا بحمرة، رخص البدن، تار الاطراف، وذو البداء اسماعيل بن جعفر بن محمد عليهما السلام وهو المسجى بالرداء لان أباه أبا عبد الله جعفر أسجاه بردائه لما مات وأدخل إليه وجوه الشيعة يشاهدونه ليعلموا موته وتزول عنهم الشبهة في أمره. (وكإخباره عن بني بويه وقوله فيهم: (ويخرج من ديلمان بنو الصياد) إشارة إليهم، وكان أبوهم صياد السمك، يصيد منه بيده ما يتقوت هو وعياله بثمنه، فأخرج الله تعالى من ولده لصلبه ملوكا ثلاثة، ونشر ذريتهم حتى ضربت الامثال بملكهم. وكقوله عليه السلام فيهم: (ثم يستشري أمرهم حتى يملكوا الزوراء ويخلعوا الخلفاء)، فقال له قائل: فكم مدتهم يا أمير المؤمنين ؟ فقال: (مائة أو تزيد قليلا). وكقوله فيهم: والمترف بن الاجذم يقتله ابن عمه على دجلة، وهو إشارة إلى عز الدولة بختيار بن معز الدولة أبي الحسين، وكان معز الدولة أقطع اليد، قطعت يده

في الحرب، وكان ابنه عز الدولة بختيار مترفا صاحب لهو وطرب، وقتله عضد الدولة فناخسرو ابن عمه بقصر الجص على دجلة في الحرب وسلبه ملكه. فأما خلعه للخلفاء، فان معز الدولة خلع المستكفي

---

[١٨٩]

ورتب عوضه المطيع، وبهاء الدولة أبا نصر بن عضد الدولة خلع الطائع ورتب عوضه القادر. وكانت مدة ملكهم كما أخبر به عليه السلام. (وكإخباره عليه السلام لعبد الله بن العباس رحمه الله تعالى عن انتقال الامر إلى أولاده، فان علي بن عبد الله لما ولد أخرجه أبوه عبد الله إلى علي عليه السلام، فأخذه وتفل في فيه وحنكه بتمرة قد لاكها، ودفعه إليه وقال: خذ اليك أبا الاملاك. (وكم له من الاخبار عن الغيوب الجارية هذا المجرى مما لو أردنا استقصاءه لكسرنا كراريس كثيرة، وكتب السير تشتمل عليها مشروحة) (١). وقال: (. والمراد بقوله: فلانا بطرق السماء أعلم مني بطرق الارض، ما اختص به من العلم بمستقبل الامور ولا سيما في الملاحم والدول، وقد صدق هذا القول عنه ما تواتر عنه من الاخبار بالغيوب المتكررة لا مرة ولا مائة مرة حتى زال الشك والريب في أنه إخبار عن علم وليس عن طريق الصدفة والاتفاق) (٢). * * * ونأخذ الآن في ذكر ما أهمل ابن أبي الحديد ذكره في النص السابق وأتى على ذكره في مناسبات اخرى. ١ -. لما شجرهم (٣) - الخوارج - علي عليه السلام بالرماح قال: (اطلبوا ذا الثدية) فطلبوه طلبا شديدا حتى وجدوه في وهدة من الارض تحت ناس من

---

(١) المصدر السابق ٢: ١٧٥ - ١٧٦. (٢) المصدر السابق. (٣) شجرهم: حاربهم أو رماهم.

---

[١٩٠]

القتلى فأتي به وإذا رجل على ثديه مثل سبلات السنور، فكبر علي عليه السلام وكبر الناس معه (١). * * * ٢ - قال عليه السلام لمن قال له: أخبرني بما في رأسي ولحيتي من طاقة الشعر، بعد كلام: وإن في بيتك سخلا يقتل ابن رسول الله صلى الله عليه وآله. قال ابن أبي الحديد: وكان ابنه، قاتل الحسين عليه السلام طفلا يحبو، وهو سنان ابن أنس النخعي (٢). * * * ٣ - وخطب ذات يوم فقام رجل من تحت منبره فقال: يا أمير المؤمنين، إني مررت بوادي القرى فوجدت خالد بن عرفطة قد مات فاستغفر له، فقال عليه السلام: والله ما مات ولا يموت حتى يقود جيش ظلالة صاحب لوائه حبيب بن حمار، فقام رجل آخر من تحت المنبر فقال: يا أمير المؤمنين أنا حبيب بن حمار وإني لك شيعة ومحب، فقال: أنت حبيب بن حمار ؟ قال: نعم، فقال له ثانية: والله إنك لحبيب بن حمار، فقال: اي والله، قال: أما والله إنك لحاملها ولتحملنها ولتدخلن بها من هذا الباب، وأشار إلى باب الفيل بمسجد الكوفة. قال ثابت - وهو راوي الحديث -: فو الله ما مات حتى رأيت ابن زياد وقد بعث عمر بن سعد إلى الحسين بن علي عليه السلام، وجعل خالد بن عرفطة على مقدمته وحبيب بن حمار صاحب رايته، فدخل بها من باب الفيل (٣). * * *

---

(١) المصدر السابق ١ - ٢٠٥. (٢) المصدر السابق ١ - ٢٠٨. (٣) المصدر السابق نفس الصفحة.

٤ -. كان جالسا في مسجد الكوفة وبين يديه قوم منهم عمرو بن حريث إذ أقبلت امرأة مختمرة لا تعرف فوقفت فقالت لعلي عليه السلام: يا من قتل الرجال وسفك الدماء وأيتم الصبيان وأرمل النساء، فقال علي عليه السلام: وانها لهي هذه السلقلقة الجلعة الجعة، وانها لهي هذه الشبيهة الرجال والنساء التي ما رأت دما قط، قال يزيد الاحمسي - وهو راوي الحديث - فولت هاربة منكسة رأسها، فتبعها عمرو ابن حريث، فلما صارت بالرحبة قال لها: والله لقد سررت بما كان منك اليوم إلى هذا الرجل فادخلي منزلي حتى أهب لك وأكسوك، فلما دخلت منزله أمر الجواري بتفتيشها وكشفها ونزع ثيابها لينظر صدقه فيما قاله عنها، فبكت وسألته أن لا يكشفها وقالت: أنا والله كما قال، لي ركب النساء وانثيان كأنثيي الرجال، وما رأيت دما قط، فتركها وأخرجها، ورجع إلى مجلسه مع الامام عليه السلام فحدث بذلك (١). * * * ٥ - قام أعشى باهلة وهو يومئذ غلام حدث إلى علي عليه السلام، وهو يخطب ويذكر الملاحم، فقال: يا أمير المؤمنين: ما أشبه هذا الحديث بحديث خرافة. فقال علي عليه السلام: إن كنت آثما فيما قلت يا غلام فرماك الله بغلام ثقيف، ثم سكت. فقام رجال فقالوا: ومن غلام ثقيف يا أمير المؤمنين ؟ قال غلام يملك بلدتكم هذه لا يترك حرمة إلا انتهكها يضرب عنق هذا الغلام بسيفه.

(١) المصدر السابق ١: ٢٠٨ - ٢٠٩.

فقالوا: كم يملك يا أمير المؤمنين ؟ قال: عشرين إن بلغها. قالوا: فيقتل قتلا أم نموت موتا ؟ قال: بل يموت حتف أنفه بداء البطن، يثقب سريره لكثرة ما يخرج من جوفه. قال اسماعيل بن رجاء - وهو الراوي - فو الله لقد رأيت بعيني أعشى باهلة وقد أحضر في جملة الاسرى الذين أسروا من جيش عبد الرحمن بن محمد بن الاشعث بين يدي الحجاج فقرعه وونجه (؟) واستنشده بشعره الذي يحرض فيه عبد الرحمن على الحرب ثم ضرب عنقه في ذلك المجلس (١). * * * ٦ - قال عليه السلام لعمرو بن الحمق الخزاعي في حديث: يا عمرو انك لمقتول بعدي، وإن رأسك لمنقول، وهو أول رأس نقل في الاسلام، والويل لقاتلك، أما انك لا تنزل بقوم إلا اسلموك برمتك، إلا هذا الحي من بني عمرو بن عامر من الازد فإنهم لن يسلموك ولن يخذلوك. قال شمير بن سدير الازدي - وهو الراوي - فو الله ما مضت الايام حتى تنقل عمرو بن الحمق في خلافة معاوية في بعض احياء العرب خائفا مذعورا حتى نزل في قومه من بني خزاعة فأسلموه، فقتل، وحمل رأسه من العراق إلى معاوية بالشام وهو اول رأس حمل في الاسلام من بلد إلى بلد (٢).

(١) و (٢) المصدر السابق ١ - ٢٠٩.

٧ - دخل جويرية بن مسهر العبدي على علي عليه السلام يوما وهو مضطجع وعنده قوم من اصحابه، فناداه جويرية: أيها النائم استيقظ فلتضربن على رأسك ضربة تخضب بها لحيتك. قال حية العربي - وهو الراوي - فتبسم أمير المؤمنين عليه السلام وقال: وأحدثك يا جويرية بأمرك، اما والذي نفسي بيده لتتلن إلى العتل الزنيم، فليقطعن يدك ورجلك وليصلبنك تحت جذع كافر. قال حية العربي: فو الله ما مضت الايام على ذلك، حتى أخذ زياد جويرية فقطع يده ورجله وصلبه إلى جانب ابن مكعبر وكان جذعا طويلا فصلبه على جذع قصير إلى جانبه (١). * * * ٨ - قال الامام لميثم التمار يوما بمحضر من خلق كثير من أصحابه وفيهم الشاك والمخلص: يا ميتم إنك تؤخذ بعدي وتصلب، فإذا كان اليوم الثاني ابتدر منخراك وفمك دما حتى يخضب لحيتك، فإذا كان اليوم الثالث طعنت بحربة تقضي عليك فانتظر ذلك، والموضع الذي تصلب فيه على باب دار عمرو بن حريث، إنك لعاشر عشرة أقصرهم خشبة وأقربهم من المطهرة، يعني الارض، ولارينك النخلة التي تصلب على جذعها، ثم أراه إياها بعد ذلك بيومين. وقد تحققت هذه النبوءة بحذافيرها كما ذكر ذلك ابن أبي الحديد في حديث طويل يضيق به المقام (٢). * * *

---

(١) المصدر السابق ١ - ٢٠٩ - ١١٠. (٢) المصدر السابق ١ - ٢١٠ - ٢١١. دراسات في نهج البلاغة (١٣)

---

٩ - روى ابراهيم بن العباس النهدي في سند ينتهي إلى زياد بن النضر الحارثي أنه قال: كنت عند زياد وقد أتي برشيد الهجري وكان من خواص أصحاب علي عليه السلام، فقال له زياد: ما قال لك خليلك أنا فاعلون بك ؟ قال: تقطعون يدي ورجلي وتصلبونني، فقال زياد: أما والله لاكذبن حديثه، خلو سبيله، فلما أراد أن يخرج، قال: ردوه، لا نجد شيئا أصلح مما قال لك صاحبك، إنك لا تزال تبغي لنا سوءا إن بقيت، اقطعوا يديه ورجليه، فقطعوا يديه ورجليه وهو يتكلم. فقال: اصلبوه خنقا في عنقه، فقال رشيد: قد بقي لكم عندي شئ ما أراكم فعلتموه، فقال زياد: اقطعوا لسانه، فلما أخرجوا لسانه ليقطع قال: نفسوا عني أتكلم كلمة واحدة، فنفسوا عنه فقال: هذا والله تصديق خبر أمير المؤمنين أخبرني بقطع لساني، فقطعوا لسانه وصلبوه (١). * * * ١٠ - حدث سعد بن وهب، فقال في حديث: فأتيته - يعني عليا عليه السلام - في كربلاء، فوجدته يشير بيده ويقول: ههنا ههنا فقال له رجل: وما ذاك يا أمير المؤمنين ؟ فقال: ثقل لآل محمد صلى الله عليه وآله ينزل ههنا، فويل لهم منكم وويل لكم منهم، فقال له الرجل: ما معنى هذا الكلام يا أمير المؤمنين ؟ قال: ويل لهم منكم تقتلونهم وويل لكم منهم يدخلكم الله بقتلهم النار (٢). * * *

---

(١) المصدر السابق ١ - ٣٠٠ - ٢١١. (٢) المصدر السابق ١ - ٢٧٨.

---

١١ - ذكر ابن أبي الحديد تتمة خطبته في الملاحم تنبأ فيها الامام بأن السلاح سيحمل على الظهر بقوله: (.. وحتى يكون موضع سلاحكم على ظهوركم.) وكأنه يشير بذلك إلى البندقية وما إليها من الاسلحة الحديثة، وتنبأ فيها بولاية الحجاج ويوسف بن عمر (١).

* * * ١٢ - قال ابن الحديد: (.. ومن عجيب ما وقفت عليه من ذلك قوله في الخطبة التي يذكر فيها الملاحم وهو يشير إلى القرامطة: (ينتحلون لنا الحب والهوى ويضمرون لنا البغض والقلى، وآية ذلك قتلهم وراثنا وهجرهم أحداثنا. قال ابن أبي الحديد: وصح ما أخبر به، لان القرامطة قتلت من آل أبي طالب خلقا كثيرا وأسماؤهم مذكورة في كتاب مقاتل الطالبين لابي الفرج الاصفهاني. وفي هذه الخطبة قال، وهو يشير إلى السارية التي كان يستند إليها في مسجد الكوفة: كأني بالحجر الاسود منصوبا هنا، ويحهم ان فضيلته ليست في نفسه بل في موضعه وأسه، يمكث هنا برهة، ثم ههنا برهة، وأشار إلى البحرين، ثم يعود إلى مأواه وأم مثواه. ووقع الامر في الحجر الاسود بموجب ما أخبر به (٢).

---

(١) المصدر السابق ٢ - ١٣٣. (٢) المصدر السابق ٢ - ٥٠٨، وذكر ابن أبي الحديد في ٢ - ٤٩ - ٥٠ عن المدائني في كتاب صفين خطبة للامام في الملاحم خطبها بعد النهروان.

الوعظ

يحسب بعض المثقفين من ناشئة هذا الجيل أن الاسلام يدعو إلى التنكر للدنيا والتزهيد فيها واعتبارها أذى كبيرا لا يجمل بالمرء أن يصيب منه قليلا ولا كثيرا. والكتب الموضوعة للتبشير بالحضارة الغربية، عدوة كل دعوة روحية، تساعد على تركيز هذه الفكرة عن الاسلام في نفوس هؤلاء. وتسهم إسهاما كبيرا في تركيزها أيضا البرامج التعليمية المدخولة التي تهمل دور الاسلام العظيم في إنقاذ العالم وتقدمه، وإن عرضته فإنما تعرض إسلاما مشوها خاليا من الحياة. كل هذا جعل هذه الناشئة تنظر إلى الاسلام نظر ذعر وتخوف مبعثهما الجهل لا العلم، والعمى لا البصر. وتوجه هذه النظرة أيضا إلى التراث الاسلامي في ميادين الفلسفة والاخلاق والادب. ونهج البلاغة من جملة هذا التراث الذي ينظر إليه على هذا النحو. فهذا الكتاب، عند ناشئة الجيل، يحتوي على طائفة من الخطب قيلت في التزهيد بالدنيا والتنفير منها، والنعي على المتمسكين بها، والآخذين بنصيب من مباهجها وأفراحها، وهو لذلك كتاب لا يلائم روح عصرنا هذا، لانه يشل في الانسان رغبته في العمل ويعطل حس الحياة فيه، ويدفعه إلى القناعة بحياة ذليلة واهنة مظلمة شوهاء.

ولم لا ؟ ألم تصدر هذه الخطب والاقوال من رجل ركل الدنيا بقدمه، وخرج عنها، ودعا الناس إلى أن يركلوها بأقدامهم ويخرجوا عنها ؟ هذه نظرة طائفة كبيرة من شباب الجيل إلى نهج البلاغة. والاسلوب الوعظي الذي يتناول فيه كثير من الوعاظ في المساجد والمحافل مهمتهم يدعم نظرة ناشئة الجيل إلى نهج البلاغة ويعززها، فهم يتناولون مهمتهم على نحو خاطئ، لانهم يعتمدون في وعظهم اعتمادا مطلقا على التنفير من الدنيا وعلى ذمها والتزهيد فيها

واعتبارها أذى كبيرا يحول بين الانسان وبين أن يصبح إنسانا حقا، ويجدون في نهج البلاغة على الخصوص معينا لا ينضب من الشواهد على ما يقولون. * * * إننا إذ نرجع إلى مبادئ الاسلام لنتعرف على وجهة نظره إلى الدنيا نجد هذه المبادئ تشجع الاقبال على الدنيا، وتحترم العمل، وتمجد العامل، وتعنى بنشاط الانسان الدنيوي كما تعنى بنشاطه الاخروي، يدل على ذلك ما شرعه الاسلام من قوانين تتناول جميع ألوان نشاطه الدنيوي. والامام عليه السلام هو أعظم أصحاب النبي (ص) فهما للاسلام ووعيا لاسراره فلا يعقل أن يقول شيئا يخالف روح الاسلام العامة ونظرته الشاملة إلى الانسان. ولكننا نرجع إلى نهج البلاغة فنجده مكتظا بالتنفير من الدنيا، وردع الناس عنها. فكيف نلائم بين ما نراه في نهج البلاغة، وبين ما نعرفه عن الامام عليه السلام. الذي أراه هو أن الوعاظ والناشئة جميعا راحوا ضحية خطأ كبير سبب لهم سوء الفهم وسوء التأويل لما جاء في نهج البلاغة من ذم الدنيا.

فعندما نريد أن نفهم نصا من النصوص يتضمن رأيا في الانسان وفي مصيره يجب علينا أولا أن نفهم الثقافة التي صدر عنها هذا النص، ثم يجب علينا ثانيا أن نفهم الواقع التأريخي الذي صدر فيه النص، فإذا تم لنا من ذلك ما أردنا وضعنا النص في إطاره التاريخي الخاص وأحطناه بظروفه النفسية المعينة، وفسرناه من وجهة نظر الثقافة التي ألهمته قائله، فحينئذ يتهيأ لنا أن نفهم النص فهما صحيحا. أما حين نجرد النص من إطاره التأريخي، ثم ننظر إليه بغير الروح التي صدر عنها، فإن أملنا بالفهم الصحيح يكون عقيما لاننا حينئذ لن نحصل على الفهم الصحيح أبدا. وهنا يكمن الخطأ الكبير الذي انزلق إليه من حسب نهج البلاغة كتابا يدعو إلى رفض الحياة الدنيا والتنفير عنها. إن هؤلاء حينما ذهب بهم الوهم هذا المذهب كانوا على جهل بالمثل الاعلى للحياة في الاسلام من جهة أولى، وكانوا على جهل بنظرة الاسلام الواقعية إلى الحياة والموت والمال من جهة ثانية، وكانوا على جهل بالواقع التاريخي الذي صدر فيه القسم الوعظي من نهج البلاغة من جهة ثالثة. فعلينا لكي نفهم القسم الوعظي من نهج البلاغة فهما صحيحا أن نعني بفهم هذه الامور الثلاثة، وسيكون هذا سببا في دراسة الواقع الاجتماعي في زمان الامام دراسة (؟) موسعة.

---

(١) ونبدأ بالمثل الاعلى للحياة في الاسلام. لقد عرفنا أن المثل الاعلى للحياة في الاسلام هو التقوى. وقد فهمنا أن التقوى هي الفضيلة في أرفع معانيها، وعرفنا أن الانسان المتقي هو الانسان الذي وعى وجود الله وأمره ونهيه في كل ما يلم به من فعل أو قول، وجعل من نفسه خلية إنسانية حية تعمل بحرارة وإخلاص على رفع مستوى الكيان الاجتماعي الذي تضطرب فيه، وصدر في ذلك كله عن إرادة الله المتجلية فيما شرع من أحكام. هذا هو المثل الاعلى للحياة في الاسلام، فما الذي يحول بين الانسان وبين بلوغه ؟. الذي يحول بين الانسان وبين بلوغ هذا المثل الاعلى هو أن تقفر حياته من الشعور بالله كطاقة نفسية فاعلة، ويتبع ذلك بصورة حتمية أن يفقد الدين ما له من أثر توجيهي في حياة الانسان، وإذا فقد الانسان هذين (الشعور بالله، والدين) لم تعد الجماعة التي يعيش فيها تعني بالنسبة إلى شيئا، ولا يعود يستلهم في سلوكه سوى ذاته هو، والنتيجة الطبيعية لهذا هي أن يصبح إنسانا فرديا أنانيا.

إذا استوى وجود الانسان على هذا النحو كان بعيدا عن التقوى، وكان واقعه حائلا بينه وبين التقوى. وقد قلنا إن وجه الفائدة في جعل التقوى مثلا أعلى للحياة هو أن يكون مفهوم الطبقة الذي يستتبع حكما تقويميا لطائفة من الناس منبثقا من التقوى، بدلا من أن ينبثق هذا المفهوم من الاقتصاد أو الحرب، وبذلك تكون الطبقات ظاهرة اجتماعية تعود على المجتمع بالخير، بدلا من أن تكون تعبيرا حادا عن التفسخ الاجتماعي. فإذا عدنا لنرى واقع المجتمع الاسلامي في الوقت الذي ولي فيه الامام الحكم ألفيناه مجتمعا مريضا منحرفا فقد الدين قوته الدافعة عندهم، واستشرت الروح القبلية فيهم، وعاد المثل الاعلى للحياة عندهم المال والقوة. ويقتضينا فهم هذا الواقع أن نلم بالاسباب التي أدت إليه. * * * ولي عثمان بن عفان الخلافة بعد عمر بن الخطاب فكانت خلافته إيذانا بأفول سياسة وبزوغ عهد سياسي جديد. فلقد اتبع عثمان منذ ولي الحكم سياسة خطرة في المال والولايات. فقد طفق يهب خواصه وذوي رحمه ومن يمت إليه بنسب أو سبب الاموال العظيمة ويخصهم بالمنح الجليلة، ويحملهم على رقاب الناس. وولى على البلدان الاسلامية شبانا من بني أمية، لا يحسنون الحكم ولا السياسة، ذوي روح تسلطية عاتية، لم ينل منها الاسلام شيئا مذكورا. وهكذا كونت هذه الطبقة طبقة أريستوقراطية من الاغنياء المترفين الذين لا تزال تعتمل في صدورهم القيم البدوية الجاهلية.

وقد امتد نفوذ هذه الطبقة في خلافة عثمان امتدادا هائلا، فسيطرت على الحكم سيطرة مطلقة، وحازت الاموال العظيمة التي أفاءها الله على المسلمين، والتي كان المفروض فيها أن تذهب إلى المعدمين والفقراء، وانتشرت هذه الطبقة في طول البلاد الاسلامية وعرضها حين فتح لها عثمان باب الهجرة والتنقل في البلاد الاسلامية. والى جانب هؤلاء كانت ثمة طبقة أخرى تتألف من الاعراب وأهل البادية وكانت القوى المسلحة في الدولة الاسلامية مكونة منهم، ينضم إليهم من دخلوا في الاسلام من الامم غير العرب، هؤلاء كانوا يلقون في زمن عثمان حيفا كبيرا من طبقة الاريستوقراطيين الناشئة، الطامحة إلى مزيد من القوة والاستعلاء بسبب ما يعتمل في نفوس أفرادها من قيم البداوة. وكانت عاقبة ذلك أن تضخمت الفروق بين الطبقات تضخما كبيرا من الناحية المادية والمعنوية. وانقلبت الاثرة إلى طغيان، وانقلب الحقد إلى زئير، وتراكم الطغيان حتى وجد رد فعل طاغ في ثورة المظلومين، الذين أثقلهم الظلم الفادح، على حكومة عثمان وعلى ولاته. وكانت عاقبة ذلك كله قتل عثمان. وجاء الناس إلى الامام يطلبون منه أن يلي الحكم، ولكنه أبى عليهم ذلك، لا لانه لم يأنس من نفسه القوة على ولاية الحكم وتحمل تبعاته، فقد كان عليه السلام على تمام الاهبة لولاية الحكم، كان قد خبر المجتمع الاسلامي من أقطاره، وخالط كافة طبقاته، وراقب حياتها عن كثب، ونفذ إلى أعماقها، وتعرف على الوجدان الطبقي الذي يشدها ويجمعها. وقد مكنه من ذلك كله المركز الفريد الذي كان يتمتع به من النبي صلى الله عليه وآله،

فهو وزيره ونجيبه، وأمين سره، وقائد جيوشه، ومنفذ خططه، ومعلن بلاغاته.. هذه المنزلة الفريدة التي لم يكن أحد من الصحابة يتمتع بها أعدته إعدادا تاما لمهمة الحكم. وقد كان النبي يبتغي من وراء إناطة هذه المهام كلها به إعداده للمنصب الاسلامي، ليصل إليه وهو على أتم ما يكون أهلية واستعدادا. ولقد غدا من نافلة القول أن يقال أنه عليه السلام هو الخليفة الذي كان يجب أن يلي حكومة النبي في المجتمع الاسلامي. وإذا لم يقدر له أن يصل إلى الحكم بعد النبي فإنه لم ينقطع عن الحياة العامة، بل ساهم فيها مساهمة خصبة، فقد كان أبو بكر ثم عمر ومن بعدهما عثمان لا يسعهم الاستغناء عن آراءه في السياسة والقضاء والحرب، وخاصة في خلافة عثمان فقد كان فيها على أتم الصلة بالتيارات التي تمخر المجتمع الاسلامي، لكن عثمان لم ينتفع كثيرا بالتوجيه الذي كان الامام يقدمه إليه لان بطانة متعفنة كانت تحيط بهذا الخليفة. فأنت ترى أنه لم يأب الحكم لانه لم يأنس من نفسه القوة عليه، وإنما أباه لامر آخر: لقد كان يرى المجتمع الاسلامي وقد تردى في هوة من الفوارق الاجتماعية التي ازدادت اتساعا بسبب السياسة التي اتبعها ولاة عثمان مدة خلافته. ولقد كان يرى التوجيهات الدينية العظيمة التي عمل النبي طيلة حياته على إرساء أصولها في المجتمع العربي قد فقدت فاعليتها في توجيه حياة الناس. وكان عليه السلام يعرف السبيل الذي يرد الاشياء إلى نصابها، فإنما صار الناس إلى واقعهم هذا لانهم فقدوا الثقة بالقوة الحاكمة التي تهيمن عليهم. فقدوا الثقة بهذه القوة كناصر للمظلوم وخصم للظالم، فراحوا يسعون إلى إقرار حقوقهم

وصيانتها بأنفسهم. وهكذا، رويدا رويدا انقطعت الصلة بينهم وبين الرموز المعنوية التي يجب أن تقود حياتهم. والسبيل إلى تلافي هذا الفساد كله هو إشعار الناس أن حكما صحيحا يهيمن عليهم، لتعود إلى الناس ثقتهم الزائلة بحكامهم. ولكن شيئا كهذا لم يكن سهلا قريب المنال، فهناك طبقات ناشئة لا تسيغ مثل هذا، ولذلك فهي حرية أن تقف في وجه كل برنامج إصلاحي وكل محاولة تطهيرية، ولذلك أبى عليهم قبول الحكم، لانه قدر - وقد أصاب - انه سيلاقي معارضة عنيفة من كل طبقة تجد صلاحها في أن يبقى الفساد على حاله. لاجل هذا قال للجماهير يوم هرعت إليه تسأله أن يلي الحكم: (دعوني والتمسوا غيري، فإنا مستقبلون أمرا له وجوه وألوان، لا تقوم له القلوب، ولا تثبت عليه العقول (١)، وإن الآفاق قد أغامت (٢) والمحجة قد تنكرت (٣)، واعلموا اني إن أجبتكم ركبت بكم ما أعلم، ولم أصغ إلى قول القائل، وعتب العاتب، وإن تركتموني فأنا كأحدكم، ولعلي أسمعكم وأطوعكم لمن وليتموه أمركم، وأنا لكم وزيرا خير لكم مني أميرا) (٤).

---

(١) لا تصبر له، ولا تطيق احتماله. (٢) أغامت: غطيت بالغيم. (٣) المحجة: الطريق المستقيمة. تنكرت: تغيرت معالمها فصارت مجهولة. (٤) نهج البلاغة، رقم النص: ٩٠.

ولكن القوم أبوا عليه إلا أن يلي الحكم، وربما رأى عليه السلام انه إذا لم يستجب لهم فربما توثب على حكم المسلمين من لا يصلح له، فيزيد الفساد فسادا، ورجا أن يخرج بالناس من واقعهم الاجتماعي التعس الذي أحلتهم فيه اثنتا عشرة سنة مضت عليهم

في خلافة عثمان، إلى واقع أنبل وأحفل بمعاني الاسلام، وهكذا استجاب لهم، فبويع خليفة للمسلمين. ولقد دأب، بعد أن بويع، على بيان الهدف الذي ابتغى من وراء ولاية الحكم، وذلك بأن يكون في مركز يمكنه من أن يصلح ما يفتقر إلى الاصلاح من شؤون الناس، وأن يرفع عن المظلومين فادح ما رزحوا تحته من ظلم، فتراه يقول: (. أما والذي فلق الحبة، وبرأ النسمة (١)، لولا حضور الحاضر (٢) وقيام الحجة بوجود الناصر (٣)، وما أخذ الله على العلماء ألا يقاروا على كظة (٤) ظالم ولا سغب (٥) مظلوم، لالقيت حبلها على غاربها (٦)، ولسقيت آخرها

---

(١) برأ: خلق. والنسمة: الروح. (٢) من حضر لبيعته من الناس. (٣) أي أنه مع وجود المقاتلين الناصرين للحق لا يجوز القعود عن التصدي للقيام بمهمات الحكم والاصلاح. فوجود الانصار على الحق حجة على القائد لابد معها من الحركة والقيام بالامر. (٤) الكظة: ما يعتري الآكل من الضيق عند امتلاء البطن بالطعام. والمراد هنا تعدي الظالم على حقوق الناس. (٥) السغب: شدة الجوع. والمراد هنا هضم حقوق الضعيف. (٦) الغارب: الكاهل، الناقة حين يتركها قائدها فلا يقودها يرخي لها الخطام، فالكلام تصوير للترك وإرسال الامر.

بكأس أولها، ولالفيتم دنياكم هذه أزهد عندي من عفطة (١) عنز (٢). وقال: (اللهم إنك تعلم انه لم يكن الذي كان منا منافسة في سلطان، ولا التماس شئ من فضول الحطام (٣)، ولكن لنرد المعالم (٤) من دينك، ونظهر الاصلاح في بلادك، فيأمن المظلومون من عبادك، وتقام المعطلة من حدودك) (٥). وقال: (ولكني آسى (٦) أن يلي (٧) أمر هذه الامة سفهاؤها وفجارها، فيتخذوا مال الله دولا (٨)، وعباده خولا (٩)، والصالحين حربا (١٠)،

---

(١) عفطة العنز ما تنثره من فمها. (٢) نهج البلاغة، رقم النص: ٣١ (جزء من الخطبة الشقشقية). (٣) الحطام: ما يحطم ويتفتت من عيدان الزرع إذا يبس. والمراد هنا: متاع الحياة الدنيا. (٤) المعالم جمع معلم - بفتح، فسكون، - وهو الاثر الذي يستدل به على الطريق. (٥) نهج البلاغة، رقم النص: ١٢٩. (٦) آسي: فعل مضارع من (أسيت عليه) أي حزنت، والمراد انه (ع) يحزن أن يتولى أمر الامة السفهاء والفجار. (٧) يلي: يحكم الامة. (٨) دولا: أي شيئا يتداولونه بينهم، كأن الحكم لعبة أو كرة يتقاذفونها. (٩) خولا: أي عبيدا. (١٠) حربا.. أي يحاربون الصالحين، وينصرون الفاسقين، ويتخذونهم حزبا لهم.

والفاسقين حزبا، فان منهم الذي قد شرب فيكم الحرام (١)، وجلد حدا في الاسلام، وان منهم من لم يسلم حتى رضخت له (٢) على الاسلام الرضائخ.) (٣). لاجل هذا كله قبل عليه السلام أن يتولى الحكم. وما أن بويع حتى عالن الناس بسياسته التي عزم على اتباعها من أجل تحقيق الاهداف التي قبل الحكم لاجلها. وقد عرفت أن هذه السياسة لم تكن شيئا مرتجلا اصطنعه لنفسه يوم ولي الخلافة، وإنما كانت خططا مدروسة ومنتزعة من الواقع الذي كان يعانيه المجتمع الاسلامي آنذاك، ومعدة لان تبلغ بهذا المجتمع خطوات إلى أمام، ومهيئة لتنيل هذا المجتمع المطامح التي كان يحلم بها ويصبو إليها. * * * وقد كانت إصلاحاته السياسة تتناول ثلاثة ميادين: الادارة، والحقوق، والمال. أ - الادارة: ففيما يرجع إلى سياسة الادارة عزل ولاة عثمان عن الامصار، هؤلاء الولاة الذين كانوا السبب المباشر في الثورة لظلمهم وبغيهم وعدم درايتهم بالسياسة

وأصول الحكم، وولى من قبله رجالا ذوي دين وعقل وبعد نظر وحسن تدبير.

---

(١) الحرام: الخمر. (٢) الرضائخ: العطايا، ورضخت له: أعطيت له. وقالوا أن عمروا بن العاص لم يسلم حتى طلب عطاء من النبي (ص) فلما أعطاه أسلم. (٣) نهج البلاغة (باب الكتب) من كتابه إلى أهل مصر مع مالك الاشتر لما ولاه إمارتها، رقم النص: ٦٢.

ب - الحقوق: وفيما يرجع إلى الحقوق نادى بأن المسلمين جميعا سواء في الحقوق والواجبات في الاسلام، وقد كانت هناك فروق حقوقية جاهلية نسفها الاسلام ولكن عهد عثمان أعادها، فقريش ذات الماضي العريق في السيادة على القبائل العربية عادت في زمن عثمان فأتلعت جيدها وأعادت تلك الفروق، فغدا أناس ليس لهم ماض مشرف بالنسبة إلى الاسلام ونبيه يتعالون على أعظم المسلمين جهادا وسابقة وبلاء، لمجرد أنهم قرشيون.. هذه الفروق المعنوية الجاهلية حطمها الامام، فقال: (الذليل عندي عزيز حتى آخذ الحق له، والقوي عندي ضعيف حتى آخذ الحق منه) (١). ج - المال: وفيما يرجع إلى سياسية المال وقف موقفا صارما، فصادر جميع ما أقطعه عثمان من القطائع وما وهبه من الاموال العظيمة لطبقة الاريستو قراطيين، وقد صرح بذلك في أول خطبة خطبها بعد خلافته، فقال: (أيها الناس ! إني رجل منكم، لي ما لكم وعلي ما عليكم، وإني حاملكم على منهج نبيكم، ومنفذ فيكم ما أمر به، ألا وان كل قطيعة أقطعها عثمان، وكل مال أعطاه من مال الله، فهو مردود في بيت المال فإن الحق لا يبطله شئ، ولو وجدت قد تزوج به النساء، وملك الاماء، وفرق في

---

(١) نهج البلاغة، رقم النص: ٣٧.

البلدان لرددته، فإن في العدل سعة، ومن ضاق عليه الحق فالجور عليه أضيق) (١). وكانت سنة رسول الله صلى الله عليه وآله في توزيع الاموال هي التسوية بين الفاضل والمفضول، لان النظر في هذا الامر إلى الحاجة لا إلى الفضل، ولان الفضل ليس عرضا يشرى ويباع، ولان الفاضل يجد عند الله وعند الناس ثواب فضله، ولكن أبا بكر وعمر فضلا بعض الناس على بعض، وإذا كانا قد فضلا فإنهما قد فعلا ذلك بحكمة أما عثمان فقد فضل دون مقياس للتفضيل، وبذلك زاد التفاوت بين الطبقات فحشا وبعدا، فلما جاء الامام عليه السلام عدل عن هذه السياسة وسوى بين الناس في العطاء. وبقدر ما كانت هذه السياسة مصدر جذل وفرح للطبقة المستضعفة الفقيرة الرازحة تحت أثقال من الظلم كانت أيضا صفعة مدوية لقريش ولغرورها وخيلائها واستعلائها على الناس. فمن أين لها بعد اليوم أن تحوز الاموال العظيمة دون أن تنفرج شفتان تقولان لها: من أين لك هذا. وكيف لها بعد اليوم أن تستعلي، وتستبد، وتفرض على الناس في ظل الاسلام سلطانها عليهم في الجاهلية ؟. وكانت هذه السياسة صفعة مدوية لزعماء القبائل العربية الذين كانوا يقبضون ليسكتوا. وكانت هذه السياسة صفعة مدوية لمن مالا ولاة عثمان على سياستهم من أهل المدينة وغيرهم.

(١) نهج البلاغة، رقم النص: ١٥ ولم يذكر الشريف الرضي هذا النص بتمامه، وإنما ذكره ابن أبي الحديد، وغيره من شراح نهج البلاغة.

وكانت صفعة مدوية لولاة عثمان المعزولين، المجردين من السلطان، الذين ينتظرهم مصير لا يحسدون عليه عند الحاكم الجديد، بما ظلموا، وأساءوا السيرة، وجاروا على الرعية. كل هؤلاء أورثهم كربا شديدا مصير الحكم إلى علي بن أبي طالب، ولعلهم قد فكروا أن يساوموه على بذل طاعتهم له، على أن يغضي عما سلف منهم، ويأخذهم باللين والهوادة فيها يستقبلون، فأرسلوا إليه بعض زعماء بني أمية يقول له: (يا أبا الحسن. انك قد وترتنا جميعا.. ونحن نبايعك على أن تضع عنا ما أصبناه من المال أيام عثمان..) (١). ولكنه أبى عليهم ذلك وأصر على أن يحملهم على الخطة التي يريد، والتي يرى الصلاح في اتباعها. * * * وقد حدث رد الفعل عند هؤلاء في حرب الجمل، التي كانت تدبيرا دبره من لم يماش الحكم الجديد أهواءهم من بني أمية وغيرهم من ولاة عثمان إلا أن الحركة في صميمها كانت أموية خالصة. وقد كان القائمون بهذه الحركة يريدون أن يعطفوا أزمة الحكم إلى جانبهم بعد أن صفرت أيديهم من مساعدة الامام لهم على ما يبتغون. ولكن الامام عليه السلام قضى على الحركة في مهدها، ففر من أخطأه السيف، ممن تولى كبرها، إلى الشام. * * *

(١) شرح النهج، ٢ - ١٧٢.

وانتقل الامام، بعد أن فرغ من أمر الجمل، بحكومته من الحجاز إلى العراق، واتخذ الكوفة قاعدة لحكمه. والكوفة يومئذ مركز الثقل في المجتمع الاسلامي الناشئ. وفي العراق استمر الامام على سياسته المالية والادارية التي استنها لنفسه، وأذاعها في الناس، فالمساواة في الاعطية أمر مفروغ منه، ومؤاخذة العمال على الصغيرة والكبيرة، ومراقبتهم وإذكاء العيون عليهم أمر لازم لا معدى عنه. وكانت العناصر المسلمة غير العربية كثيرة في الكوفة، فكانت تضم عددا كبيرا من الفرس وغيرهم ممن دخلوا في الاسلام، وكان هؤلاء يحتلون طبقة اجتماعية منحطة في نظر العرب ذوي النزعة القبلية، وكان من العسير على العربي أن يتصور أنه مساو في القيمة لهؤلاء، ولذلك كان يطمح إلى أن يتميز عليهم، ولكن الامام عليه السلام لم يلق بالا إلى كل هذا، فالمساواة مبدأ شامل يسري على كل فرد عربيا كان أو أعجميا. لقد كان حريا بهذه السياسة الواعية لآلام الشعب وآماله، الطامحة إلى إسعاده، أن تنجح لو لم تعاكسها سياسة أخرى. ففي الوقت الذى قامت فيه حكومة الامام في الكوفة، قامت حكومة أخرى في الشام برياسة معاوية بن أبي سفيان. وبينما كانت حكومة الامام تسير على نهج إسلامي خالص، أي أنها كانت تحقق للرعية أقصى قدر مستطاع - في ظروفها الاقتصادية والسياسية والعسكرية - من الرفاهية والامن والعدالة، كانت حكومة معاوية تسير على نهج آخر في الحكم يقوم على شراء الضمائر بالمال، وتفضيل طائفة على حساب حرمان طائفة اخرى، وتعطيل السبل، وتعكير الامن. ولم يكن معاوية يبالي في أن ينزل بدافعي الضرائب من الزراع والتجار

أفدح الظلم، في سبيل أن يحصل منهم على مزيد من المال يغذي به أطماع حفنة من رؤساء القبائل العربية يؤلفون جهازه العسكري المتأهب دائما لقمع أي حركة تحررية تقوم بها جماعة من الناس. وقد آتت هذه السياسة أكلها جيدا في العراق. فقد كان رؤساء القبائل في العراق يرون سياسة معاوية فيعجبون بها، فهي تلبي ما يطمحون إليه من غنى ووجاهة وارتفاع قدر، بينما هم لا يجدون شيئا من هذا في حكومة الامام. وقد كان المجتمع العراقي قبليا، فلكل قبيلة رئيسها وأشرافها وتقاليدها وأمجادها. والرجل ذو الروح القبلية - كما يثبت علم الاجتماع - عالمه قبيلته، فهو ينفعل بانفعالاتها، ويطمح إلى ما تطمح إليه، ويعادي من تعادي، وينظر إلى الامور من الزاوية التي تنظر منها هذه القبيلة، وذلك لانه يخضع للقيم القبلية التي تدين بها هذه القبيلة. وتتركز مشاعر القبيلة كلها في رئيسها، فالرئيس في المجتمع القبلي هو المهيمن، والمرجع، والموجه الاوحدي للقبيلة كلها. فيكفي أن يقول الرئيس كلمة لتصبح قانون القبيلة كلها، ويكفي أن يتخذ موقفا ليكون موقف القبيلة كلها، ولا أحسب أن من يتعالون على هذا الاسر يتجاوزون أصابع اليدين كثيرا. هذه هي طبيعة المجتمع القبلي. وقد أثر الاسلام على هذه الطبيعة بلا شك، ولكن التأثير لم يكن حاسما، فقد وقعت في الحقب السياسية التي خلفت النبي أخطاء سببت عودة الروح القبلية على أشدها. وإذا عرفنا هذا وسعنا أن نفهم الاثر البعيد الذي كانت تتركه سياسة معاوية في المجتمع العراقي أبان ذلك العهد.

فهذا المجتمع قبلي يدين لرؤسائه بالطاعة المطلقة. وهؤلاء الرؤساء يطمحون إلى مزيد من القوة والسلطان والغنى والمنزلة الاجتماعية ولا يجدون شيئا منها عند الامام بينما هم يجدونها عند معاوية كما يشتهون. ويقول هؤلاء الرؤساء إن حكومة معاوية خير من حكومة علي وهي خير لهم بلا إشكال، وتسمع القبيلة كلها مقالة زعيمها فتدين بها، غير واعية أن حكومة معاوية ان كانت خيرا لرؤسائها فحكومه علي خير لها، وذلك لان هذه تستن المساواة سياسة لهما بينما تستن تلك سياسة الاثرة، وهم لا يعون هذا، لانهم ينظرون إلى الامور بالمنظار الذي ينظر به الرؤساء. على هذا النحو كانت سياسة معاوية تؤثر في العراق، وقد وعى ذلك جماعة من المخلصين للامام فقالوا له: (يا أمير المؤمنين أعط هذه الاموال، وفضل هؤلاء الاشراف من العرب وقريش على الموالي والعجم واستمل من تخاف خلافه من الناس) (١). ناظرين إلى ما يصنع معاوية، ولم يكن رؤساء القبائل العربية في العراق يطمعون بأكثر من هذا، ولكن الامام أجابهم قائلا: (أتأمروونني أن أطلب النصر بالجور فيمن وليت عليه ؟ والله ما أطور به ما سمر سمير (٢)، وما أم نجم في السماء نجما (٣)، لو كان المال لي لسويت

(١) شرح النهج، ١ - ١٨٢. (٢) ما أطور.: من (طار يطور حول الشئ) إذا حام حوله، أي: ما أمر به، ولا أقار به (ما سمر سمير) أي مدى الدهر، وهو مثل. قالوا: السمير هو الدهر. (٣) أم: قصد: أي ما قصد نجم نجما.

بينهم، فكيف وإنما المال مال الله ؟ ألا وإن إعطاء المال في غير حقه تبذير وإسراف، وهو يرفع صاحبه في الدنيا ويضعه في الآخرة ويكرمه في الناس ويهينه عند الله) (١). وقد صارت الشام ملاذا لمن يغضب عليه الامام لخيانة خانها في عمله، أو جريرة جرها على نفسه. ومطمحا لمن يريد الغنى والمنزلة، فيجد عند معاوية الاكرام، والرفعة، والعطاء، والمنزلة الاجتماعية. وقد كتب علي عليه السلام مرة إلى عامله سهل بن حنيف في شأن قوم من أهلها لحقوا بمعاوية: (وإنما هم أهل دنيا مقبلون عليها، ومهطعون إليها (٢)، وقد عرفوا العدل ورأوه، وسمعوه ووعوه، وعلموا أن الناس عندنا أسوة، فهربوا إلى الاثرة (٣) فبعدا لهم وسحقا) (٤). وقد وصف عليه السلام سياسة معاوية بقوله: (طبيب دوار بطبه، قد أحكم مراهمه، وأحمى مواسمه (٥)، يضع ذلك حيث الحاجة إليه: من

---

(١) نهج البلاغة، رقم النص: ١٢٤. (٢) مهطع: مسرع. (٣) الاثرة - بالتحريك - اختصاص النفس بالنفع، وتفضيلها على غيرها. والسحق - بضم السين - البعد. (٤) نهج البلاغة - باب الكتب - رقم النص: ٧٠. (٥) مواسمه، جمع ميسم - بكسر الميم - وهو المكواة.

قلوب عمي، وآذان صم، وألسنة بكم، متبع بدوائه مواضع الغفلة ومواطن الحيرة.) (١). وهكذا فعلت سياسة معاوية فعلها في مجتمع الامام، فتمالا رؤساء أصحابه على الخيانة، وتخاذلوا عن نصره فلا يجيبونه حين يدعوهم، ولا ينصرونه حين يستنصرهم، وما أكثر خطبه وكلماته التي أعلن فيها شكواه منهم، وبرمه بهم، من ذلك قوله عليه السلام: (يا أشباه الرجال ولا رجال ! حلوم الاطفال، وعقول ربات الحجال (٢). لوددت أني لم أركم ولم أعرفكم، معرفة والله جرت ندما، وأعقبت سدما (٣). قاتلكم الله ! لقد ملاتم قلبي قيحا، وشحنتم صدري غيظا، وجرعتموني نغب التهمام أنفاسا (٤)، وأفسدتم علي رأيي بالعصيان والخذلان، حتى قالت قريش: إن ابن أبي طالب رجل شجاع، ولكن لا علم له بالحرب..) (٥). وقد ظهر أثر هذه السياسة على أشده بعد صفين، فحين انتهت مهزلة التحكيم

---

(١) نهج البلاغة، رقم النص: ١٠٦. (٢) حجال: جمع حجلة، وهي القبة تكون فيها المرأة، وموضع يزن بالثياب للعروس. وربات الحجال: النساء. (٣) السدم: الهم مع أسف أو غيظ. (٤) النغب: بمعنى جرع، وعلى وزنها، وهي جمع نغبة كجرعة، وبمعناها. والتهمام - بالفتح - الهم. وقوله (انفاسا) أي جرعة بعد جرعة. (٥) نهج البلاغة، رقم الخطبة: ٢٧.

- كما شاء دهاء عمرو بن العاص وغباء أبي موسى الاشعري أو سوء نيته - دأب معاوية على إرسال جيوش صغيرة سريعة فتضرب، وتقتل، وتنهب، وتروع الآمنين دون أن يعترضها معترض. فإذا ما دعا الامام رؤساء أصحابه إلى اللحاق بها تقاعسوا عنه وصموا أسماعهم دونه. وأظهر مصاديق هذه الخيانة تجلت يوم سير معاوية جيوشه إلى مصر، فقد دعا الامام رؤساء أصحابه إلى إنجاد محمد بن ابي بكر قبل أن تفوت الفرصة وتملك عليهم مصر، فلم يجبه منهم مجيب حتى انتهى الامر بسقوط مصر في يد معاوية ومقتل محمد بن ابي بكر رحمه الله. وقد كان عليه السلام يعرف كيف يجعلهم إلى صفه لو أراد، فيفضلهم، ويعطيهم الاموال، ويحملهم على رقاب الناس، ويرضي غرورهم القبلي، ولكن ذلك كان ينقلب به إلى جبار يدعم

ملكه بالسيف، بدل أن يكون أبا للرعية تدعم سلطانه القلوب. لقد قال لهم مرة: (.. وإني لعارف بما يصلحكم ويقيم أودكم (١)، ولكني لا أرى إصلاحكم بإفساد نفسي) (٢). * * * هذا هو الواقع الاجتماعي والسياسي الذي كان عليه مجتمع الامام. ومن الجلي ان مجتمعا يمارس حياته الاجتماعية والسياسية على هذا النحو مجتمع بعيد عن التقوى بعدا شاسعا، فالتقوى والقبلية شيئان متضادان، والتقوى

---

(١) أودكم: إعوجاجكم. (٢) نهج البلاغة، رقم النص: ٦٧.

ونصرة الباطل شيئان متضادان، والتقوى وحب الاثرة والتكبر شيئان متضادان. هذا الواقع كيف كان يسع الامام أن يعدله، هل كان عليه أن يجاري أهواء أصحابه فيبذل لهم ما تطمح إليه أنفسهم ؟. لقد قال: (أتأمروننني أن أطلب النصر بالجور.). هل يقتلهم ؟ إن ذلك كفيل بإحراج مركزه وإثارة الناس عليه. هل ينفيهم ؟ إن ذلك يدفعهم إلى المجاهرة بولائهم لمعاوية وبذلك يجرون وراءهم قبائلهم. لقد كان آمن المواقف معهم ابقاؤهم تحت سمعه وبصره، إن قعدوا عن نصرته لا يستطيعون نصرة عدوه. ثم حاول أن يبدل نظرة الناس إليهم ويبدل نظرتهم إلى هذه المطامح التي يطمحون إليها بوسيلتين: الاولى: - وقد كان يتوجه بها إلى الرجل العادي - هي محاربة النزعة القبلية. فقد كان عليه السلام يعلم ان قوة هؤلاء الرؤساء مستمدة من إيمان قبائلهم بهم، فإذا تزعزع هذا الايمان لم يعد لهم من قيمة. الثانية: هي الموعظة، وهو بين فيها للرؤساء أن ما يطمحون إليه وهم من الوهم، وان حاضرهم خير لهم من دنيا يصيبونها عن طريق الخيانة والغدر ونصرة الباطل. وسنرى أن الالوان الوعظية في نهج البلاغة تدور حول هذا القطب. وقد كان يتوجه بهذه المواعظ أيضا إلى الافراد العاديين الذين يخشى من أن يفتنهم رؤساؤهم بتحبيب دنيا معاوية إلى أنفسهم. ولعل هذا يفسر كثرة تكرار الامام لمواعظه. فقلما ترى خطبة من خطبه

خالية عن الموعظة. إنه كان يقصد من وراء هذا التكرار أن يثبت توجيهاته في ضمائرهم، لتكتسب هذه التوجيهات قوة الطاقة الشعورية فيأمن زيغهم وانحرافهم. هذا عن الحالة السياسية والاجتماعية التي كانت تسود عصره عليه السلام وعن صلتها بالقسم الوعظي من النهج. * * * راجع في تعليل طلبه للحكم وسياسته النصوص التالية: ٣ (الشقشقية) و ١٥ و ٣٧ و ٨٥ و ٩٠ و ١٢٤ و ١٢٩ و ١٥٧ و ٢٢٢ و ٢٣٠ وكتابه إلى عثمان بن حنيف الانصاري عامله على البصرة - باب الكتب - رقم النص: ٤٥ وكتابه إلى أهل مصر مع مالك الاشتر لما ولاه امارتها - باب الكتب - رقم النص ٦٢. وراجع في ذمه لاصحابه وتبرمه بهم النصوص التالية: ٢٥ و ٢٧ و ٢٩ و ٣٤ و ٣٩ و ٦٧ و ٦٩ و ٩٥ و ١٠٤ و ١٦٠ و ١١٧ و ١٢٣ و ١٦٤ و ١٧٨ و ١٨٠ و ١٩٠ (القاصعة) وكتابه إلى عبد الله بن عباس بعد مقتل محمد بن أبي بكر - باب الكتب - رقم النص: ٣٥ وكتابه إلى سهل بن حنيف عامله على المدينة في معنى قوم من أهلها لحقوا بمعاوية - باب الكتب - رقم النص: ٧٠ ورقم: ٢٦١ في المختار من حكم أمير المؤمنين.

[٢٢١]

(٢) في الخلق (١) العربي الاصيل ظاهرة جديرة بالتنويه، حقيقة بالشرح، لانها مفتاح كثير من الاخلاق العربية الكريمة. هذه الظاهرة التي عنيت هي (الواقعية) كما يفهمها العربي ويسير على ضوئها في الحرب، ومنع الجار، ونصر الضعيف، وبذل المال. وطلب اللذة. إن الموت حتم على كل إنسان ومصير لكل حي. وموعد الموت مجهول غامض فلا يدري متى يحل ويأزف، وكما يدخل في الظن أن يكون بعيدا يدخل في الظن كذلك أن يكون قريبا. وماذا بعد الموت ؟ إنه القبر والوحدة والوحشة. والمصير إلى القبر لازم فلا مفر منه ولا معدى عنه. والدنيا ؟.. أليس التقلب طبعا أصيلا فيها ؟ أليس التلون ملازما لها ؟ فقد ينقلب الحال بالعزيز إلى الذل، وبالغني إلى الفقر، بالصحيح إلى المرض، وبالسعيد إلى الشقاء.

---

(١) فكرة هذا الفصل مقتبسة من الاستاذ عبد اللطيف شرارة في كتابه: روح العروبة، من فصل قيم أدار فيه الحدث حول ظاهرة الكرم العربي وقد نقلنا عنه الشواهد الشعرية الاربع الاول، ونقلنا بقية الشواهد عن كتاب البخلاء للجاحظ.

[٢٢٢]

وإذا كان هذا كله حقا فلماذا أصد النفس عن اللذة حين تشتهي اللذة ؟ ولماذا الفرار من الحرب حين تستعر الحرب ؟ ولماذا إمساك اليد عن بذل المال حين يفد صاحب الحاجة الفقير، وصاحب الغرم الثقيل ؟. ان أيامنا على الارض معدودة، ونهايتنا بعد الحياة الموت، وبعد الموت القبر، وبعد ذلك في حسبان الجاهليين - النسيان والفراغ، فلماذا لا نمتع أنفسنا بلذاتها ؟ ولماذا نمسك أيدينا عن صنع وجود كريم لنا يبقى بعد ذهابنا في قلوب الناس وعلى ألسنتهم بما نصنع من خير، وبما نسدي من معروف ؟ ان العجز كل العجز، والخرق كل الخرق أن يتمرد انسان على واقعه فيظن الخلود لنفسه، ويدفعه ذلك إلى إمساك يده عن البذل، وإمساك نفسه عن الحرب، والظن عليها بلذتها. هذه النظرة الواقعية ليست شيئا مرتجلا، وإنما هي نتاج تفكير يفلسف الحياة والموت، وتقلب الانسان بينهما، وهي أكثر ما تكون شيوعا في الشعر العربي. إسمع طرفة بن العبد كيف يقول في تعليل إسرافه في إنفاقه، وإسرافه في ملاذه، وعدم إمساك يده عن البذل، وعدم إمساك نفسه عن اللذة: أرى قبر نحام (١) بخيل بماله * كقبر غوي في البطالة مفسد ألا أيها ذا اللائمي أحضر الوغى * وأن أشهد اللذات هل أنت مخلدي ؟ فإن كنت لا تستطيع دفع منيتي * فدعني أبادرها بما ملكت يدي

---

(١) النحيم: الزحير والتنحنح، وذلك لان البخيل إذا طلبت إليه حاجة كثر سعاله عندها ليداري ارتباكه.

[٢٢٣]

ويقول يزيد بن الحكم الثقفي وهو ينصح ابنه: ما بخل من هو للمنون * وريبها غرض رجيم ؟ ويرى القرون أمامه * همدوا كما همد الهشيم (١) ! * * * وحاتم الطائي يقول لزوجته: أماوي ما يغني الثراء عن الفتى * إذا حشرجت يوما وضاق بها الصدر ؟ أماوي إن

يصبح صداي (٢) بقفرة * من الارض لا ماء لدي ولا خمر تري أن ما أنفقت لم يك ضرني * وأن يدي مما بخلت به صفر (٣) * * * وأياس بن القائف يقول: يقيم الرجال الاغنياء بأرضهم * وترمي النوى (٤) بالمقترين (٥) المراميا فأكرم أخاك الدهر ما دمتما معا * كفى بالممات فرقة وتنائيا * * *

---

(١) الهشيم: اليابس من النبت. (٢) صداي: الصدى، ذكر البوم. والصدى: الذي يجيبك بمثل صوتك في الجبال وغيرها. والصدى: العطش. والصدى هنا: ما يبقى من الميت في قبره، يكني الشاعر بذلك عن الوحدة والوحشة. (٣) الصفر - بالكسر -: الخالي، (بيت صفر) خال من المتاع. ورجل صفر اليدين: ليس فيها شئ. (٤) النوى: البعد. يقولون: (بعدت نواهم) إذا بعدوا بعدا شديدا. (٥) المقترين جمع مقتر: الفقير المقل.

---

[٢٢٤]

وقال النمر بن تولب: وحثت على جمع ومنع، ونفسها * لها في صروف الدهر (١) حق كذوب وكائن رأينا من كريم مرزأ (٢) * أخي ثقة، طلق اليدين وهوب شهدت، وفاتوني وكنت حسبتني * فقيرا إلى أن يشهدوا وتغيبي أعاذل إن يصبح صداي بقفرة * بعيدا نآني صاحبي وقريبي تري أن ما أبقيت لم أك ربه * وأن الذي أمضيت كان نصيبي وذي إبل يسعى ويحسبها له * أخي نصب (٣) في رعيها ودؤوب غدت وغدا رب سواه يسوقها * وبدل أحجارا وجال قليب (٤) * * وقال أيضا: قامت تباكي أن سبأت (٥) لفتية * زقا (٦) وخابية بعود مقطع (٧) وقريت في مقرى (٨) قلائص أربعا * وقريت بعد قرى قلائص (٩) أربع

---

(١) صروف الدهر: تقلباته ومصائبه. (٢) رجل مرزأ: أي كريم، يصيب الناس خيره. (٣) النصب: التعب والجهد. (٤) القليب: البئر. والجال: جدار البئر. (٥) سبأ الخمر: إذا اشتراها ليشربها. ولا يقال ذلك إلا في الخمر خاصة. (٦) الزق - بالكسر -: السقاء، أو جلد يجز شعره أو صوفه ولا ينتف، يتخذ للشراب وغيره. (٧) العود: الجمل المسن. والمقطع - بفتح الطاء - فحل الابل الذي انقطع عن الضراب. يريد الشاعر أن صاحبته تباكت أسفا على أن اشترى لاصدقائه خمرا ببعير مسن انقطع عن الضراب لا خير في لحمه ولا ينسل. (٨) المقرى - بكسر الميم -، وسكون القاف، وفتح الراء - أناء يقرى فيه الضيف وقريت الضيف: أحسنت إليه. (٩) قلائص: جمع قلوص: والقلوص من النوق الشابة، وهي بمنزلة الجارية من النساء.

---

[٢٢٥]

أتبكيا من كل شئ هين ؟ * سفه بكاء العين ما لم تدمع فإذا أتاني إخوتي فدعيهم * يتعللوا بالعيش أو يلهوا معي لا تطرديهم عن فراشي إنه * لابد يوما أن سيخلو مضجعي هلا سألت بعادياء (١) وبيته * والخل والخمر التي لم تمنع ؟ * * * وقال الحارث بن حلزة: بينا الفتى يسعى ويسعى له * تاح (٢) له من أمره خالج (٣) يترك ما رقح (٤) من عيشه * يعيث فيه همج هامج (٥) لا تكسع الشول بأغبارها (٦) * إنك لا تدري من الناتج (٧) * * *

---

(١) عادياء. مراده: السموأل بن عادياء. قوله: (هلا سألت بعادياء.) الباء هنا بمعنى (عن) مراده (هلا سألت عن عادياء.) على نحو قوله تعالى: (سأل سائل بعذاب واقع) أي عن عذاب، فالباء هنا بمعنى عن. يريد الشاعر أن يقول لصاحبته التي تلومه على بذله وكرمه أن عليها أن تسأل عن ابن عادياء الكريم الباذل لتعرف أن صاحبها مثله. (٢) تاح له الشئ، وأتيح له: قدر له. (٣) الخالج: الشاغل، يقال: خلجني كذا، أي شغلني، ويقال: خلجته امور الدنيا. (٤) رقح ماله: أصلحه. (٥) الهمج: ذباب صغير

كالبعوض يسقط على وجوه الغنم والحمير وأعينها. وقوله: هامج توكيد. يريد أن الانسان إذا أصلح عيشه واطمأن يعرض له ما يفسد حاله وينغص عليه عيشه. (٦) الكسع: أن تضرب دبر الانسان بيدك أو بصدر قدمك. والشول - بسكون الواو - النوق التي خف لبنها. والاغبار جمع غبر - بضم فسكون - بقية اللبن في الضرع. وكسعت الناقة بغبرها أي ضربت ضرعها بالماء البارد ليتراد اللبن في ظهرها. (٧) الناتج: الذي ستنتج له هذه النوق، فربما تكون أنت، وربما يكون غيرك. دراسات في نهج البلاغة (١٥)

---

[٢٢٦]

وقال الهذلي: إن الكرام مناهبوك المجد كلهم فناهب أخلف وأتلف، كل شئ ذر عنه الريح ذاهب * * * وقالت امرأة: أنت وهبت الفتية السلاهب (١) * وإبلا يحار فيها الحالب وغنما مثل الجراد الهارب * متاع أيام وكل ذاهب * * * وقال تميم بن مقبل: فأخلف وأتلف إنما المال عارة * وكله مع الدهر الذي هو آكله * * * هذه الواقعية هي في العربي خلق أصيل كما رأيت. وقد جاء الاسلام فأكدها، وهذبها، وسما بها، ووجهها وجهة اجتماعية. فإذا كان الموت شيئا لازما لنا، وكنا نعتقد بأن وراء دنيانا هذه دنيا أخرى أعظم وأحفل وأنبل، أو دنيا أخرى أنكد وأجفى وأبلغ في الايذاء فلماذا لا نعد العدة لرحيلنا، ولماذا لا يلهينا حاضرنا الحقير عن مستقبلنا المرقوب ؟

---

(١) السلهب من الخيل: الفرس الطويل على وجه الارض.

---

[٢٢٧]

ولماذا التكالب والوحشية ؟ ولماذا نصر على أخذ الدنيا عن طريق الختل والغدر ؟ ولماذا نصر على ظلم إخواننا من الناس في سبيل أن نزيد ذهبنا المكدس درهما جديدا ؟ ولماذا نباغض إخواننا في الدين والانسانية والوطن في سبيل عرض حقير ؟ فنفسد حياتنا على أنفسنا، ونفسد حياة إخواننا، ونعيش غرباء، لا تجمعنا عاطفة، ولا تصل بين قلوبنا رحمة، ولا يتألق في أعيننا لاخواننا حب. ألا يكفينا أن الموت سيفرق بيننا ؟ لا. لا. أكرم أخاك الدهر ما دمتما معا. هذه الواقعية الوادعة المحببة، وهذا الشعور الانساني الفياض الدافق، كانا غريبين عن نفوس الناس وقلوبهم في مجتمع العراق أيام الامام عليه السلام، وقد كان الامام يعمل على إعادة الشعور بها إلى النفوس، وسنجده في بعض الالوان التي احتواها القسم الوعظي من كلامه ينعى على الناس تركها، ويحضهم على الرجوع إليها، والصدور في سلوكهم عنها. * * * وثمة لون آخر من كلامه عليه السلام ربما لا يسمى وعظا، ولكنه يندد فيه بالناس على تركهم لهذا اللون من النظر إلى الحياة والموت، ويدعوهم إلى الرجوع إليه. قال: (. وقد أصبحتم في زمن لا يزداد الخير فيه إلا إدبارا، والشر إلا إقبالا، ولا الشيطان في هلاك الناس إلا طمعا.. إضرب بطرفك حيث شئت من الناس فهل تبصر إلا فقيرا يكابد فقرا، أو غنيا بدل نعمة الله كفرا، أو بخيلا اتخذ البخل بحق الله وفرا (١)، أو متمردا كان بأذنه عن

---

(١) الوفر: المال الكثير.

---

[٢٢٨]

سمع المواعظ وقرا (١)..) (٢). وقال: (. فمن آتاه الله مالا فليصل به القرابة، وليحسن منه الضيافة، وليفك به الاسير والعاني، وليعط منه الفقير والغارم (٣)، وليصبر نفسه (٤) على الحقوق والنوائب، فإن فوزا بهذه الخصال شرف مكارم الدنيا ودرك فضائل الآخرة) (٥). * * * راجع النصوص التالية: رقم ٢٣ و ١٠٨ و ١١٥ و ١٢٧ و ١٤٠ و ١٦٤ و ١٦٥.

---

(١) الوقر: ثقل الاذن وقلة سماعها. (٢) نهج البلاغة، رقم النص: ١٢٧. (٣) الغارم: من عليه دين. (٤) صبر نفسه: حبسها. (٥) نهج البلاغة، رقم النص: ١٤٠.

---

[٢٢٩]

(٣) لا يريد منا الامام عليه السلام أن نقطع أنفسنا عن دنيانا وأن نحرمها لذات هذه الدنيا، وأن نغل غرائزنا وشهواتنا عن الانطلاق. إن التحرر عن طريق الحرمان شئ عظيم ونبيل، ولكن أكثر الناس لا يستطيعونه، ولا يقوون على احتماله. فها هو عليه السلام يقرر في إحدى كلماته المضيئة الهادية عقم كل محاولة ترمي إلى اقتطاع الانسان من واقعه: واقع جسمه وغرائزه ورغباته كإنسان، وواقع حياته ذات المطالب والحاجات، وواقع كينونته الاجتماعية. يقرر عليه السلام عقم كل محاولة ترمي إلى اقتطاعه من هذا الواقع بالتنكر لغرائزه ورغباته وحاجات حياته ولكن لماذا ؟. لان أسر هذه الغرائز والرغبات مودع في طبيعة الانسان، ولا يسعه التفلت من أسرها إلا بالاستحالة إلى ذات أخرى. قال عليه السلام: (الناس أبناء الدنيا ولا يلام الرجل على حب أمه) (١).

---

(١) نهج البلاغة، باب المختار من حكم أمير المؤمنين، رقم النص: ٣٠٣.

---

[٢٣٠]

كنى بذلك عن أن دوافع الانسان إلى إجابة حاجات نفسه وشهواتها مودعة فيه، وإذا كانت مودعة فيه فهي جزء من كيانه، وهي تسهم في حبك جزء من نسيج وجوده الانساني، ولذلك فهو يحبها ويقبل عليها، ويأخذ بحظ منها، ولكن لا لوم عليه في ذلك، فهو حينما يقبل عليها إنما يلبي بإقباله هاتفا ملحا لا قبل له بكتم صوته مهما أوتي من عزيمة ومضاء. وهنا تأتي قصة عاصم بن زياد شاهد صدق على ما نقول: دخل عليه السلام على العلاء بن زياد الحارثي يعوده فلما رأى سعة داره قال: (ما كنت تصنع بسعة هذه الدار في الدنيا أما أنت إليها في الآخرة كنت أحوج ؟ وبلى ان شئت بلغت بها الآخرة، تقري فيها الضيف، وتصل فيها الرحم، وتطلع منها الحقوق مطالعها (١)، فإذا أنت قد بلغت بها الآخرة). فقال له العلاء: يا أمير المؤمنين أشكو اليك أخي عاصم بن زياد. قال: وماله ؟ قال: لبس العباءة وتخلى عن الدنيا. قال: علي به، فلما جاء قال: (يا عدي (٢) نفسه لقد استهام بك الخبيث (٣)، أما رحمت أهلك وولدك ؟ أترى الله أحل لك الطيبات وهو يكره أن تأخذها ؟ أنت أهون على الله من ذلك).

---

(١) أطلع الحق مطلعه: أظهره حيث يجب أن يظهر. ومطالع الحقوق مصارفها الشرعية. (٢) عدي: مصغر عدو. (٣) الخبيث: الشيطان. استهام بك: تعلق بك.

[٢٣١]

فقال عاصم: يا أمير المؤمنين، هذا أنت في خشونة ملبسك وجشوبة مطعمك ؟. قال: (ويحك إني لست كأنت، إن الله فرض على أئمة العدل أن يقدروا (١) أنفسهم بضعفة الناس كيلا يتبيغ (٢) بالفقير فقره) (٣). ففي هذه القصة نرى الامام عليه السلام يلوم العلاء على سعة داره، ويتخذ لومه سبيلا إلى بيان وجوه الانتفاع بها، فيشير إلى أنه لا حرج على المرء في أن يجمع بين الدنيا والآخرة، فيمتع نفسه في الدنيا بمباهجها، ويبلغ في الآخرة عليا الدرجات. ثم يؤنب عاصما على فعله حين هجر الدنيا ولبس العباءة، فبين له أنه بفعله هذا أناني يعمل لنفسه، إذ أن جدوى عمله لو استطاعه ووالاه لا ترجع إلا إليه، وأما غيره من الناس فلا يصيب منه نفعا وخاصة أهله وولده وهم الصق الناس به، وبين أن من الخير له أن يجمع بين العمل لنفسه والعمل لغيره، وأن يجمع بين الدنيا والآخرة. والطيبات. ؟ هل حرمها الله ؟ كلا ان الانسان مدعو لان يصيب منها شريطة ألا يستغرق فيها على نحو يلهيه عن الغاية الرفيعة لوجوده. * * * وقال عليه السلام: (للمؤمن ثلاث ساعات: فساعة يناجي فيها ربه

---

(١) يقدروا أنفسهم: يساووا أنفسهم بضعفاء الناس، فيكونوا قدوة للاغنياء. (٢) يتبيغ: يهيج بالفقير ألم الفقر فيهلكه. (٣) نهج البلاغة، رقم النص: ٢٠٧.

---

[٢٣٢]

وساعة يرم معاشه (١)، وساعة يخلي فيها بين نفسه وبين لذتها فيما يحل ويجمل. وليس للعاقل أن يكون شاخصا إلا في ثلاث: مرمة لمعاش، أو خطوة في معاد، أو لذة في غير محرم) (٢). وقال عليه السلام: (خذ من الدنيا ما أتاك، وتول عما تولى عنك، فإن أنت لم تفعل فاجمل في الطلب) (٣) - (٤). * * * هذا موقفه من الدنيا: لا حرج على الانسان أن يطلب الدنيا ويسعى إليها ويصيب من لذاتها، ولكن عليه أن يطلب الدنيا من طريق الحلال، ويصيب من لذتها ما يحل ويجمل، ثم لا يتهالك على الدنيا ولذاتها على نحو غير إنساني، بحيث ينقلب من انسان ذي مشاعر نبيلة، وإمكانات رفيعة عالية إلى مجرد آلة. آلة لجمع النقود وتكديسها، لتنفق في وجوه غير إنسانية. إن هذا ليس جديرا بالانسان أن يفعله، أجمل في الطلب لتعطي لنفسك حقها ولربك حقه. * * *

---

(١) يرم معاشه: يصلح معاشه. (٢) نهج البلاغة، باب المختار من الحكم، رقم النص: ٣٩. (٣) أي فإن لم تترك ما تولى عنك وأردت أن تطلبه، فليكن طلبك جميلا، واقفا بك عند الحق. (٤) نهج البلاغة، باب المختار من الحكم رقم النص: ٢٩٣.

---

[٢٣٣]

والفقر. ؟ ما موقف الامام منه ؟. إن الامام ليكره الفقر، ويستعيذ بالله منه، ويأمر الناس بالاستعاذة بالله منه، وينعته بأقبح النعوت. قال عليه السلام: (الغنى في الغربة وطن، والفقر في الوطن غربة) (١). (الفقر يخرس الفطن عن حجته) (٢). (الفقر الموت الاكبر) (٣). (ألا وإن من البلاء الفاقة، وأشد من الفاقة مرض البدن، وأشد من مرض

البدن مرض القلب. ألا وإن من النعم سعة المال، وأفضل من سعة المال صحة البدن، وأفضل من صحة البدن تقوى القلب) (٤). وقال لابنه محمد بن الحنفية: (يا بني إني أخاف عليك الفقر فاستعذ بالله منه، فإن الفقر منقصة للدين، مدهشة للعقل، داعية للمقت) (٥).

---

(١) نهج البلاغة، باب المختار من حكم أمير المؤمنين، رقم النص: ٥٦. (٢) نهج البلاغة، باب المختار من حكم أمير المؤمنين، رقم النص: ٣. (٣) نهج البلاغة، باب المختار من حكم أمير المؤمنين، رقم النص: ١٦٣. (٤) نهج البلاغة، باب المختار من حكم أمير المؤمنين، رقم النص: ٣٨٨. (٥) نهج البلاغة، باب المختار من حكم أمير المؤمنين، رقم النص: ٣١٩.

وإن إنسانا ينعت الفقر بهذه النعوت لا يمكن أن يقال عنه إنه يحبذ الفقر ويكره الغنى، ولقد كان عليه السلام يستعيذ بالله من الفقر، ويسأله أن يغنيه، فمن دعاء له عليه السلام: (أللهم صن وجهي باليسار (١)، ولا تبذل جاهي بالاقتار (٢)، فأسترزق طالبي رزقك، واستعطف شرار خلقك، وأبتلى بحمد من أعطاني، وافتتن بذم من منعني، وأنت من وراء ذلك كله ولي الاعطاء والمنع، إنك على كل شئ قدير) (٣). ومن دعاء له عليه السلام: (أللهم إني أعوذ بك أن أفتقر في غناك، أو أضل في هداك، أو أضام في سلطانك، أو أضطهدوا لامر لك) (٤). وهكذ ترى أنه عليه السلام يحارب الفقر حربا لا هوادة فيها، ويحذر منه، ويستعيذ بالله أن يبتليه به.

---

(١) صيانه الوجه: حفظه من ذل السؤال، واليسار الغنى. يسأل الله تعالى أن يغنيه لئلا يضطر إلى السؤال. (٢) بذل الجاه: إسقاط المنزلة. والافتقار الفقر. يسأل الله تعالى ألا يفقره فتسقط منزلته. (٣) نهج البلاغة، رقم النص: ٢٢٣. (٤) نهج البلاغة، رقم النص: ٢١٣.

ان الدنيا عنده جديرة بالاقبال عليها، والعمل فيها، والاخذ بحظ من متعها ولذاتها، وإن الفقر عنده أمر مذموم خطر، على الانسان أن يتخلص منه ويستعيذ بالله من بلوائه. * * * راجع النصوص التالية: ٢٠٧ و ٢١٣ و ٢٢٣، وفي باب المختار من حكم أمير المؤمنين راجع النصوص التالية: رقم ٣ و ٥٦ و ١٦٣ و ٣١٩ و ٣٨٨ و ٣٩٠ و ٣٩٣ و ٤١٦.

---

(٤) وإذ قد تم لنا أن نلم بالمثل الاعلى للحياة في الاسلام، والواقع الاجتماعي الذي كان يعانيه الامام، والواقعية العربية التي احتضنها الدين، ورأي الامام عليه السلام في الدنيا والآخرة، والغنى والفقر، فلنأخذ سبيلنا إلى دراسة القسم الوعظي من نهج البلاغة. والقسم الوعظي على ضروب وألوان، ففيه مواعظ بالتحذير من اتباع الهوى وطول الامل، وأخرى بالحض على العمل قبل فوات الفرصة، وثالثة بالتذكير بالماضين، ورابعة بتقلب الدنيا. * * * ماذا يعني اتباع الهوى وطول الامل في الدنيا ؟ أما اتباع الهوى فهو يعني أن الانسان

يبني مشاريعه على أسس غير عقلية، ومن ثم فهي غير واقعية، وإنما هي قائمة على نزوات وشهوات ضخمها الخيال. وأما طول الامل فيعني أن الانسان يغمض عينيه عن أعظم حقيقة هو لابد ملاقيها وهي الموت.

---

[٢٣٧]

وإذا فهذا اللون من الوعظ موجه إلى الذين يتهالكون على الدنيا تهالكا خطرا يجرهم إلى أمرين خطيرين: أولهما تزييف الواقع الذي يحيونه، وهذا ما يسميه بطول الامل، وثانيهما ضمور الحاسة الاخلاقية في النفس، إلى حد يجعل الانسان ضعيفا أمام رغائبه وأهوائه. ويترك إلى هذه الرغائب والاهواء أمر صياغة مصيره. قال عليه السلام: (أيها الناس، ان أخوف ما أخاف عليكم اثنان: اتباع الهوى وطول الامل. فأما اتباع الهوى فيصد عن الحق. وأما طول الامل فينسي الآخرة. ألا وان الدنيا قد ولت حذاء (١)، فلم يبق منها إلا صبابة (٢) كصبابة الاناء اصطبها صابها، ألا وإن الآخرة قد أقبلت، ولكل منهما بنون، فكونوا من أبناء الآخرة ولا تكونوا أبناء الدنيا، فإن كل ولد سيلحق بأمه يوم القيامة وان اليوم عمل ولا حساب، وغدا حساب ولا عمل (٣)). العمل للدنيا على نحو يوجب ضمور الحس الاخلاقي في النفس، وعلى نحو يوجب تزييف الواقع وحسبان الخلود، مما يوجب نسيان الآخرة، والاندفاع في حياة مادية، تجرد الانسان من معناه الانساني لتحيله إلى مجرد آلة لجمع النقود والاستمتاع، هذا العمل شر كله، لانه يفسد الشخصية الانسانية ويهبط بها، ولذلك فهو عمل منهي عنه.

---

(١) حذاء: سريعة. (٢) الصبابة: البقية من الماء واللبن في الاناء. (٣) نهج البلاغة، رقم النص: ٤٢.

---

[٢٣٨]

ثم نبه إلى أن طول الامل والتزييف للواقع أمر لا مبر له فالدنيا سريعة (حذاء) وهي بالنسبة إلى كل شخص، (لم يبق منها إلا صبابة كصبابة الاناء) فلماذا طول الامل وما مبرره ؟. وهاتان الآفتان النفسيتان: اتباع الهوى وطول الامل، لا تحلان إلا في نفس اطرحت النظرة الواقعية الاسلامية. وقد كان الواقع الاجتماعي في زمن الامام يبعد بين الانسان وبين هذه الواقعية وينأى به عنها. وهذا النحو من العمل للدنيا يسبب التفسخ الاجتماعي، فهو لا يقتصر بآثاره الضارة على الفرد وحده، وإنما يمتد بهذه الآثار إلى المجتمع. قال عليه السلام: (.. قد غاب عن قلوبكم ذكر الآجال، وحضرتكم كواذب الآمال، فصارت الدنيا أملك بكم من الآخرة، والعاجلة أذهب بكم من الآجلة. وإنما أنتم إخوان على دين الله، ما فرق بينكم إلا خبث السرائر، وسوء الضمائر، فلا توازرون، ولا تناصحون، ولا تباذلون ولا توادون، ما بالكم تفرحون باليسير من الدنيا تدركونه، ولا يحزنكم الكثير من الآخرة تحرمونه ؟ ويقلقكم اليسير من الدنيا يفوتكم حتى يتبين ذلك في وجوهكم وقلة صبركم عما زوي (١) منها عنكم، كأنها دار مقامكم، وكأن متاعها باق عليكم ! !

---

(١) زوي عنكم: زواه أي نحاه.

وما يمنع أحدكم أن يستقبل أخاه بما يخاف من عيبه إلا مخافة أن يستقبله بمثله. قد تصافيتم على رفض الآجل، وحب العاجل، وصار دين أحدكم لعقة (١) على لسانه، صنيع من قد فرغ من عمله وأحرز رضى سيده) (٢). وقال عليه السلام: (.. قد اصطلحتم على الغل فيما بينكم (٣)، ونبت المرعى على دمنكم (٤)، وتصافيتم على حب الآمال، وتعاديتم في كسب الاموال، لقد استهام بكم الخبيث (٥) وتاه بكم الغرور) (٦). أرأيت إلى هؤلاء الذين جمعتهم الانسانية فوحدت غرائزهم وقواهم ومداركهم، ثم جمعهم الدين والوطن فوحدا آمالهم، وآلامهم، وأهدافهم، ومطامحهم، كيف جعلهم العمل للدنيا، على نحو جنوني، يفقدون أجل ميزاتهم

---

(١) عبر باللعقة عن الاقرار باللسان مع كونه مخالفا بالقلب. (٢) نهج البلاغة، رقم النص: ١١١. (٣) اصطلحتم: اتفقتم، والغل: الحقد. أي اتفقتم على تمكين الحقد في النفوس. (٤) الدمن: جمع دمنة، وهي الحقد القديم. ونبت المرعى على دمنكم: أي أن حقد بعضكم على بعض مستور بظواهر النفاق فيما بينكم. وأصل معنى الدمن: نفايات الانسان من بطنه وأرواث الماشية وأبوالها، وسميت بها الاحقاد لانها أشبه شئ بها، وقد تنبت على هذه القذارات الاعشاب الخضراء فتسترها بمنظر جميل، يخفي تحته قذارة تعافها النفس، فهكذا الاحقاد الانسانية المخبأة تحت ستار من التصنع والرياء. (٥) استهام: أصله من (هام على وجهه) إذا خرج لا يدري إلى أين يذهب، أي أخرجكم الشيطان من نور الفطرة وضياء الشريعة إلى ظلمات الضلال والحيرة. (٦) نهج البلاغة، رقم النص: ١٣١.

الانسانية فلا يتوازرون، ولا يتناصحون ولا يتباذلون. واستحالت هذه النبالات في أعماقهم إلى غرائز ذئبية فخبثت سرائرهم، وفسدت ضمائرهم، وانفصمت عرى الود فيما بينهم، وانظر كيف ساقهم ذلك إلى الجبن الاجتماعي، فيغضي أحدهم عن عيب صاحبه، لانه يخشى أن يواجهه بعيبه. وقد عرفت أنه عليه السلام لا يتنكر لمن يعمل للدنيا على نحو لا يلهيه عن الآخرة، ولا يحيله إلى آلة جشعة لا تعرف معنى للشبع ولا للوقوف، وهو في هذا اللون الوعظي لا يدعو إلى هجر الدنيا وإنما يدعو إلى التخفيف من الظراوة في طلبها ويدعو إلى النظر إليها من زاوية الواقع وحده. وإن طائفة من الناس تحيا هذا اللون البشع من الحياة المادية الخالصة التي وصفها الامام عليه السلام في النص الذي قدمناه لبعيدة كل البعد عن المثل الاعلى للحياة في الاسلام، فهؤلاء الذين أقفرت ضمائرهم من الشعور بالله، وصار دين أحدهم لعقة على لسانه، قد انقلب كل منهم إلى أنانية تمشي، فيتنكر لمجتمعه ويسير على هدى شهواته. وإن العمل للدنيا على هذا النحو الذي يفقد الانسان أجل ميزاته لهو عمل جدير بأن يحارب. * * * راجع النصوص التالية: رقم ٤٢ و ٨٤ و ١٠٣ و ١١١ و ١٣١، وفي باب المختار من الحكم راجع: رقم ١٨ و ٣٦.

(٥) والتذكير بالماضين وبما عرض لهم من طوارق الدهر ونوازل الايام، وبما ألم بهم من نكبات وآلام، وكيف أن كل ما نصبوا أنفسهم لجمعه من مال لم يغن عنهم شيئا حين حل بهم الموت.. هذا التذكير بالماضين يتخذه الامام عليه السلام وسيلة إلى تجسيم الواقع الذي

يزيفه الناس، ويفرون منه، ويتمردون عليه. والتاريخ عند العاملين للدنيا على نحو جنوني ينقلب إلى مادة للتسلية واللهو بدل أن يكون منبعا للعبرة ومقيلا من العثرة، وينقلب أيضا صدى ميتا لكائنات لا تصلهم بها صلة، ولا تشدهم إليها وشيجة، فلا تثير مآسية فيهم طائف حزن، ولا تمدهم تجاربه بالبصيرة. ويحاول الامام في هذا اللون من مواعظه أن يصل ما انقطع بينهم وبين التاريخ بصلات الفكر والعاطفة، ووشائج العقل والقلب، ليعود التاريخ في أنفسهم مادة غنية بالحياة والحركة، فهي توجه وترشد، وتمسك بالانسان عن الزيغ والانحراف. قال عليه السلام: (.. وخلف لكم عبرا من آثار الماضين قبلكم، دراسات في نهج البلاغة (١٦)

من مستمتع خلاقهم (١) ومستفتح خناقهم (٢)، أرهقتهم (٣) المنايا دون الآمال، وشذ بهم عنها تخرم الآجال (٤)، لم يمهدوا في سلامة الابدان (٥) ولم يعتبروا في أنف الاوان (٦).. أو لستم أبناء القوم والآباء، واخوانهم والاقرباء ؟ تحتذون أمثلتهم، وتركبون قدتهم (٧)، وتطأون جادتهم (٨) ؟ فالقلوب قاسية عن حظها، لاهية عن رشدها، سالكة في غير مضمارها، كأن المعني سواها (٩)، وكأن الرشد في إحراز دنياها (١٠)). وهكذا يقرر عليه السلام صلة التاريخ بهم، وأنه ليس غريبا عنهم فهو تأريخ آبائهم وأمثالهم. ويقرر أيضا أن هذا التاريخ مشلول عن عمله، فهو لا يقوم بدوره في صياغة حياتهم، لانهم لا يزالون ينتهجون نفس الخطة التي انتهجها من قبل آباؤهم، فكأن الدنيا عندهم غاية كل شئ ومنتهى كل غاية.

---

(١) الخلاق: النصيب الوافر من الخير. (٢) الخناق: حبل يخنق به. كناية عن أنهم لم يغتنموا الفسحة في العمر. (٣) أرهقتهم: أعجلتهم. (٤) انقضاء آجالهم قطعهم (شذ بهم) عن بلوغ آمالهم. (٥) لم يمهدوا. أي لم يهيأوا أنفسهم للقاء الله تعالى، وهم في حال السلامة. (٦) أمر أنف - بضمتين - أي أمر جديد مستأنف لم يسبق به قدر. (٧) القدة: الطريقة. (٨) تطأون جادتهم: تسيرون على سبيلهم، بلا انحراف عنهم في شئ. (٩) كأن المعني: كان المقصود بالتكاليف الشرعية سواها. (١٠) نهج البلاغة، رقم النص ٨١.

وقال عليه السلام: (. فقد رأيت من كان قبلك ممن جمع المال، وحذر الاقلال (١) وأمن العواقب - طول أمل واستبعاد أجل - كيف نزل به الموت، فأزعجه عن وطنه، وأخذه من مأمنه، محمولا على أعواد المنايا (٢) يتعاطى به الرجال الرجال، حملا على المناكب، وإمساكا بالانامل. أما رأيتم الذين يأملون بعيدا، ويبنون مشيدا، ويجمعون كثيرا كيف أصبحت بيوتهم قبورا وما جمعوا بورا (٣)، وصارت أموالهم للوارثين، وأزواجهم لقوم آخرين) (٤). وإذن فلم يغن عن هؤلاء تزييفهم لواقعهم، وغرورهم بأنفسهم، وحسبانهم أنهم خالدون. لقد دهمهم هذا الواقع وهم يحسبون أنهم في أمان، فهل أغنت عنهم أموالهم وهل حصنتهم قصورهم ؟ لا، لقد ذهبوا، فليكن لك فيما صار إليه أمرهم عبرة تدفعك إلى اليقظة، وترحض عنك الغفلة. ومن البين أن الامام عليه السلام في هذا اللون من مواعظه لا يريد الناس على أن يفروا من دنياهم، ويتركوا العمل لها، فقد رأيناه يكره هذا اللون من السلبية

---

(١) الاقلال: الفقر. (٢) أعواد المنايا: النعش. (يتعاطى به الرجال.) يتداولونه تارة على أكتاف هؤلاء، وأخرى على أكتاف هؤلاء. (٣) البور: الفاسد الهالك. وقال تعالى: (وكنتم قوما بورا) أي هالكين. (٤) نهج البلاغة، رقم النص: ١٣٠.

---

[٢٤٤]

إنما يريد ان يحملهم على أن ينظروا إلى الحياة من زاوية الواقع وأن يصدروا في سلوكهم عن هذه النظرة الواقعية الوادعة المصيبة. * * * راجع النصوص التالية: رقم ٢٠ و ٣٢ و ٨١ و ١٠٩ و ١٣٠ و ١٨٠ و ٢٢٤ وفي باب الكتب وصيته إلى ولده الامام الحسن عليه السلام رقم: ٣١.

---

[٢٤٥]

(٦) ذكر الامام عليه السلام أن طول الامل ينسي الآخرة. ومن البين أن الانسان حين ينسى أن ثمة عالما آخر سيصير إليه، فإنه يحصر جميع وجوه نشاطه في العمل لدنياه، ولا يتورع في عمله هذا عن سلوك أقبح الطرق الموصلة إلى حيازة المزيد من المال، والتمتع بالمزيد من القوة، وهكذا يدفع طول الامل إلى اتباع الهوى، الذي عرفه الامام بأنه يصد عن الحق، فهو يحمل صاحبه على ركوب كل شئ في سبيل الوصول إلى ما يريد. فإذا تمكن طول الامل واتباع الهوى من نفس إنسان حملاه على طلب الدنيا على نحو جنوني يجعله خطرا اجتماعيا، وعلى نسيان العمل للآخرة. في بعض الالوان الوعظية التي يحتويها القسم الوعظي من نهج البلاغة يحارب الامام عليه السلام هذا الانحراف، ويدعو الغافلين عن مصيرهم إلى العمل له. فإذا كان طول الامل غرورا خادعا، وكان اتباع الهوى باطلا، وكنا نعلم بأن المصير هو الموت، واننا سنصير بعد الموت إلى دنيا أخرى نجزى فيها بما قدمناه من أعمالنا: نثاب إن أحسنا ونؤخذ بجرائرنا إن كنا من ذوي الجرائر. وإذا كان هذا كله حقا فلماذا لا نقدم لانفسنا ما نحرزها به غدا، ونحن نعلم

---

[٢٤٦]

أننا حينذاك لا نملك أن نعمل شيئا، فاليوم عمل ولا حساب وغدا حساب ولا عمل، ونحن نعلم أن الموت قد يلم بنا في أي لحظة، فلماذا التسويف ؟ ومن البين أنه عليه السلام لا يدعو إلى ترك الدنيا وإنما يدعو إلى العمل للآخرة. وكأن الامام يدعو إلى الجمع بين الآخرة والدنيا، فهو لا ينهى عن العمل للدنيا، وإنما ينهى عن الاستغراق في هذا العمل، بحيث ينسى الانسان الآخرة ويقفر ضميره من الشعور بالله، وينقطع ما بينه وبين مجتمعه من أواصر الود والرحمة، وذلك كله يحول بينه وبين أن يبلغ المثل الاعلى في الاسلام. قال عليه السلام: (فليعمل العامل منكم في أيام مهله (١) قبل إرهاق أجله (٢)، وفي فراغه قبل أوان شغله، وفي متنفسه قبل أن يؤخذ بكظمه (٣)، وليمهد لنفسه وقدومه، وليتزود من دار ضعنه لدار إقامته) (٤). * * * وما نشك في ان هؤلاء الذين كان الامام عليه السلام يدعوهم إلى العمل للآخرة قبل فوات الفرصة كانوا قوما يقيمون الصلاة لاوقاتها، ويصومون رمضان، ويحجون البيت، فماذا كان يريد الامام منهم غير هذا ؟

(١) المهل: المهلة والفسحة. (٢) إرهاق الاجل: أن يقرب الاجل، فلا يبقى للمفرط فرصة يتدارك بها ما فاته من العمل. (٣) الكظم - بالتحريك - الحلق، أو مخرج النفس. والاخذ بالكظم كناية عن التضييق عند قرب الاجل أو حلوله. (٤) نهج البلاغة، رقم النص: ٨٤.

---

[٢٤٧]

نعم، إن هؤلاء كانوا يأتون كل هذا وزيادة، وقد يحسب السطحيون ان هذا وحده كاف لجعل الانسان فاضلا، ولكنه في ميزان الامام أضعف الايمان. فهؤلاء الذين كان يتوجه إليهم الامام بكلامه هذا كانوا يصلون ويصومون، ويحجون البيت. ولكن القبلية كانت تعصف بهم عصفا شديدا. ولكن الاحقاد والمطامع كانت تدفعهم إلى التناكر فيما بينهم، وكانت تسل من أرواحهم كل خلق إنساني حميد. ولكن سياسة معاوية كانت تستهويهم، فتحملهم على الخيانة وتحملهم على الرضا بالذلة، وتحملهم على أن يصيروا عبيدا. ولكنهم كانوا فرديين لا يأبهون للمجتمع ولا يحسبون لآلامه حسابا. كانوا غرباء عن هذه الخلائق. ولذلك لم يرض عنهم الامام، ولذلك استثارهم إلى العمل للآخرة قبل فوات الفرصة. ولم يكن هذا العمل الذي أراده منهم صلاة ولا صوما ولا حجا، فتلك امور كانوا يأتون بها، ولا يقعدون عنها. لقد كان العمل الذي أراده هو الفضيلة، هو ان يكون كل منهم خلية اجتماعية حية، تكدح في سبيل خير المجموع، هو أن يكونوا أحرارا فلا تستعبدهم الشهوات، فتحملهم على الانحراف عن الحق، ولا تستعبدهم الحياة فتحملهم على الرضا بها مسفة حقيرة عارية من كل نبالة رفيعة وهدف عظيم. كان يريدهم أن يحطموا أصنام اللحم التي يعبدونها، أعني ساداتهم ورؤسائهم ومن له عليهم سلطان ليخلصوا العبادة لله وحده.

---

[٢٤٨]

قال عليه السلام: (.. إن من عزائم الله في الذكر الحكيم التي عليها يثيب ويعاقب، ولها يرضى ويسخط، أنه لا ينفع عبدا - وان أجهد نفسه وأخلص فعله - أن يخرج من الدنيا لاقيا ربه بخصلة من هذه الخصال لم يتب منها: أن يشرك بالله فيما افترض عليه من عبادته، أو يشفي غيظه بهلاك نفس، أو يعر (١) بأمر فعله غيره، أو يستنجح (٢) حاجة إلى الناس بإظهار بدعة في دينه، أو يلقى الناس بوجهين، أو يمشي فيهم بلسانين، إعقل ذلك فإن المثل دليل على شبهه) (٣). وقال عليه السلام: (.. ولا ترخصوا لانفسكم (٤) فتذهب بكم الرخص فيها مذاهب الظلمة، ولا تداهنوا فيهجم بكم الادهان على المعصية (٥). عباد الله:

---

(١) يعر: يعيب ويلطخ، أي أن من أعظم الجرائم أن يعيب الانسان غيره بأمر قد فعله هو. (٢) يستنجح: أي يطلب نجاح حاجته من الناس بالابتداع في الدين. (٣) نهج البلاغة، رقم النص: ١٥١. (٤) أي لا تسامحوا أنفسكم في ترك المعصية، ولا تستهينوا لصغائر الذنوب، لان ذلك يصير عادة لكم فتقعوا فيما وقع فيه الظلمة من الاستهانة بالجرائم. (٥) المداهنة: النفاق، وإظهار خلاف ما في الباطن. والادهان مثله.

---

[٢٤٩]

إن أنصح الناس لنفسه أطوعهم لربه، وإن أغشهم لنفسه أعصاهم لربه، والمغبون من غبن نفسه (١)، والمغبوط من سلم له دينه (٢)، والسعيد من وعظ بغيره، والشقي من انخدع لهواه وغروره. واعلموا

أن يسير الرياء (٣) شرك، ومجالسة أهل الدنيا منساة للايمان (٤) ومحضرة للشيطان (٥). جانبوا الكذب فإنه مجانب للايمان.. ولا تحاسدوا فإن الحسد يأكل الايمان كما تأكل النار الحطب، ولا تباغضوا فإنها الحالقة (٦)، واعلموا أن الامل يسهي العقل، وينسي الذكر، فأكذبوا الامل فانه غرور، وصاحبه مغرور) (٧). في كل هذا لا يدعو الامام إلى ترك الدنيا والانعتاق من أسرها، وإنما يدعو إلى تناولها برفق، ويدعو الناس إلى أن يكونوا كائنات سامية، تجمع الدنيا إلى

---

(١) المغبون: المخدوع. (٢) المغبوط: الذي نال نعمة استحق بها ان تتطلع النفوس إليه، وأن ترغب في نيل مثل نعمته. (٣) الرياء. أن تعمل ليراك الناس، وقلبك غير راغب في العمل. (٤) منساة للايمان. موجبة لنسيان الايمان، والغفلة عنه. (٥) محضرة للشيطان. مكان لحضوره. (٦) فانها الحالقة. فان المباعظة الحالقة، أي الماحية لكل خير وبركة. (٧) نهج البلاغة، رقم النص ٨٤.

الآخرة، فلا تمعن في تلك إمعانا يلهيها عن الاستعداد لهذه، ولا تغرق في هذه إلى حد يعطل فيها شخصية الانسان. * * * راجع النصوص التالية: رقم ٢٨ و ٦٢ و ٨١ و ٨٣ و ٨٤ و ٨٨ و ٩٢ و ١٥١ و ١٥٥ و ١٧١ و ١٨١ و ١٨٨ و ١٩٦ و ٢٠١ و ٢١٢ و ٢٢٨ و ٢٣٥.

---

(٧) والقسم الذي يعظ فيه الامام عليه السلام بتقلب الدنيا وعدم قرارها على حال هو أشد الالوان الوعظية، فيما يبدو، حلوكة وتشاؤما، إنه يصف فيه الدنيا بالتقلب، والمكر، والخداع. ويشبهها بالحية السامة، ويدعو إلى الزهد فيها، والانقطاع عنها. ويلوح، في بادي النظر، أن الامام في هذا القسم يدعو إلى ترك العمل للحياة، ويدعو إلى الاستراحة إلى خيالات الموت والقبر، فيشل في الانسان الرغبة في الحياة والاقبال عليها، ويقعد به عن الجهاد من أجلها، ويحيله إلى إنسان متذائب واهن القوى. ولكن قليلا من التأمل والامعان كفيل بأن يبين خطأ هذا الرأي. فقد سبق منا أن تعرفنا على رأيه في الدنيا والعمل لها، فرأيناه يحبذ العمل للدنيا والاقبال عليها، والتمتع بطيباتها، شريطة ألا يقعد به ذلك عن العمل لآخرته والاستعداد لها، وشريطة ألا ينقلب به العمل للدنيا إلى وحش يصيب مجتمعه بالضرر في سبيل أن يزيد ثرائه، ورأيناه لا يشجع الانقطاع عن الدنيا والاستغراق في العمل للآخرة وحدها، ويعتبر ذلك أنانية لا يجمل بالرجل الكامل أن يمارسها، يتبين ذلك كله في موقفه من العلاء بن زياد وأخيه عاصم.

ورأيناه يجمل رأيه في الدنيا والآخرة في هذه الفقرات: (للمؤمن ثلاث ساعات: فساعة يناجي فيها ربه وساعة يرم معاشه، وساعة يخلي فيها بين نفسه وبين لذتها فيما يحل ويجمل. وليس للعاقل أن يكون شاخصا إلا في ثلاث: مرمة لمعاش، أو خطوة في معاد، أو لذة في غير محرم) (١). هذا هو موقف الامام من الدنيا والآخرة، فهو يشجع على العمل للدنيا في غير إسراف، ويأمر بالعمل للآخرة ولكن في غير إعنات. وهذا هو الموقف الطبيعي المعقول من الدنيا والآخرة، فلا هو يقعد بالمجتمع عن تقدمه، ولا هو يحيل الانسان إلى آلة حاسبة

فحسب. ولكن هذا الموقف لا يلائم ما يقال عن هذا اللون من ألوان وعظه عليه السلام من أنه يدعو فيه إلى الاستراحة إلى خيالات الموت والقبر. وإذا شئنا أن نلتمس حلا صحيحا لهذا التنافي الذي يلوح بين رأي الامام في الدنيا وبين ما يبدو من هذا اللون الوعظي وجدنا مفتاح هذا الحل في وصفه للزهد وتعريفه له. فالامام عليه السلام يعرض في هذا اللون الوعظي جملة من الحقائق التي لا مراء فيها بأسلوب وعظي أعني مثير للرهبة في النفس. فهو يقرر في كلامه أن حياتنا بقدر ما تبدو رتيبة هي متقلبة في عنف، وبقدر ما تبدو مسالمة هي تتربص في كتمان، وبقدر ما تبدو جميلة عظيمة فإنها

---

(١) نهج البلاغة، باب المختار من حكم أمير المؤمنين، رقم النص: ٣٩٠.

---

[٢٥٣]

تنطوي على حقارات وقبائح كثيرة، ثم يكون ختامها الموت، وهو حتم علينا سواء أرضيناه أم كرهناه. وإذن فهؤلاء الذين يحسبونها مسالمة وادعة دائما، ويعتبرونها جميلة عظيمة دائما، ويعتبرونها حلوة سائغة دائما، مخدوعون إذ لا واقع لما يحسبون، فهي في واقعها خليط من السعادة والشقاء، والقلق والاطمئنان، والشدة واللين. والامام عليه السلام يبتغي في هذا اللون الوعظي أن يعرفهم بواقعها ليزهدوا فيها. والزهد الذي يريده الامام غير الزهد في وعي العامة من الناس. فالزهد في وعي هؤلاء لا يعدو أن يكون موقفا سلبيا من الحياة، يشل في الانسان إمكانات الخلق والابداع عنده، ويحيله إلى إنسان متذائب واهن. وكلمة (زاهد) في وعي هؤلاء تستدعي صورة كائن أقل ما يقال فيه أنه عالة على المجتمع. أما الزهد عند الامام فهو تعبير آخر عن رأيه السابق في الدنيا والآخرة. قال عليه السلام في صفة الزهد: (أيها الناس: الزهادة قصر الامل، والشكر عند النعم، والورع (١) عند المحارم، فإن عزب ذلك عنكم (٢) فلا يغلب الحرام صبركم، ولا تنسوا عند النعم شكركم) (٣).

---

(١) الورع. الكف عن الشبهات خوف الوقوع في المحرمات، وأيضا الكف عن المعاصي مع القدرة عليها وترك الشبهات. (٢) فإن عزب. أي بعد. أي فان عسر عليكم أن تقصروا آمالكم، وتكونوا في الزهادة على الكمال المطلوب فلا يفوتكم التحلي بفضيلة شكر النعم، والصبر عند المحرمات. (٣) نهج البلاغة، رقم النص ٧٩.

---

[٢٥٤]

فقد رأينا أن طول الامل ينسي الآخرة، ونسيان الآخرة يدفع بالمرء إلى اتباع هواه، وعند ذلك يعود الانسان خطرا اجتماعيا، لان ذلك ينقلب به إلى حيوان ذي غرائز طاغية، لا كابح لها، تطلب المزيد من كل شئ. فقصر الامل عبارة عن وعي الانسان لواقع حياته، وأن الموت مدركه الآن أو غدا. وهذا الوعي يمسك يده عن الظلم حين لا يستطيع أن يصل إلى أغراضه إلا عن طريق الظلم، ويسل من نفسه الشره والمطامع والاحقاد. والشكر عند النعم، وهو الركيزة الثانية التي يقوم عليها الزهد، عبارة عن فعل الخير، وإسداء المعروف إلى الناس، فليس المراد من الشكر هنا الشكر باللسان، لان الشكر باللسان لا يقدم ولا يؤخر في رقي المجتمع وتقدمه. إن الشكر المراد هنا هو الشكر بالفعل. فهذا الذي يعرف الدنيا على واقعها زاهد فيها ولذلك فهو لا يمسك يده عن اصطناع المعروف لانه يعي

أن ما ينفقه في سبل الخير باق له عند الله وعند الناس. أما ما أمسك يده عليه فيصير إلى غيره ليتمتع به. والورع عند المحارم وهو الدعامة الثالثة من دعائم الزهد نتيجة طبيعية لفهم الدنيا على واقعها، فإذا كانت الدنيا لا تستقر على حال، وكانت خاتمتها الموت، فلماذا نتهالك عليها على نحو يذهب بما فيها من بهجة، فتغدو (؟) سلسلة من القلق والتربص والخداع والآلام ؟ لماذا لا نأخذ منها بقدر، مترقبين نهايتها سعيدة كانت أو شقية، فلئن كانت سعيدة فستنقضي ولماذا لا نقضيها على نحو أفضل، ولئن كانت شقية فستنقضي أيضا، ولماذا نزيدها شقاء وتعاسة ؟.. حسبنا ما نلقى منها. هذا هو الزهد. فهل تجد فيه تنفيرا من الدنيا، وإقصاء عنها ؟ لا، إنه الموقف الصحيح من

الدنيا بين موقف المتهالكين عليها على نحو جنوني وبين موقف المباعدين لها على نحو مرضي. وقال عليه السلام: (الزهد كلمة بين كلمتين من القرآن: قال الله سبحانه: (لكيلا تأسوا على ما فاتكم، ولا تفرحوا بما أتاكم) (١)، ومن لم يأس على الماضي ولم يفرح بالآتي فقد أخذ الزهد بطرفيه) (٢). فأولئك الذين يملك عليهم ألبابهم فوات شئ كانوا يترقبون الحصول عليه، لا يؤمن منهم أن يقارفوا الاثم في سبيل الحصول عليه، وهؤلاء الذين تمتلئ أنفسهم بتصورات هذا الفائت لا يعود لديهم من فراغ النفس وصفاء الضمير ما يتيح لهم التسامي إلى دنيا أرحب وأنبل وأحفل بمثل الخير. وهؤلاء الذين يأسون على ما فاتهم، ويفرحون بما أتاهم لا يستطيعون أن يشكروا الله على نعمته بأفعالهم، فليسوا، والحال هذه، ذوي فائدة للمجتمع. إن الزاهدين هم الذين ينظرون إلى الامور نظرة واقعية، فلا يملك عليهم ألبابهم فوات ما فاتهم، ولا يعمي بصائرهم عن واقع حياتهم فرحهم بما أوتوا. هذا هو الزهد الذي دعا إليه الامام أصحابه وأرادهم عليه، فهل فيه تنفير عن الدنيا ؟ اللهم لا، وإنما هو كما قلنا الموقف الطبيعي بين موقف المتهالكين على الدنيا على نحو جنوني، والمباعدين لها على نحو مرضي.

---

(١) سورة الحديد، الآية ٢٣. وتتمة الآية (.. والله لا يحب كل مختال فخور). (٢) نهج البلاغة - باب المختار من حكم أمير المؤمنين - رقم النص ٤٣٩.

هذا هو الزهد الذي يدعو إليه الامام عليه السلام في هذا القسم الوعظي من كلامه، وهو موقف يوازن بين حاجات الانسان الجسمية والروحية، وهو موقف يجعل من الانسان كائنا اجتماعيا ذا جدوى لمجتمعه، ينفعه ويغنيه. ويجب أن نعي أن المتهالك على الدنيا، الفاقد للحس الاخلاقي، المجرد من الانسانية، غير الشاكر، وبعبارة وجيزة غير الزاهد، هو خطر على المجتمع وعالة عليه أكثر من خطر ذلك الزاهد الذي فهم الزهد فهما خاطئا فاتخذ من الدنيا موقفا سلبيا مرضيا. لان غاية صنيع هذا انه لا يعمل، وانه يعيش عالة على أهله وذويه، أما ذاك فعمله انه يمتص دماء الفقراء بنشاطه الذي لا يعود على هؤلاء الفقراء في صورة خدمات اجتماعية. ولا نريد أن ننكر أن هذا اللون من وعظ الامام يظهر الدنيا في صورة كالحة منفرة إلى حد بعيد، ولكن هذا لا يدل على رأي الامام في الدنيا بقدر ما يدل على ان معاصريه الذين توجه إليهم بهذا الخطاب كانوا مغرقين في الدنيا إغراقا خطرا دفعهم إلى الخيانة: خيانة مجتمعهم وكيانهم

السياسي، ودفعهم إلى التناحر فيما بينهم، ودفعهم إلى عبادة أصنام اللحم: رؤساء القبائل والزعماء، فإنسان يمارس هذا اللون من الحياة لا يمكن انتشاله من واقعه لحظة يتملى فيها مصيره بعين بصيرة إلا بهذا اللون من التعبير والتصوير، وقديما قال علماء البلاغة: ان المخاطب كلما ازداد إغراقا في الانكار حسن من المتكلم أن يمعن في تأكيد ما يقول. وهؤلاء الذين كان الامام يتوجه بخطابه إليهم كانوا على هذا الحال أو قريب منه، فقد بلغ من تزييفهم لواقع حياتهم أن خانوا مجتمعهم فتمالاوا مع معاوية وباعوه ضمائرهم بالمال، وأشعلوا في هذا المجتمع روح القبلية التي دفعت بهيئاته إلى أن يقف كل منها موقفا تناحريا ذا عواقب وخيمة.

وإذن فليس في هذا اللون الوعظي تشويه للحياة الدنيا، وإبعاد عنها، وذم لها، إذا تناولها الانسان كما ينبغي أن يتناولها، فلم يسرف فيها إسرافا يحمله على الظلم، وينقلب به إلى حيوان خطر. وإنما هو كبقية الالوان التي قدمنا فيما سبق، ينصح فيه بالنظر إلى الدنيا كما هي لا كما تصورها لنا أوهامنا وأحلامنا، فإذا ما تم لنا فهمها دعانا إلى العمل فيها على هدى هذا الفهم. وقد رأينا أن موقفه من الحياة هو الموقف الصحيح الذي يدعو إليه الاسلام، أما الوعاظ الذين أخذوا كلامه على ظاهره، وأما ناشئة الجيل التي انفعلت بايحاءات غربية، فهم جميعا مخطئون في فهمهم للقسم الوعظي من نهج البلاغة، لانهم لم يلقوا بالا إلى المثل الاعلى في الاسلام الذي أراد الامام أصحابه على الصعود إليه، ولم يلقوا بالا إلى الواقع الاجتماعي الذي حمل الامام على أن يفيض في مواعظه هذه الافاضة ويعرض فيها هذه الالوان. ولم يعرفوا النظرة الواقعية الاسلامية إلى الحياة الدنيا، النظرة التي تعبر عن نظرة الامام إلى الحياة والانسان. * * * وفي خاتمة هذه الدراسة نقدم بعض نماذج هذا اللون الوعظي الذي أدرنا حوله هذا الحديث. قال عليه السلام: (عباد الله أوصيكم بالرفض لهذه الدنيا التاركة لكم وإن لم تحبوا تركها، والمبلية لاجسامكم وإن كنتم تحبون تجديدها، فانما مثلكم ومثلها دراسات في نهج البلاغة (١٧)

كسفر (١) سلكوا سبيلا فكأنهم قد قطعوه، وأموا علما (٢) فكأنهم قد بلغوه، وكم عسى المجري إلى الغاية أن يجري إليها حتى يبلغها (٣) ؟ وما عسى أن يكون بقاء من له يوم لا يعدوه، وطالب حثيث يحدوه في الدنيا حتى يفارقها ؟ فلا تنافسوا في عز الدنيا وفخرها، ولا تعجبوا بزينتها ونعيمها، ولا تجزعوا من ضرائها وبؤسها، فإن عزها وفخرها إلى انقطاع، وإن زينتها ونعيمها إلى زوال، وضرائها وبؤسها إلى نفاد (٤)، وكل مدة فيها إلى انتهاء، وكل حي فيها إلى فناء، أو ليس لكم في آثار الاولين مزدجر (٥) ؟ وفي آبائكم الماضين تبصرة ومعتبر ان كنتم تعقلون ؟ أولم تروا إلى الماضين منكم لا يرجعون ؟ والى الخلف الباقين لا يبقون ؟ أو لستم ترون أهل الدنيا يصبحون ويمسون على أحوال شتى: فميت يبكى، وآخر يعزى، وصريع مبتلى، وعائد يعود، وآخر بنفسه يجود (٦)، وطالب للدنيا

---

(١) السفر - بفتح، فسكون - جماعة المسافرين، أي أن الانسان في هذه الحياة كالمسافر في مسافة الطريق، فانه يصل إلى نهاية طريقه، والانسان لابد واصل إلى نهاية حياته. (٢) أموا: قصدوا. (٣) المجري: الذي يجري فرسه إلى غاية معلومة، فانه مهما طال جريه لابد واصل في النهاية إلى غايته. (٤) نفاد: فناء. (٥) مزدجر: مكان

للانزجار والارتداع. (٦) من (جاد (؟) بنفسه) إذا قارب أن يقضي نحبه، كأنه يسخو بها ويسلمها إلى خالقها.

والموت يطلبه، وغافل وليس بمغفول عنه ؟ وعلى أثر الماضي ما يمضي الباقي). (ألا فاذكروا هادم اللذات ومنغص الشهوات وقاطع الامنيات عند المساورة للاعمال القبيحة، واستعينوا الله على أداء واجب حقه وما لا يحصى من أعداد نعمه وإحسانه) (١). وقال عليه السلام: (أما بعد، فإني أحذركم الدنيا فإنها حلوة خضرة، حفت بالشهوات، وتحببت بالعاجلة وراقت بالقليل، وتحلت بالآمال، وتزينت بالغرور، لا تدوم حبرتها (٢)، ولا تؤمن فجعتها، غرارة ضرارة، حائلة (٣) زائلة، نافذة بائدة (٤)، أكالة غوالة (٥)، لا تعدو - إذا تناهت إلى أمنية أهل الرغبة فيها، والرضا بها - أن تكون كما قال الله تعالى سبحانه (كماء أنزلناه من السماء فاختلط به

---

(١) نهج البلاغة، رقم النص: ٩٧. (٢) الحبرة - بالفتح - السرور والنعمة. (٣) حائلة: متغيرة. (٤) نافذة: فانية، بائدة: هالكة. (٥) غوالة: مهلكة.

نبات الارض فأصبح هشيما (١) تذروه الرياح وكان الله على كل شئ مقتدرا) (٢) لم يكن امرو منها في حبرة إلا أعقبته بعدها عبرة (٣)، ولم يلق في سرائها بطنا إلا منحته من ضرائها ظهرا (٤)، ولم تطله (٥) فيها ديمة رخاء (٦) إلا هتنت عليه مزنة (٧) بلاء، وحري إذا أصبحت له منتصرة، أن تمسي له متنكرة، وان جانب فيها اعذوذب واحلولى أمر منها جانب فأوبى (٨)، لا ينال امرؤ من غضارتها رغبا (٩) إلا أرهقته من نوائبها تعبا (١٠)، ولا يمسي منها في جناح أمن إلا أصبح على قوادم (١١) خوف، غرارة غرور ما فيها،

---

(١) الهشيم: النبت اليابس المتكسر. (٢) سورة الكهف، الآية: ٤٥، وأول الآية: (واضرب لهم مثل الحياة الدنيا). (٣) العبرة: الدمعة قبل أن تفيض. (٤) كنى بالبطن والظهر عن الاقبال والادبار. (٥) الطل: المطر الضعيف. (٦) الديمة: مطر يدوم في سكون، لا برق ولا رعد معه. والرخاء: السعة. (٧) المزنة: السحابة البيضاء. وهتنت: انصبت وتدفقت. (٨) أوبى: صار كثير الوباء. (٩) الغضارة: النعمة والسعة. (١٠) ألحقت به التعب. (١١) القوادم: جمع قادمة، وهي الواحدة من أربع أو عشر ريشات في مقدم جناح الطائر.

---

(١) الهشيم: النبت اليابس المتكسر. (٢) سورة الكهف، الآية: ٤٥، وأول الآية: (واضرب لهم مثل الحياة الدنيا). (٣) العبرة: الدمعة قبل أن تفيض. (٤) كنى بالبطن والظهر عن الاقبال والادبار. (٥) الطل: المطر الضعيف. (٦) الديمة: مطر يدوم في سكون، لا برق ولا رعد معه. والرخاء: السعة. (٧) المزنة: السحابة البيضاء. وهتنت: انصبت وتدفقت. (٨) أوبى: صار كثير الوباء. (٩) الغضارة: النعمة والسعة. (١٠) ألحقت به التعب. (١١) القوادم: جمع قادمة، وهي الواحدة من أربع أو عشر ريشات في مقدم جناح الطائر.

فانية فان من عليها. لا خير في شئ من أزوادها إلا التقوى) (١). * * راجع النصوص التالية: رقم ٤٥ و ٥٢ و ٦١ و ٧٩ و ٨٠ و ٨١ و ٩٧ و ١٠١ و ١٠٩ و ١١١ و ١١٢ و ١٣١ و ١٤٣ و ١٨٩ و ١٩٤ و ٢٤٤ وكتابه إلى الحارث الهمداني - باب الكتب: رقم ٦٩ وفي باب المختار من الحكم النص رقم: ١١٩ ورقم: ١٩١. وصف الزهد ومعناه: رقم النص ٧٩ وفي باب المختار من الحكم النص رقم: ٤٣٩.

---

(١) نهج البلاغة، رقم النص: ١٠٩.

مكتبة يعسوب الدين عليه السلام الإلكترونية